


# غابة الحق

الأعمال الإبداعية

مهرجان القراءة للجميع

2000 عشر سنوات

أول رواية عربية

رواية

## فرانسيس فتح الله مراش

تقديم ودراسة د جابر عصفور

# غابة الحق

## لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى: مملكة الأساطير (تفصيل)
التقنية: ألوان مائية وخامات مختلفة على ورق
المقاس: ٤٦ × ٨٠سم

**محمود فرشجيان**

فنان تشكيلى إيرانى معاصر، يمتلك القدرة الفائقة على عمل تكوينات بديعة من العناصر البشرية، ولا تفوته أدق التفاصيل،.. وهو يصور المعارك والأساطير، واللقطات الرومانسية لأشعار الحب العربى، البشر لديه بمثابة طيور تنطلق من سماء اللوحة فى حرية، ومن خلال وعيه بحكايات وأساطير الشرق يشعرنا بعبق رائحة الموتيفات الشرقية المتميزة وما تحمله من مشاعر حية متدفقة، وألوان زاهية ساخنة، وخطوط لينة ناعمة، واللوحة المنشورة على الغلاف ـ رغم كونها تفصيل ضئيل من لوحة كبيرة. فهى تعبير حقيقى لما يحويه أسلوب الفنان بكل دقائقه.

**محمود الهندى**

# غابة الحق

فرنسيس فتح الله مراش

تقديم ودراسة : د. جابر عصفور




# مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
## مكتبة الأسرة
## برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

غابة الحق

فرنسيس فتح الله مراش

دراشة وتقديم: د. جابر عصفور

الغلاف

والإشراف الفلى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشـباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

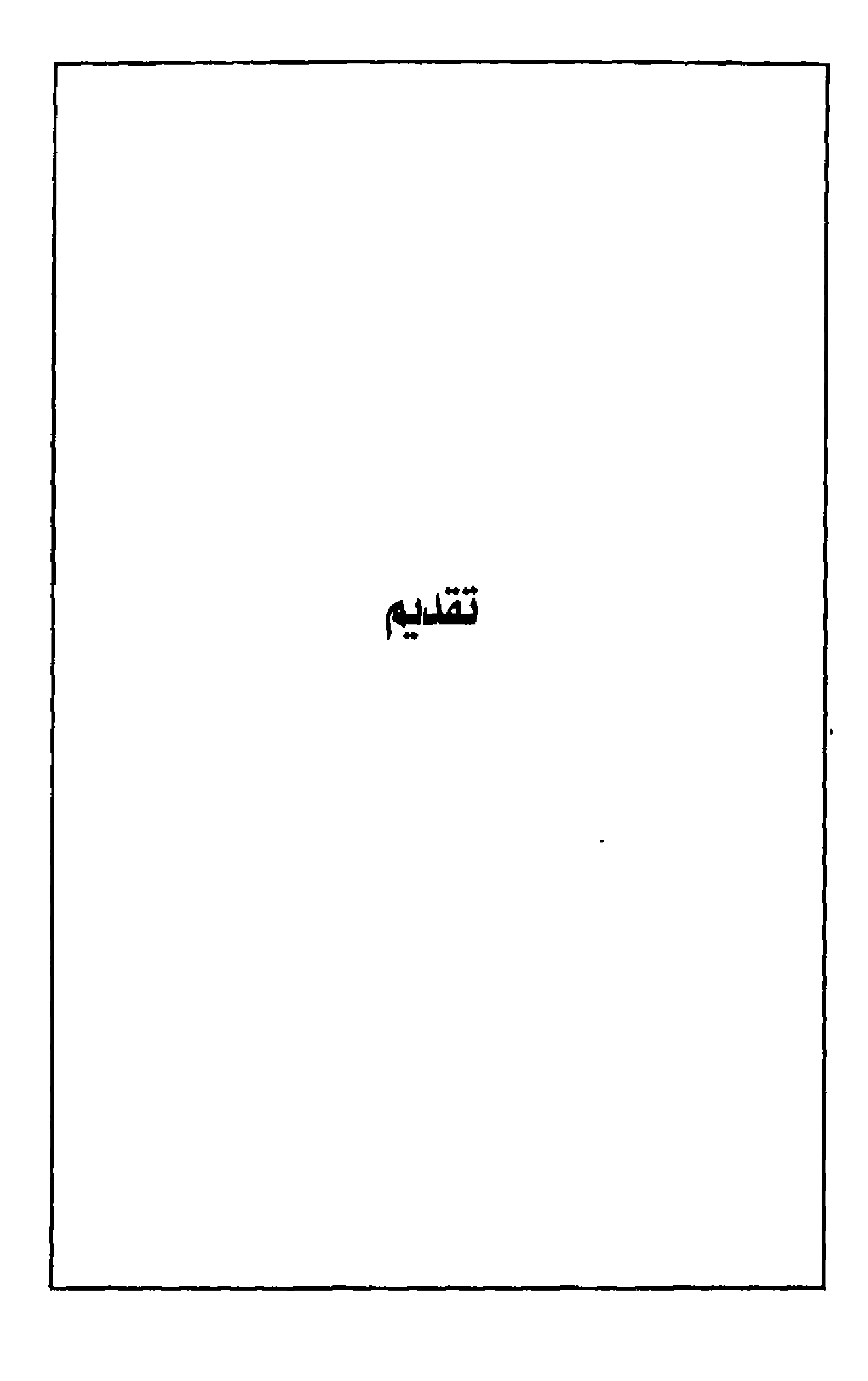
# على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان



# تقديم

لا أذكر على وجه التحديد متى عرفت رواية «غابة الحق» للرائد المجهول فرنسيس فتح الله المراش(١٨٣٥-١٨٧٤). وهى الرواية التى نشرت للمرة الأولى فى حلب سنة ١٨٦٥، فكانت الرواية العربية الأولى التى نعرفها فى العصر الحديث. وأحسب أن بحثى عن جذور الاستنارة العربية وأصولها الحديثة هو الذى قادنى إلى اكتشاف الدور الذى قامت به مدينة حلب السورية، جنبا إلى جنب القاهرة وبيروت، فى تأسيس النهضة الفكرية العربية وتأصيلها على السواء، ومن ثم إلى الحضور الرائد لرواية المراش التى سبقت غيرها فى التبشير بأفكار التقدم.

ولقد كان المرّاش واحدا من العقول الاستثنائية التى حلمت بالنهضة، وسعت إلى تأسيس الحضور المحدث للمجتمع المدنى الذى كان أملا أكثر منه واقعا فى الوقت الذى كتب فيه أمثاله الذين لم يكفّوا عن الحلم بالتقدم والتبشير به. وكانت وسيلتهم

فى ذلك استبدال العقل بالنقل ، والابتكار بالتقليد، والابتداع بالاتباع، والانفتاح على الدنيا الجديدة بدل الانغلاق على العالم القديم، ووضع كل شىء فى هذا العالم القديم موضع المساءلة.

ولذلك كان كل واحد من هذه العقول عقلا إشكاليا، يثير العواصف من حوله، ويصطدم بالأبنية التقليدية الجامدة التى لم تكف عن عرقلة مساعى التقدم وجهود النهضة. وهذا بالضبط ما كان عليه فرنسيس فتح الله المراش فى حلب، سواء حين اصطدم بالسلطة الفكرية الممثلة فى المجموعات التقليدية من رجال الدين المسيحى التى لم تعجبها حريته فى التفكير أو الإبداع، فاصطدموا به واتهموه بالإلحاد، ولكنه لم يخف من هجوم المكفراتية القدامى، وظل يناوش أفكارهم القديمة، عارضا أفكاره الجديدة عن دولة التمدن و غابة الحق وإثارة همم ذوى الاختراعات، والدعوة إلى المساواة بين البشر، والإلحاح على أولوية العقل فى اكتساب المعرفة وتأصيلها.

ولعل المراش فى ذلك كله - كما يقول الصديق جمال باروت فى كتابه عن «حركة التنوير العربية فى القرن التاسع عشر: حلقة حلب» - هو أول منوّر عربى يصوغ نظريتى «العقد

الاجتماعى» و«الحق الطبيعى» على نحو مترابط، إذ إن هذه الصياغة تكاد تكون مفقودة فى الميراث التنويرى العربى الحديث. وتبدو أهمية ذلك فى أن المراش -فيما يؤكد باروت- أعاد صياغة أهم نظرية فى الثورة الفرنسية، تولى الجناح اليعقوبى شرحها، وحوّلها إلى فلسفة سياسية. وقد بدأ المراش من هذه الفلسفة ووسّع أفقها، بل أعاد إنتاجها بما يناسب واقعه المخصوص، تماما كما أعاد إنتاج فلسفة وإبداع الاستنارة الفرنسية التى تأثر بأعلامها، كما تأثر بشعارات الثورة الفرنسية التى دعت إلى الحرية والعدالة والمساواة.

وساعد المراش على الوصول إلى هذه الآفاق الفكرية التى سبق إليها ثقافته الفرنسية، وإقامته فى «باريس» التى جعل منها «شمسا يدور حولها فلك العالم البشرى». وقد ذهب إليها بعد أن تلقى تعليمه الأول فى حلب التى ولد فيها لأسرة حلبية رومية ملكية، إبان الحكم المصرى فى الشام. وقد ذهب إلى باريس عقب «قومة حلب» (١٨٥٠) وأقام فيها عاما وبعض العام. ومن الواضح أنه أتقن الإيطالية إلى جانب الفرنسية، وأن إتقانه اللغات الأجنبية فتح أمامه عوالم ظلت مغلقة أمام الكثيرين الذين لم يكونوا على ثقافته. وكان له من حداثة سنّه وعنفوان شبابه ما زاده

اندفـاعـا إلى اكـتـشـاف عـوالـم الأدب التى تظل فى حـاجـة إلى الاكتشاف. ولم يقتصر على هذه العوامل وحدها، خصوصا بعد أن جمع بينها ودراسة العلوم الطبية التى مضى فى دراستها. ولذلك جمعت ثقافته بين العلم والفن، ومزجت بين الإبداع والتفلسف، الأمر الذى لم يجعله يقتصر على الشعر- الفن التقليدى للمتأدبين - وإنما يضيف إليه الفن الذى أخذ يلفت إليه الأنظار فى أوربا، وهو فن الرواية.

ومهما يكن من أمر، فإن إقامة المراش فى حلب لم تتصل بعد عودته من رحلته الأولى إلى باريس، فقد ظل شوقه إلى مدينة النور يخايله طوال سنوات الإقامة فى حلب، إلى أن غلبه هذا الشوق، وعاد به إلى باريس مرة ثانية سنة ١٨٦٦ ليتخصص فى دراسة الطب بعد أن تعلمه لمدة أربعة أعوام بإشراف طبيب إنجليزى فى حلب، حتى أصبح على حد تعبيره «طبيبا على رأى المعلم وجهولا لدى نغول (فاسدى) المدارس». ولكنه أصيب بشلل عصبى فى عينيه منعه من مواصلة دراسة الطب فى فرنسا، فعاد إلى حلب التى تفاقم فيها المرض إلى أن فقد بصره نهائيا، وأخذ يكتب بأسلوب الإملاء.

وسواء أخذنا بالرواية التى تقول إن المراش ولد سنة ١٨٣٥ وتوفى سنة ١٨٧٤ ، أو الرواية الأخرى التى يأخذ بها باروت من أنه ولد سنة ١٨٣٦ وتوفى سنة ١٨٧٣ ، فإن المراش على الروايتين قد مات شابا، لم يكمل الأربعين من عمره، ورغم ذلك فإنه ترك ميراثا متميزا، يضم قصائده الشعرية التى يجمعها ديوانه، فضلا عن كتابه «رحلة باريس» الذى صدر سنة ١٨٦٧ ، وذلك بالإضافة إلى كتبه الفلسفية التى عثرتُ منها على كتابه «شهادة الطبيعة فى وجود الله والشريعة»، وهو رسالة صغيرة موجودة مع بقية كتب المراش فى مكتبة مدينة الإسكندرية.

أما رواية «غابة الحق» فقد أصدرها فرانسيس فتح الله المراش سنة ١٨٦٥ ، وطبعها بمدينة حلب فى المطبعة المارونية على نفقة إليان نقولا إليان أحد أذكياء أغنياء حلب، فيما يقول عبد المسيح أنطاكى بك صاحب جريدة «العمران» الذى أعاد طبع رواية المراش للمرة الثالثة فى مصر سنة ١٩٢٢ ، وهى الطبعة التى اعتمدتُ عليها بالدرجة الأولى، ولجأت فى التأكد من بعض غامضها إلى العودة إلى الطبعة الأولى الحلبية والطبعة الثانية البيروتية.

ولم يحدثنا المرّاش عن الأسباب التى دفعته إلى كتابة روايته الرائدة «غابة الحق». لكن الرواية نفسها تقول لنا - على نحو ضمنى - إن تأليفها مرتبط بأمرين. أولهما وعى المدينة المحدثة الذى انطوى عليه المرّاش، خصوصا الوعى بمدينة حلب التى تعددت أديانها وأجناسها، ووصلت فى علاقات التحديث إلى الدرجة التي تأسست بها أنواع من الحواريات الفكرية والاجتماعية التى كانت بمثابة النسغ التى استمدت منه «غابة الحق» موضوعها الأساسى. وهو موضوع له علاقة بشعارات الثورة الفرنسية عن الحرية والعدالة والمساواة، تلك الشعارات التى ظلت تتردد فى الأفئدة منذ انفجار هذه الثورة التى بدأت بسقوط سجن الباستيل - رمز العبودية - سنة ١٧٨٩، والتى دعمت المبادئ التى قام عليها إعلان استقلال الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٧٧٦، وهى المبادئ التى أدت فى عمليات الممارسة، متضافرة مع عوامل أخرى، إلى الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١-١٨٦٥) التى انتهت بهزيمة الجنوب وإلغاء الرق وبداية الحملة الدولية لإنهائه فى العالم القديم.

ولا يغيب ذلك كله عن وعى المراش الذى كان يحلم بعالم جديد، تتحقق فيه شعارات الحرية والعدالة والمساواة، ويتنازل

فيه السلطان العثمانى عن رؤى العالم القديمة ليفسح السبيل إلى عالم واحد تتحقق فيه مملكة التمدن التى عثر عليها المراش فى «غابة الحق» التى تخيّلها على شاكلة أحلامه. وذلك هو الأمر الثانى الذى دفع المرّاش إلى الكتابة، سواء من زاوية التبشير بعالم جديد، أو توجيه النقد غير المباشر إلى ما هو سائد وينتمى إلى العالم القديم الذى حلم المرّاش بمجاوزته والدخول فى عالم جديد. ولم تكن المسافة بين قيام الثورة الفرنسية ونشر رواية المراش تجاوز ثلاثة أرباع القرن، بل إن الرواية نفسها نشرت فى السنة ذاتها التى انتهت فيها الحرب الأهلية الأمريكية، وتحمل فى ثنايا فصولها أصداء الدعوة إلى تحرير العبيد، كما تحمل مبررات هذا الإلغاء الذى أصبح علامة على زمن جديد، زمن أخذ يتطلع إليه المرّاش، ويصوغ ما يوازيه رمزيا فى روايته التى سبقت غيرها إلى دخول آفاق الرواية الحديثة.

ولم تكن «غابة الحق» بعيدة عن مسار الرواية الأوربية التى عرفها المراش عن طريق ثقافته الفرنسية، وجنح إلى أشكالها الكلاسيكية ذات الطابع الفلسفى العقلانى، واقترب من نماذجها التعليمية الأولى بوجه خاص. وهى النماذج التى تجاوبت بشكل

أو آخر مع الأشكال السردية التراثية التى كانت شائعة فى زمن المراش. لكن رمزية «غابة الحق» التمثيلية، ومنحاها الإصلاحى، ووعيها المدينى، ونزعتها الإنسانية، تجعلها أقرب إلى الرواية الأوربية الكلاسيكية التى عرفها المراش بالفرنسية، خلال سنوات عمره القصير، ذلك العمر الذى لم يتح له الانطلاق فى مدى الأفق الروائى الواعد والصاعد على امتداد القارة الأوربية.

ولعل الإشارة الأخيرة يتضح معناها عندما نضع فى اعتبارنا أن «غابة الحق» ظهرت بعد أن اكتملت للرواية الأوربية ملامحها، بفضل روائيين من طراز ديفو صاحب «روبنسون كروزو» (١٧١٩). التى نشرها بطرس البستانى بعنوان «التحفة البستانية فى الأسفار الكروزية» بعد أن فرغ من ترجمتها عن الإنجليزية فى الخامس عشر من نيسان (أبريل) سنة ١٨٦١ بمدينة بيروت. وكان ذلك قبل أربع سنوات فحسب من صدور رواية «غابة الحق». وأحسب أن المرّاش طالع ترجمة البستانى، أو سمع عنها، فى الوقت الذى طالع أو سمع عن العلامات التأسيسية للرواية الأوربية التى تشمل روايات أمثال ماريفو صاحب «حياة ماريان» (١٧٣١-١٧٤١) وبريفو صاحب «مانون ليسكو» (١٧٣١) وريتشاردسون صاحب «باميلا» (١٧٤٠) وغيرهم. ولكن يبدو أن

مزاج المراش كان يقوده فى اتجاه الروايات الفلسفية التى كتبها أمثال چان چاك روسو صاحب «هيلويز الجديدة» (١٧٦١) وديدرو صاحب «الراهبية» (١٧٩٦) وڤولتير صاحب «كانديد» (١٧٥٩). والمؤكد أنه لم يقع تحت تأثير أسلوب روايات القرن الذى عاش فيه، سواء كان المقصود كتابات أمثال ستندال صاحب «الأحمر والأسود» (١٨٣٠) أو ليرمنتوف صاحب «بطل من زماننا» (١٨٤٠) أو فلوبير صاحب «مدام بوڤارى» (١٨٥٧) التى نشرت قبل ثمانى سنوات من نشر «غابة الحق». ويمكن أن نضيف إلى ذلك أعمال بلزاك التى توالت من سنة ١٨٢٠ إلى وفاته سنة ١٨٥٠.

لقد اختار المراش القالب القصصى التمثيلى ذى المرامى الفلسفية، وهو القالب الذى يجعله، روائيا، أقرب إلى سرديات فلاسفة التنوير من أمثال ڤولتير (١٦٩٤-١٧٧٨) وچان چاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨) وديدرو (١٧١٣-١٧٨٤). ولم تكن «غابة الحق» بعيدة عن الأفق الفلسفى لهؤلاء، خصوصا فى نزعتها العقلانية الغالبة، تلك النزعة المسؤولة عن الإعلاء من شأن «العقل» وما يمثله على امتداد الرواية، والمتجاوبة مع النزعة

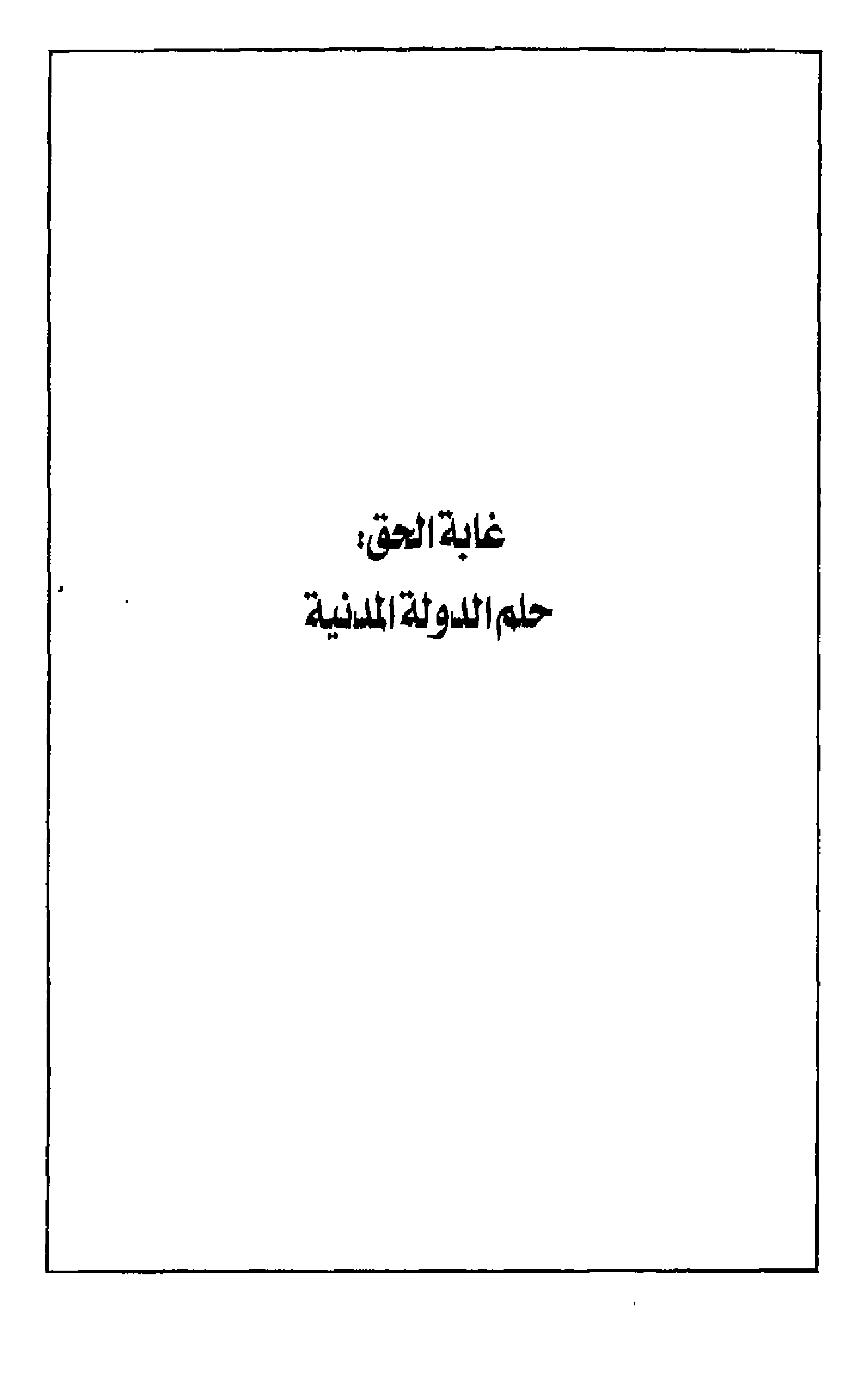
الإنسانية التى ترى فى الحرية أفقا للتمدن ووعدا بتحقيق أحلام الإنسان التى لا تعرف التمييز بين البشر على أساس من الجنس أو الدين أو الطائفة.

وأحسب أن القارئ الذى يطالع «غابة الحق» - بعد صدورها بما يقرب من قرن ونصف - سوف يسترجع أحلام النهضة التى جعلت من العقل والحرية حجر الزاوية فى مسعى التقدم، كما يسترجع معانى «دولة التمدن» التى لا نزال نحلم بوجودها المكتمل إلى اليوم. وسوف يجد القارئ فى الأسلوب الرمزى لهذه الرواية محاولة ماكرة لمراوغة الرقابة فى عصرها، ومحاولة ناجحة لإنطاق المسكوت عنه من الأفكار الجذرية فى خطاب النهضة، ومن ثم محاولة لإنطاق الشخصيات الرمزية بالأفكار الجديدة التى رأى فيها المراش سبيلا إلى استبدال التمدن بالتوحش، والتعقل بالتعصب، والتطلع إلى المستقبل بالانغلاق على الماضى الجامد.

ولا بأس لو احتمل القارئ - من أجل هذه الأفكار التى لا نزال نسعى إلى تأكيدها فى حياتنا - تثاقل الإيقاع السردى، وتجريد الشخصيات التى تتحول إلى أمثولات ذهنية. وأضيف إلى

ذلك بعض معاظلة أسلوب المراش، وبعض الخصائص الأسلوبية التي ترجع إلى التقاليد الأدبية التي كانت سائدة في منتصف القرن التاسع عشر. وهي تقاليد لم تمنع المراش- رغم تأثره بها- من أن يستشرف أفقا جديدا من الكتابة والفكر، أفقا يجعل من «غابة الحق» عملا معاصرا لنا حتى في انتمائه إلى زمنه، وفي سبقه الذي جعل من «غابة الحق» الرواية العربية الأولى التي نعرفها في تاريخ الرواية العربية الحديثة.

وإذ أرجو أن يجد القراء في هذه الرواية بعض ما وجدتُه فيها متعة، وما اكتشفته فيها من دلالات، حاولت صياغتها في الدراسة التي جعلتها تمهيدا، فإني أتقدم بالشكر إلى كل من عاونني في الإعداد لهذه الطبعة، وأخصّ تلميذي وزميلي الدكتور أحمد مجاهد الذي تولى إعداد النص القديم للطباعة الحديثة، وعمل على تصحيح ما رآه جديرا بالتصحيح في النص القديم الذي حاولتُ الإبقاء على ملامحه دون تغيير يذكر.



# غابة الحق:
# حلم الدولة المدنية

# غابة الحق:
# حلم الدولة المدنية

أحسب أن واحدا من أهم الأدوار التى لعبتها الرواية فى عصر الإحياء، من حيث علاقتها بالتنوير فى ذلك العصر، إنطاق المسكوت عنه من الأفكار الجذرية التى انطوت عليها طليعة العصر، سواء فى انقطاع هذه الطليعة عن الثوابث الباقية من ميراث التخلف، أو تطلعها إلى وعود الزمن القادم بلوازم التقدم. وكان على الرواية، فى أدائها لهذا الدور، أن تتعلم مراوغة القمع الخاص بعصرها، وأن تكتسب من خبرة الماضى الإبداعى مخاتلة التمثيلات الكنائية، ومداورة التوريات السردية. ولذلك استعانت بحيل أشباه الحكيم «بيدبا» فى ترويض أشباه السلطان «دبشليم» بواسطة الأمثال التى اختفى وراءها أشباه ابن المقفع من الذين غامروا بإنطاق المنهى عن التصريح به.

وكما أفادت الرواية الإحيائية من خبرات تراثها الأدبى، من حيث هو تراث متميز بما أنجزه من بلاغة المقموعين، أفادت من إنجازات القص الأوربى الذى نقلت عنه تقنيات الرواية الأليجورية، أو رواية التمثيل الكنائى ذات اللغة الأيسوبية التى تنطق الخطاب المقموع فى المجالات السياسية أو الاجتماعية أو الفكرية أو الدينية.

أداتها فى ذلك أقنعة الشخصيات الرمزية، وتمثيلات الأحداث التخييلية، وتوريات المواقف الموازية، فالرواية الأليجورية allegorical novel هى الرواية التى تقول شيئا وتعنى غيره فى أبسط تعريفاتها، وتتحول أحداثها وشخصياتها إلى معادل رمزى مباشر لأفكار كاتبها، أو إشارة غير مباشرة لنماذج أو مواقف فى العالم الذى تتولد منه، معتمدة فى بناء أحداثها وشخصياتها على ما يشبه الاستعارة المكنية التى يراد بها لازم معناها وليس ظاهر معناها. ولأنها رواية لا تستطيع أن تشير إلى موضوعها إشارة مباشرة بسبب حواجز الرقابة الصارمة، فإنها تراوغ السلطة التى تناوشها، وتتحول إلى استراتيجية خطاب مقموع، يتحايل على سلطات المنع فى المجتمع، ويناورها بتورياته السردية الملتبسة التى تومئ إلى مراميها الباطنة بواسطة القرينة الدالة.

والقاعدة فى الرواية الأليجورية ما قاله فرح أنطون (١٨٧٤-١٩٢٢) فى تقديم روايته «الدين والعلم والمال» التى ظهرت سنة ١٩٠٣، خصوصا حين ذكر أنه هجر أسلوب المقالات والفصول المفرقة إلى أسلوب الرواية لأنه أجمع وأوعى، فضلا عن كونه أشد تأثيرا وأحسن وقعا، مؤكدا أن اهتمامه بالمبادئ والأفكار فى استخدام هذا الأسلوب مقدم على اهتمامه بالحوادث والأخبار.

لكن دون أن يمنع ذلك من التـزام مـا تقـتـضـيـه الروايات من الوصـف وتصـوير العـواطف والحـوادث تصـويرا طبـيـعـيـا، لأن فن الروايات فن نفسى فيما يقول، جماله وتأثيره متوقفان على حسن سبكه ولطف أسلوبه ودرس باطن الإنسان وأخلاقه درسا دقيقا. ولذلك فـإن التـوفـيق بين الالتـزام الفنى لتـقنيات القص والالتـزام الفـكرى بعـــرض أفكار المؤلـف هو الأصـل الســـردى للرواية الأليجورية، لكن بما يضع الأفكار فى الصدارة دائما من السرد، حـتى لو اضطر المؤلف إلى الجـور على تقنيـات القص المتـصلة بتـصوير الحوادث والعواطف الإنسانية، والتضحية بالكشف عن باطن الشخصيات من حيث هى شخصيات حية، وذلك فى سبيل الكشف عن مبررات انحيازه إلى الفكرة التى يقـوم بتحسينها أو تقبيحها.

والمؤكـد أن الطبـيـعـة الفكرية للرواية الأليـجورية هى التى تفرض قالبها الفنى، فتتباعد بها عن القص الواقعى الذى يعتمد على الوقائع الحياتية الملموسة والأحداث المتعينة والشخصـيات المحسوسة والعلاقات المشاكلة لعلاقات العالم الحى، كما تتباعد بهـا عن القص الوجـدانى (الرومـانسى) الذى ينطلق فى عـالم الخيال طليقـا، حيث يحلق الأبطال فى أفق مجنح من المشاعر والعواطف المرهفة أو الهشة. وطبيعى أن تلح الرواية الأليجورية على

الطابع الحوارى، نتيجة ما تنبنى حوله من أفكار متصارعة واتجاهات متناظرة، فتتحول إلى مناظرات فكرية بين الأبطال، ومجادلات فلسفية بين الاتجاهات، وتعارضات فنية بين المواقف. أما الأبطال فهم أقرب إلى التمثيلات المجردة فى علاقات المجاز التى تشير فيها كل شخصية إلى فكرة بعينها. وتقوم كل شخصية على فكرة تؤديها، تلازمها وتدل عليها كما يلازم الاسم مسماه أو تدل الصفة على موصوفها. والنتيجة هى ما تتسم به الشخصية التمثيلية، عادة، من صفة واحدة مطلقة، هى علامتها وميسمها وسر وجودها. وفى الوقت نفسه، تنبنى الأحداث على التقابل الحاد بين المواقف، فى موازاة التقابل بين الأفكار. ويعلو صوت الحوار على صوت الوصف. ويتم تجريد المكان والزمان اللذين يتحولان إلى مطلق من الزمان والمكان، فيخلو كلاهما من التعين أو الخصوصية إلا فى الإشارة إلى مناط التمثيل أو موضع الأمثولة من القص. ويخلو السرد من أية خاصية بلاغية تشد الانتباه إليه فى ذاته، ويغدو أقرب إلى الزجاج الشفاف الذى تعبره العين إلى ما وراءه دون أن تتوقف عليه فى ذاته، فالانتباه كله مسلط على الحوار الفكرى وحده.

ويبدو أن هذا هو السبب الذى دفع فرح أنطون إلى أن يقول فى مقدمة «الدين والعلم والمال» أنه أطلق على عمله اسم

«رواية» على سبيل التساهل، لأن العمل عبارة عن بحث فلسفى اجتماعى فى علائق الدين والعلم والمال فيما قال هو نفسه. وأتصور أن التردد فى التسمية يرجع إلى خصوصية الرواية الأليجورية من الزاوية التى أتكلم منها، والتى كان فرح أنطون، كما كان من سبقه من كتاب النهضة، واعيا بها الوعى كله، كما يرجع إلى أن هذا النوع من الرواية يغدو جافا - بدرجات متفاوتة بالطبع - فى أعين القراء الباحثين عن التسلية التى ليس وراءها سوى تزجية الفراغ. ولم يكن فرح أنطون أو غيره يريد هذا الطراز من التسلية، بل كان يريد أن يقتحم بالقص الآفاق الفكرية الصعبة، وأن يُعلِّمَ القارئ وينوِّره لا أن يسليه تسلية فارغة، فاختار - كما اختار غيره من الذين سبقوه - سبيل التمثيل والأمثولة، وطريقة «كليلة ودمنة» و«رسالة الغفران» حيث الأفكار التى تتحول إلى رموز، والآراء التى تعرض بواسطة المجازات، والرسالة الفكرية التى توصلها بلاغة الحوار. ولم يقتصر الأمر فى هذا السبيل أو تلك الطريقة على الموروث العربى القديم وحده، وإنما جاوزه إلى روايات العصر الحديث التى استخدمت التمثيل والأمثولة لأغراض موازية، متوسلة باللغة الأيسوبية على سبيل التعليم الأخلاقى والدينى، أو الفرار من القمع الاجتماعى أو الاعتقادى أو السياسى.

ولذلك لابد من قراءة الرواية الأليجورية بوصفها رواية مجازية، الانتقال فيها من ملزوم المعنى إلى لازمه، وحركة القراءة فيها لا تتوقف على المعنى الأول المباشر إلا بوصفه دليلا على المعنى الثانى غير المباشر وتمثيلا رمزيا له، فالمعنى الأول المباشر - فى هذه الرواية - مخايلة تخفى وراء سطحها الظاهر ما قصد منها لأداء معنى باطن. والمعنى الباطن يتقنع بقناع المعنى الأول بكل أحداثه المبتدعة وشخصياته المخترعة، ويدخل معه فى علاقة دلالية صفتها الأساسية: واحدية الدال وواحدية المدلول. لكن بما لا يتناقض وجاذبية صراع الأفكار ورمزية صياغة المجردات وبلاغة التعبير عن القضايا الشائكة فى سرد يكتسى فيه الفكر أردية الفن، وتظهر الحقيقة من وراء المجاز، ويندفع القص دون وجل مقتحما المناطق المسكوت عنها من الخطاب المقموع لينطقها بما لا يقع تحت طائلة أنواع الرقابة.

والواقع أن الرواية الأليجورية، أو رواية التمثيل الكنائى، تحتل مكانة دالة فى مجالات القص فى عصر الإحياء، سواء على مستوى الوعى النظرى بأهداف القص ووظائفه التنويرية فى مجتمع تسعى طليعته إلى تأسيس ملامحه المدنية، أو على مستوى الممارسة العملية لفنون القص التى سعت إلى إنطاق المسكوت عنه من خطاب المجتمع. وبقدر سطوة ميراث التخلف فى علاقات

ذلك المجتمع، وتحول هذا الميراث إلى قوى قمعية تواجه محاولات التقدم والتحديث بالبطش والإرهاب، أخذت الرواية الأليجورية تمارس إبداعها بواسطة التمثيلات الكنائية التى يراد بها لازم معناها الذى هو الأصل فيها. والهدف نشر أفكار التقدم والتحديث فى مداها المتحرر من التقاليد السلبية الجامدة، غير المخالف بالضرورة للموجب من التقاليد الحية، ومن ثم إنطاق المنهى عنه من الخطاب العقلانى الطليعى في المجالات السياسية والاجتماعية والفكرية والدينية والإبداعية. هكذا، أتاحت هذه الرواية من عناصرها ما ساعد المتمردين من أمثال أحمد فارس الشدياق (١٨٢٣-١٨٩٣) على مناوشة من خشى بأسهم، وأعان الحذرين من أمثال على مبارك (١٨٢٣-١٨٩٣) على نطق كل ما كان يفرق من نطقه على لسان شخصية «الخواجا» التى ابتدعها.

وقد ظهر نوع هذه الرواية فى عمل فرانسيس فتح الله المراش (١٨٣٩-١٨٧٤) الرائد، أقصد رواية «غابة الحق» التى كتبها فى مواجهة ما أسماه «مملكة التوحش والعبودية»، وانحازت إلى «مملكة التمدن والحرية» منذ اللحظة الأولى التى كتبها فيها فرانسيس فتح الله المراش فى منتصف القرن التاسع عشر، كما صاغت لأبناء مطلع القرن العشرين صورة المستقبل الواعد الذى

يطلق سراح العقل، مؤسسا علاقة مغايرة بين «الدين والعلم والمال» على نحو ما تجلى فى رواية فرح أنطون التى حملت العنوان نفسه، حين صدرت فى مدينة الإسكندرية سنة ١٩٠٣ .

- ٢ -

ولأن العقل والحرية هما حجر الزاوية فى التمدن فقد كانا أول ما يقود إلى الاصطدام بالنواهى المترسبة من ميراث التخلف، خصوصا فى السياقات التى تصل التقليد بالنقل والاتباع بالطاعة، وتجعل من التلازم بينهما أساس العبودية بمعناها الفردى والجمعى. ولم يكن من قبيل المصادفة أن الرواية العربية الأولى، فيما يذهب عدد من الدارسين، هى رواية «غابة الحق» التى صاغها فرانسيس فتح الله المرّاش صياغة أليجورية، موضوعة على طراز «جحيم دانتى التليانى» بقالب خيالى نزع فيه المؤلف إلى إيقاظ قومه العرب من غفلتهم، فيما يقول عبد المسيح الأنطاكى الذى أصدر الطبعة الثالثة من الراوية.

ويمضى الأنطاكى فى التعريف بابن وطنه فرانسيس فتح الله المرّاش الحلبى الذى كان شعلة من نار، التهبت وأضاءت مدة يسيرة فى فضاء العرب، وما لبثت أن انطفأت، لأنه لم يعش أكثر من خمسة وثلاثين عاما، ومات وهو فاقد البصر مبرّح الآلام، بعد أن ترك مقالاته فى صحافة عصره مثل «الجنان» و«الجوائب» .

وترك مجموعة من الكتب التى تجعل منه واحدا من أهم رواد الاستنارة ومؤسسى النهضة العربية الحديثة، ومن أهم هذه الكتب - إن لم يكن أهمها، خصوصا فى السياق الذى أتحدث فيه - كتابه «غابة الحق» الذى يصفه الأنطاكى بأنه أفضل ما ترك المرّاش. وقد جعله بشكل حلم حلمه، كأنه كان يخترق بفكره الثاقب حجب المستقبل المظلمة ليجد نور الحرية إلى قومه فتضىء لهم. وقد درس المرّاش الطب، وذهب إلى باريس أكثر من مرة، وتأثر بفلاسفة عصر الأنوار أعمق التأثر، وصاغ تأثره فى مقالاته التى رماها المتزمتون بالإلحاد أكثر من مرة فى عمره القصير، وجمع إلى الكتابة الشعرية الكتابة النثرية فى الدعوة إلى أفكار الاستنارة، فهو رائد من روادها الذين آمنوا بالعلم وسيلة لتجاوز الهوة بين الشرق المتخلف والغرب المتقدم. ولم يتردد فى صياغة أفكاره الواعدة بلغة لا تخلو من جسارة الخروج على بديعيات العصر، وتجريب أشكال جديدة من أنواع الكتابة وأجناسها، والانطلاق فى التعبير عن المفاهيم الجديدة، حتى لو خرج الأداء اللغوى على الأساليب المألوفة أو تعاظلت الجملة أو العبارة.

ولا أعرف المبررات التى دفعت صاحب جريدة «العمران» إلى تشبيه رواية «غابة الحق» بثلاثية دانتى أليجيرى (١٢٦٥-١٣٢١) الشهيرة «الكوميديا الإلهية» فلا وجه للشبه بين رحلة دانتى ما بين «الجحيم» و«المطهر» و«الفردوس» فى «الكوميديا

الإلهية» ورحلة المرّاش بين أودية الخيال إلى «غابة الحق»، فالرحلة الأولى على طراز «رسالة الغفران» أو «رسائل المعراج» التى تأثرت بها، والرحلة الثانية ليست رحلة بالمعنى المعروف ولكنها رؤيا على طريقة: «رأيت فيما يرى النائم». ووجه الشبه الوحيد الذى يصل بين ما كتبه دانتى وما كتبه المرّاش هو الحس النقدى الذى يلجأ إلى تقنيات الأليجوريا allegory التى تنطق المنهى عنه من الكلام بما لا يغدو محلا للمؤاخذة السياسية والدينية والاجتماعية. وهذا النوع من المؤاخذة هو ما دفع المرّاش إلى إبداع رؤيا هى نوع من اليوتوبيا السياسية والدينية والاجتماعية، أطلق فيها العنان لأفكاره التى نطقها من وراء أقنعة الرموز، حالما بأن يستبدل مملكة «التمدن والحرية» التى تخيلها بمملكة «التوحش والعبودية» التى عانى منها.

ومهما يكن من أمر، فإن تقدير المرّاش للعقل، كانتسابه إلى النزعات العقلانية، دفعه إلى أن يضع الفيلسوف موضع الفقيه التقليدى بالقرب من مجلس الملك فى المملكة التى حلم بها، فأنزله أرفع منزلة فى تراتب المعرفة التى أعاد إليها صفاتها العقلية، بعيدا عن سطوة اتّباع النقل والتقليد، وذلك أثناء تطوافه بأودية التأملات، طائرا على أجنحة الأحلام التخيلية ما بين مشاهد الغابة الرمزية للحق، حيث المملكة التى تتمثل بها الحكمة، والفيلسوف

الذى يتمثل فيه العقل. وكلاهما محيط بالملك الذى يجسّد الحرية بحضوره الرمزى فى مملكة التمدن التى هى مملكة الحرية. وقد انتصرت هذه المملكة على مملكة التوحش والعبودية، مؤكدة صعود العلم الذى هو الفاعل الأعظم لتثقيف العقل، والسبب الأهم لتشييد التمدن والعمار. ولا نصحو مع المرّاش من حلم «برية الحرية» فى «غابة الحق» إلا بعد أن تنطبع فى أذهاننا تعارضاته الثنائية التى تقابل بين العلم والجهل، التقدم والتخلف، العقل والتقليد، التسامح والتعصب، الحرية والعبودية، النظام والفوضى، العدل والظلم، رجل الفكر ورجل السيف. وكلها ثنائيات ينحاز المرّاش إلى أوائلها دون ثوانيها، مؤكدا تطلعه صوب الأفق الواعد الذى خايل الطليعة المستنيرة التى تولّت تأسيس فكر مطلع النهضة العربية.

وتتحدد الشخصيات الإيجابية لمملكة التمدن بغابة الحق فى خمس شخصيات. أولاها الملك الذى نراه للمرة الأولى متوجا بتاج مكتوب على إكليله «يحيا ملك الحرية». وثانيتها زوجه الجميلة التى نلمح على إكليلها الذهبى عبارة «تحيا ملكة الحكمة». يعينهما على حماية شؤون المملكة وتدبير أحوالها: قائد جيش التمدن الذى يحمى المملكة من مطامع الأعداء. وإلى جانبه وزير السلام الذى يعين الملك على تدبير أحوال السّلم. أما

الشخصية الخامسة فهي شخصية الفيلسوف الذى يقوم بدور العقل لقادة مملكة التمدن. وأول ما يمكن أن يستنتجه القارئ من مجاورة هذه الشخصيات هو غلبة العنصر المنسوب إلى العقل، خصوصا فى جمعه بين الملكة والفيلسوف والوزير فى علاقة واحدة، هى علاقة النزوع العقلانى فى تدبير الأمور. ومن هذا المنظور، تتكامل «الحرية» التى يرمز إليها الملك ويجسدها فى مملكته مع «الحكمة» التى تمثلها الملكة، فتغدو حرية عاقلة لا تندفع إلى مهاوى الفوضى، أو يدفعها الغضب أو الحماسة إلى التعجل فى إصدار القرارات. وذلك هو الدور الذى يؤديه الفيلسوف الذى ينطق دائما فصل المقال فى «غابة الحق».

وبالطبع، لا يدفعنا المرّاش إلى التعامل مع شخصياته بوصفها شخصيات واقعية، أو بوصفها شخصيات تحيا حياتها الروائية الخاصة، فهى شخصيات تجريدية منذ اللحظة الأولى، حضورها أقرب إلى الحضور الرمزى الذى يشير فيه الرمز إلى مرموزه إشارة مباشرة. والمهم فى هذا النوع من الرموز طابعه التعليمى الذى ينقلنا من المجاز إلى الحقيقة، بعيدا عن تعدد الدلالة أو تعدد مستويات الرمز الذى ينأى بنا عن تأمل الأفكار المباشرة التى يريد القاص توصيلها. هذه الأفكار هى مناط القص ومقصده الفورى فى التمثيل الكنائى الذى ينقل الأفكار إلى الأفهام بما يغدو دليلا عليها، مراوغا عوائق القمع

الرقابى والحجر الخطابى. ولا بأس لتحقيق هذا الهدف من الاعتماد على الحوار الذى يحيل الرواية إلى خطب فلسفية ومناظرات فكرية، فالمهم هو التوصيل المباشر للأفكار من وراء أقنعة الشخصيات التى هى - فى حالة «غابة الحق» - مرتبطة بعلاقة التضاد بين مملكة التمدن والحرية من ناحية، وغيرها من الممالك المجاورة أو المعادية من ناحية ثانية.

ويدور المغزى التمثيلى للرواية حول ثلاثة أشكال من التعارض الذى يتولّد عنه توتر سردى أشبه بالصراع، يصل الشكل الأول بين مملكة التمدن والحرية من ناحية ومملكة الروح من ناحية مقابلة. ويقابل الشكل الثانى بين مملكة التمدن والحرية ومملكة التوحش والعبودية. أما الشكل الثالث فيدور داخل مملكة التمدن نفسها، ما بين الفيلسوف الذى يتجسّد فيه عقل السلطة المدنية الخالصة وقائد جيوش الدولة الذى يرمز إلى السلطة العسكرية أو الأجهزة القمعية للدولة إذا استخدمنا الرطان المعاصر. والبداية والنهاية فى هذه الأشكال هى «دولة التمدن» التى تصل الحرية بالعقل، والعقل بالحكمة، والحكمة بالعلم، والعلم بالصدق والتسامح، فتلك هى القيم الإيجابية الأساسية التى تقابل القيم السلبية لنقائض التمدن التى تنتسب إلى مملكة التوحش والعبودية، وتصل ما بين العبودية والجهل والخرافة والضغينة والكذب والخيانة والنفاق.

- ٣ -

والشكل الأول للتوتر السردى فى رواية «غابة الحق» التى استهل بها فرانسيس فتح الله المرّاش (١٨٣٦-١٨٧٤) مسيرة الرواية العربية هو شكل مبعثه تصادم التقدم الصناعى والإيمان الروحى، فى سياق يمكن أن يقابل بين الروح والبدن، العلم والدين، امتلاك الطبيعة والسيطرة عليها مقابل الشعور بها والحدس الصوفى بما وراءها. وهو تصادم ينشأ عن ما قد يترتب على تقدم المدنية من عادات سلبية، وما قد ينجم عن ازدهار العلم من شعور بالهيمنة على الكون، ومن ثم تولُّد نزعات مادية لا تعبأ بالأديان، أو ألوان من التطرف الأخلاقى الذى ينجم عن ما يمكن أن تصل إليه الحرية الفردية لو خلت من معنى المسؤولية.

وتؤكد «غابة الحق» هذا التصادم بطرائقها المجازية، حين يصل تتابع السرد إلى النقطة التى أوشكت معها مملكة التمدن والحرية على الاشتباك فى حرب مع مملكة الروح، وذلك بسبب وشاية الواشين، وتطرف رغبات الذين يجاوزون الاعتدال إلى الإفراط. ويهم ملك التمدن والحرية بإصدار أوامره إلى قائد جيوش التمدن بالانقضاض على مملكة الروح ومحاولة القضاء عليها، ولكن الفيلسوف ينهاه عن شن الغارة، مؤكدا له أن «هذه المملكة ما علّمت قط، ولن تعلّم، إلا ما يقود الناس إلى نوال السعادة

الحقيقية... وجميع تعاليمها مأخوذة من الكتاب المعصوم الذى لا ينكره إلا أهل الضلال المبين». ويضيف الفيلسوف ما يشرح به للملك قوة هذه المملكة التى لا يمكن هزيمتها، موضحا له أنه إذا كانت دولته قائمة بالأبدان فالمملكة التى يوشك أن يعتدى عليها ثابتة بالأرواح، ومن المستحيل قيام البدن بدون الروح. ويزيد الفيلسوف على ذلك ما يوضح طبيعة الحُكْم فى مملكة الروح بقوله: إنه إذا كانت هذه المملكه تمدُّ سلاسل سطوتها إلى أعماق القلوب، فليس الهدف من ذلك إلا إيقاع التهديد، وإثارة الخوف فى السرائر والضمائر الشريرة، وهذا لا يعنى الاستيلاء على النفوس أو الضمائر بما ينفى عنها حريتها، «فلو لم تكشف هذه المملكة حجاب غفلات البشر عن المستقبل، وتظهر لهم ما يكمن فيه من المخاوف المستعدة لابتلاعهم، من كان يمكنه ردع الغنى عن الفقير؟ ومن كان يستطيع رد جماح القوى عن الضعيف؟ ومن كان يحسن تقييد رجل السارق والقاتل؟ ومن كان يقدر على قمع ثوران الزانى؟ ومن كان يمكنه قطع لسان شاهد الزور؟ وبالإجمال من كان يمسك العالم البشرى عن تمزيق بعضه البعض».

وتصوغ هذه الأفكار نظرة عقلانية إلى الدين يمكن أن نجد بسطا فلسفيا خالصا لها فى الكتاب الذى خلفه المرّاش بعنوان

«شهادة الطبيعة فى وجود الله والشريعة». وهو كتاب فى إثبات الألوهية بطرائق عقلانية، تكشف عن نزعة كاتبه الأساسية، تلك النزعة التى تستبدل الاتّباع بالابتداع، والعلم بالخرافة، وذلك على نحو لا يتعارض فيه الدين بتأويله العقلانى مع العلم، بل يتضافر الاثنان فى تأكيد مفهوم الانتظام فى الكون، وحث الإنسان على السيطرة على الطبيعة التى تسلم زمامها إليه بفضل ما يتكره العلم من مخترعات، وما يضيفه إلى العقل من معارف. وهى نزعة تسعى إلى المصالحة بين الأطراف التى يحسبها الكثيرون متعارضة أو متناقضة. والسبيل إلى ذلك وصل التمدن بالدين ووصل الروح بالبدن، وتخليص الدين من التعصب الذى تلصقه به الممارسات البشرية التى تنغلق على نفسها. وفى الوقت نفسه، تفنيد الاتهامات التى يوجهها ملك التمدن إلى مملكه الروح، ومن ثم رد القول بأنها مملكة تتصرف كثيرا بما يضاد سياسة التقدم والحرية، وإنها لا تكف عن بث التصورات الباطلة فى عقول الناس لكى تنهض بذلك تصديقات سخيفة، وإنها لا تكل فى زرع الشقاق والفتن «حتى إن أكثر الحروب التى جرت فى الدنيا كانت مسببة عن أفعالهم على ما قيل».

واستراتيجية الدفاع التى يعتمدها الفيلسوف فى نقض الاتهامات الموجهة إلى مملكة الروح بسيطة للغاية. تبدأ وتنتهى من

إقامة نوع من الاتحاد المضمر بين «الدين» و«الروح» التى هى من أمر ربى، فالروح هى الدين فى محاجة الفيلسوف، والعكس صحيح بالقدر نفسه. والعلامة الأولى على ذلك ما يؤكده الفيلسوف من أن مملكة التقدم لم تقم إلا منذ قيام تلك المملكة القديمة، الأمر الذى يعنى التلازم بين نشأة الديانات ونشأة الحضارات التى أفضت إلى تمدّن البشرية. والعلامة الثانية هى نفى أراجيف المرجفين عن الدين بردها إلى «المصلحة الخصوصية التى من شأنها أن تهدم بناء المصالح العامة». ويضيف الفيلسوف إلى ذلك التفنيد المنطقى للدعاوى الباطلة، واحدة واحدة، مؤكدا أن مملكة الروح تهدف إلى أن ينال البشر السعادة الحقيقية، وذلك لأنها من جنس الدين والدين من جنسها. يثبت ذلك أن كل تعاليمها من الكتب المعصومة المقدسة، وأنه لولاها لانفك جماح الطباع المهلكة داخل الإنسان، واستوى الإنسان والبهيمة.

ولا يهاجم هذه المملكة - فيما يقول الفيلسوف - سوى الذين يتأذون من نواهيها، ويريدون ممارسة الحرية إلى مدى الفوضى. ويوضح الفيلسوف ذلك بقوله: «إن الإنسان لانطباعه على السوء ينسب جميع المعاصى والقبائح لِمن ينهى عنها ويوبِّخ مرتكبيها». وقد حاول أمثال هؤلاء الذين طُبِعوا على السوء تدمير مملكة الروح والقضاء عليها، لكنهم لم ينجحوا فى ذلك، ولن

ينجح غيرهم مهما كانت قوته «لأن يد القدرة ممتدة دائما إلى مساعدتها وإغاثتها حتى لا يمكن لنفس أبواب سقر أن تقوى عليها» . ولا تعنى تلك الكلمات تقبل كل ما يقال أو يفرض على الإنسان باسم هذه المملكة، فما أكثر الذين ينطقون باسمها وهم أبعد ما يكونون عن جوهرها السمح، وما أكثر الذين يبررون بها جرائمهم فى كل مكان وزمان. ولذلك يجب التمييز بين المملكة فى نفسها (من حيث ملازمتها للتمدن والحرية ملازمة الروح للجسد) وما ينسبه البشر الفانون إليها، أو ما يبرر به المتعصبون قبيح فعالهم، أو يخايل به المتزمتون سلامة تطرفهم، تحقيقا للمصالح الذاتية الزائلة لا غير، فالأصل فى هذه المملكة الخالدة هو دفع الإنسان إلى تحقيق سعادته القصوى فى الدارين، ومن ثم تشجيعه على المضى بالعقل إلى غايته الطبيعية، والاستعانة بالعلم الذى هو أداة التمدن ووسيلة الارتقاء البشرى إلى عالم من السمو الذى لا حَدّ له.

هكذا، يتصالح الدين والعلم فى «يوتوبيا» المرَّاش، وتتكامل مملكة التمدن ومملكة الروح فى تحقيق أسمى الغايات، ومن ثم الارتقاء بالإنسان من مستوى الضرورة إلى الحرية، ومن التخلف إلى التقدم، ومن الجهل إلى العلم، ومن الظلم إلى العدل، ومن الفوضى إلى النظام. وتغدو مملكة الروح عونا لمملكة التقدم فى

مواجهة الخطر الذى يهدد علاقتهما بالفصام. وتفرغ مملكة التمدن للقضاء على نقيضها الذى يعنى وجوده نفى وجودها. أقصد إلى مملكة التوحش والعبودية التى تمثل الجانب المضاد فى علاقة الصراع الأساسى الذى تدور حوله «غابة الحق». ومملكة التوحش والعبودية هى المملكة التى بادرت مملكة التمدن والحرية بالعدوان، فنهض لها جيش التقدم المظفر، وانتصر عليها، وقضى على العدد العديد من جنودها، وأسر قادتها. ويكاد الأمر ينتهى بأن يعمل الملك بما رآه قائد قواته من ضرورة القضاء على هذه المملكة قضاء مبرما، واستئصال وجودها بما لا يترك لها أثرا. ولكن ملكة الحكمة تنصح بغير ذلك، وتستعين بالفيلسوف (العقل) على إقناع الملك بما اقترحته عليه. ويدعو كلاهما الملك إلى أن يأمر بمحاكمة قادة التوحش ورموز العبودية، والإبقاء على سكان المملكة، لكن على أن يتعهدهم من يقومون بتعليمهم وتبصيرهم وتهذيبهم، ومن ثم الانتقال بهم من حال التوحش إلى حال التمدن، ومن العبودية إلى الحرية. والأصل فى ذلك إيمان الملكة (الحكمة) والفيلسوف (العقل) بأن الإنسان يمكن تغيير أخلاقه وعاداته بتغيير شروط الحياة المادية والمعنوية التى يحياها، والتى هو ثمرة من ثمراتها. وبالطبع، يجد الفيلسوف والملكة الدعم الأول من وزير السلام الذى يؤمن بأهمية السلام لدفع عجلة التقدم، ولكن دون أن يعنى ذلك الضعف أو الذلة، فوزير

السلام يؤمن بما تؤمن به الملكة والفيلسوف من أن القوة لازمة لحماية الخير والحق والجمال فى هذا الكون، والعقل لا يفلح فى كل الأحوال فى الانتصار على نقائضه بالحكمة والموعظة الحسنة، ولذلك تدعو ملكة الحكمة ملكها إلى أن يستحضر إليه الملك المهزوم مع أهم أعوانه، ويقرر عليهم شرائع وقوانين جديدة، يسلكون بموجبها، والتشديد عليهم بالصرامة اللازمة. وفى الوقت نفسه، يجعل لكل منهم مناظرا من طرفه.

وبعد أن ينتصر صوت الملكة (الحكمة) والفيلسوف (العقل) ووزير السلام، ويقتنع الملك بحججهم، يستدعى رموز مملكة العبودية وقواد الشر. فيأتى ملك العبودية بصحبة قائد الجهل، وقائد الكبرياء، وقائد الحسد والطمع، وقائد البخل، وقائد الضغينة، وقائد النميمة، وقائد الكذب والنفاق، وحامل بيرق الخيانة. ويضع الملك المنتصر أمام كل واحد منهم نقيضه من مملكة التمدن والحرية. وتطلب ملكة الحكمة من الفيلسوف أن يشرع فى الخطاب علنا، كاشفا عن آثام هذه الرموز، مفندا مخايلاتها، كما تأمر قائد جيش التمدن أن يتمنطق بسلاح العدل، ويقف على رأس ملك العبودية. وتبدأ المحاكمة التى لا نسمع منها سوى ما يقوله الفيلسوف عن آثام العبودية، وعن الحرية التى فطر الله عليها الإنسان منذ أن خلقه حرا. وينتقل

الفيلسوف من هجومه الطويل على العبودية، ليتبعه بالهجوم على الجهل الذى هو أخبث الأرواح الشريرة التى تفسد فى الأرض، وتعضُدُ به يدٌ وتُخرِّبُ أبنية العلم. وينتقل الفيلسوف إلى آفة الكبرياء التى تجعل البشر سالكين تحت نير العبودية لأنها تتركهم عديمى الحرية فى تتميم مقاصدهم وواجباتهم. ويعرِّجُ على روح الحسد والطمع الذى كثُر شرُّه وعظُم ضرُّه، خصوصا بعد أن تحول إلى آلة يفتك بها الناس بعضهم ببعض. وينتقل الفيلسوف إلى البخل، والضغينة، والنميمة، والكذب والنفاق، لا يترك نقيصة تتصل بهذه المثالب الأخلاقية إلا وذكرها، مؤكدا الدور الذى تلعبه فى تدمير الحياة الإنسانية والقضاء على أحلام الكمال الإنسانى.

ويبدو الفيلسوف من هذا المنظور كما لو كان يدافع عن أخلاق التمدن، ويؤكدها بذكر نقيضها والكشف عن مساوئه، مبرزا بذلك أهمية المبادئ الإنسانية وقيمها التى تنطوى على معانى الحق والخير والجمال. ودفاعه الطويل عن أخلاق التمدن يجعل منه فيلسوفا أخلاقيا إلى جانب كونه فيلسوفا عقلانيا. وكل صفة من هاتين الصفتين وجه للأخرى فى الكشف عن النزعة العقلانية الأخلاقية، أو نزعة الأخلاق العقلية التى ينطوى عليها هذا الفيلسوف أو يجسِّدها بكلماته. ولذلك يبدو دفاعه الطويل

عن الحرية وعن التمدن دفاعا عقلانيا بقدر ما هو أخلاقى، والعكس صحيح بالقدر نفسه. وذلك وضع لا يتعارض مع تكوين المرّاش الذى حلم بتمدن يحلّق بجناحى العلم والدين، وينشر استنارته بأنوار العقل الذى لا تتنافر فيه الحرية والأخلاق.

ولم يكن هذا الحلم بعيدا تماما عن أفكار الثورة الفرنسية، خصوصا من المنظور الذى يجعلنى أوكد أن وقفة المرّاش المتأنية على العبودية لا تكتسب أهميتها فى خطابه الطويل إلا بالإشارة إلى التأثر بمبادئ الحرية والإخاء والمساواة التى أشاعتها الثورة الفرنسية، وأكدتها حركة تحرير العبيد التى وصلت إلى ذروتها مع الحرب الأهلية الأمريكية. وقد تضافرت أفكار الثورة الفرنسية مع شعارات تحرير العبيد فى أمريكا بما أشاع هذه الأفكار والشعارات على امتداد العالم بدرجات متفاوتة، لكن بما أدى إلى وجود قوى دولية أخذت على عاتقها فرض تحرير العبيد على أرجاء (المسكونة) المعمورة، الأمر الذى انعكس على العالم كله، وفرض على المرّاش أن يتخفى وراء قناع الفيلسوف الذى ينطق صوته، ويستهل كلامه إلى رمز العبودية على النحو التالى:

«اعلم يا ملك العبودية أن جميع شرائعك
وأحكامك التى كنت توسوس بها فى صدور الناس
قد سقطت الآن مبانيها، ودثرت أصولها، ولم يبق

لها أثر في جميع العالم. وكل ملوك الأرض قد نهضوا لدك معالمها. ولكن لم يزل بعض الناس إلى الآن متمسكين ببقية خبيثة من نواميسك التى قد نشرتها بينهم منذ قام هذا العمران، وما هى إلا استعباد الأقوياء للضعفاء من بنى البشر. فمن المعلوم لدى العموم أن الطبيعة البشرية قد خلقت فى كمال الحرية الأدبية، وأن خالقها ذاته عز وجلّ قد منحها هذه النعمة الجليلة عندما أطلق لها عنان الاختيار بين الماء والنار، واضعا فيها معرفة الخير والشر، ومبدعا فى سجيتها حركة الميل إلى هذا والصدود عن ذاك. فمن أين يسوغ لبنى هذه الحرية الإنسانية أن يبيحوا تمزيق جلبابها بأنياب الأغراض؟!».

ولا يكتمل معنى هذا الدفاع عن الحرية، أولا، إلا بالإشارة إلى «بعض الناس» الذين ظلوا متمسكين ببقية خبيثة من نواميس الرق البشرى. يشير المرّاش بذلك إلى وجود من كانوا لا يزالون يحتفظون بعبيدهم على امتداد أقطار الخلافة العثمانية إلى أيام السلطان عبد العزيز الذى انفصلت على أيامه مصر عن الخلافة (الإمبراطورية) العثمانية. وقد بقى هؤلاء على عوائدهم القديمة،

لا يريدون تغييرها، فمنعوا الحرية عن عبيدهم بعد أن أصبح تحرير العبيد شعارا عالميا وواقعا فعليا. والطريف أن المرّاش في هجومه الرمزى على هؤلاء يلجأ إلى التمثيل داخل التمثيل، أو القص داخل القص، خصوصا حين يأمر وزير السلام الزنجى ياقوت بأن يقص على الحاضرين قصته. ويروى المحارب الأسود كيف اختطفته قافلة من فلاحى مصر فى برية السودان هو وأخ له، وقتلت أمه، قبل أن يجاوز عمره عشر سنين ولم يبلغ عمر أخيه الثمانى. وظل كلا الأخوين يعيش فى قيود العبودية، إلى أن قيّض لهما دخول المدرسة العسكرية فى الأستانة والتخرج منها جنديين فى جيش التمدن الذى فتح لهما باب الترقى. وبعيدا عن اللمز فى «فلاحى مصر» الذين خطفوا الطفلين من برية السودان، فلا أعرف شيئا عن فلاحين مصريين تاجروا فى الرقيق، فإن الأهم فى الحكاية التمثيلية هو تأكيد معنى الحرية، وإبراز لوازمها التى تفرض عدم التمييز بين مواطنى مملكة التقدم والحرية أو أى مملكة ترفع شعارات التقدم أو الحرية علامة عليها، ومن ثم تأكيد المساواة بين المواطنين دون اعتبار للعرق أو اللون أو الجنس أو الثروة أو الفئة أو الطائفة.

ويتبع ذلك تأكيد المجالات الأخرى للحرية التى لا تتجزأ فى علاقتها بشروط التقدم، سواء من منظور «الحرية الأدبية» أو

«الحرية الفكرية» وما يصاحبهما من إمكان الحرية السياسية. وعلينا أن لا ننسى فى هذا المستوى من القص الحرية التى ينطق بها كل فرد حول الملك، والسماحة العقلية التى يقابل بها الملك المختلفين معه، داخل مملكه التمدن التى لا معنى لها بعيدا عن الحرية التى هى شرط وجودها الأول. وأحسب أن اقتران هذه الحرية بالحكمة، أو زواج الملك بالملكة، لا يؤكد الرابطة الوثيقة بينهما فى مجال الفكر فحسب، وإنما يسقط أولهما على ثانيهما، والعكس صحيح بما يجعل من الحرية شرطا لازدهار الفكر واستمرار تقدمه وتوالده. ولذلك يغدو حديث الفيلسوف عن العبودية سابقا على حديثه عن الجهل، كما لو كان الثانى سببا للأول ونتيجة من نتائجه، فالعبودية تغييب للحرية فى كل مجالات الحياة والفكر، والجهل سبب من أسباب هذه العبودية فى اقترانها بالتخلف واعتمادها على الجهل. ولذلك يصف الفيلسوف «الجهل» بأنه «الأصل الأول الذى منه قد نشأت فروع البدع والخرافات التى تجعل البشر عبيدا لأهوائهم وأباطيلهم، وتحرمهم لذة حرية الحياة».

وبقدر ما يقود الجهل إلى الحديث عن نقيضه العلم، ووضع لوازم الأول مقابل لوازم الثانى، فإن تقابل النقائض يفضى إلى الكشف عن الأسباب التى أدت إلى أن «يتلألأ محيا الغرب»

وأن يظلم «جبين الشرق» إلى الدرجة التى يصفه بها المرّاش بقوله «فكأن الشـرق باب للدجى» . وعند هذا المستـوى، ندخل في تعارض جديد، مضمر، بين أسباب تقدم الغرب الذى اقترن بصفات التمدن والحرية، وتخلف الشرق الذى التصق بلوازم العبودية من جهل وكبرياء أجوف ونفاق لا يفارق بقية مثالب التخلف التى لابد من القضاء عليها، فذلك هو الشرط الأول لإقامة حلم التمدن والحرية الذى تجسده مرافعة الفيلسوف الذى يكشف عوار رموز التوحش أو التخلف بلا فارق.

واللافت للانتباه أن رواية «غابة الحق» تصل إلى نهايتها مع خاتمة مرافعة الفيلسوف الذى يتولى دور الادعاء فى محاكمة رموز مملكة العبودية. ويعنى ذلك أن الرواية تنتهى دون أن نعرف نتيجة المحاكمة وما أسفرت عنه من أحكام. قد نبرِّر ذلك بأن النتيجة معروفة سلفا والأحكام متوقعة ابتداء، ولكن ترك النهاية مفتوحة على هذا النحو تقنية مقصودة، متولدة عن علاقات وشروط الواقع الفعلى الذى عاش فيه المرّاش، والذى يلعب القص التمثيلى دوره الرمزى فى مواجهة تخلفه، تأكيدا للمعانى والمبادئ والقيم التى يفتقر إليها هذا الواقع ويخلو منها. والمقصد من تقنية النهاية المفتوحة، على هذا النحو، هو دفع القارئ التاريخى الذى كان يخاطبه المرّاش إلى أن يُدْنِى بطرفى المشابهة إلى حال من

الاتحاد، ويضع العالم الفعلى الذى يعيشه موضع العالم التمثيلى، أو العكس، ويمضى هو فى المحاكمة إلى نهايتها، ومن ثم إلى الحكم الذى ينبع منه ويصدر عن وعيه الذى استنار بالتمثيلات الكاشفة. والنتيجة هى انفعال الوعى الذى يمكن أن يندفع إلى الفعل، ويسهم فى تغيير الواقع الفعلى فى اتجاه حلم التمدن والحرية. وعندئذ، يحقق التمثيل الكنائى (الأليجورى) هدفه المرتبط بتعليم القراء ميزات القيم والمبادئ التى يدعوهم إليها بمقارنتها بنقائضها، خصوصا على طريقة الضد يظهر حسنه الضد.

— ٤ —

ولا تفارق رسالة «التمدن والحرية» الموجهة إلى القارئ فى «غابة الحق» حلم الدولة المدنية الذى تسعى الرواية إلى تأسيسه، بعيدا عن سطوة العسكر الذين يفرض عليهم تراتب نظامهم النفور من الاختلاف والبعد عن التسامح، خصوصا فى حالات الضبط والربط، ومن ثم التعارض مع طبيعة الفكر الذى يصوغه الوعى المدنى لدولة التقدم والحرية. وهو الوعى الذى يتجسد فى رمز «الفيلسوف» فى الرواية التى تضعنا – نحن القراء – فى الموضع الذى نشهد منه المواجهة بين الفيلسوف وقائد الجيش، خصوصا بعد أن بسط الأول للملك (فى الفصل الرابع) العلاقة بين

السياسة والمملكة، فوجد عينىّ القائد متقدتين بلهب الغضب، ووجهه مبرقعا بسحابة الغيظ، وأرجع ذلك إلى الطبيعة العسكرية «الناجمة عن مواقع الحروب».

ولا نترك الفصل الرابع إلا ويبدأ الحوار بين الاثنين معبرا عن شكل الصراع الذى يدور، عادة، بين عقل السلطة المدنية الذى يمثله الفيلسوف والسلطة العسكرية التى يمثلها قائد الجيوش. وتبدأ المواجهة حين يذهب الفيلسوف إلى القائد ليثنيه عن إصراره على استئصال كل المنتسبين إلى مملكة التوحش والعبودية. ولا يفوت الروائى - فى هذا المقام - تأكيد غضب القائد من قرار الملك بإرجاع العصاة إلى أوطانهم ومملكتهم بعد محاكمتهم. وهو يرفض هذا القرار ويرى أن هؤلاء القوم محتالون منافقون ليس لهم ذمم ولا عهود تربطهم. ويحاول الفيلسوف أن يقنع قائد الجيش بأن الحكمة تقتضى العمل على تغييرهم بدل استئصالهم، مؤكدا أنه متى شاعت بينهم شرائع التمدن، وطفقوا يتعلمونها منذ نعومة أظفارهم، وقام عليهم نظار ومساعدون من طرف قائد الجيش، فإنهم لابد أن يفارقوا تلك الخصال. ولا يعترف الفيلسوف بعائق طول الوقت الذى يلزم لتحقيق ذلك، فالمهم هو الإمكان الموجب فى المستقبل الذى لا يمكن أن يتحقق إلا بتمكين دعائم التقدم الخمس.

ويطلب القائد من الفيلسوف أن يشرح له هذه الدعائم، فيشرحها في فصل كامل (الفصل الخامس) هو أطول فصول «غابة الحق». ويبدأ من تعريف التمدن في اللغة، وهو الدخول في المدينة، وفي الاصطلاح ناموس يرشد الإنسان إلى تجويد أحواله الطبيعية والأخلاقية. ويقوم هذا الناموس على تهذيب السياسة، وتثقيف العقل، وتحسين العادات، وإصلاح المدينة، وأخيرا: المحبة. أما إصلاح السياسة فيبدأ من الصفات المثالية التي يجب توافرها في الشخص الذي يتعاطى السياسة، وهي، بدورها، صفات الحاكم الصالح الذي يستطيع أن يعدل بين أبناء شعبه الأحرار، ويقودهم من نصر إلى نصر في مدى التقدم. ويضيف الفيلسوف أهمية المساواة بين البشر من هذا المنظور، وعدم التمييز بينهم على أي أساس يتعارض وإنسانيتهم. وغير بعيد عن المساواة ما يطلق عليه المرّاش اسم «حالة المطابقة» التي تتصل بضرورة أن تكون القوانين مطابقة لواقع الحال الذي يقتضيها بلا زيادة أو نقصان. ويتصل بذلك مراعاة الصالح العام بما يفرضه من تمهيد سبل العلوم، وتسهيل طرائق التجارة، وتقوية وسائط الصنائع والأشغال، ومساعدة الزراعة والفلاحة، وقطع أسباب التعدي. أما تثقيف العقل فيؤكده المرّاش بقوله:

«لا يعد الإنسان قادرا علي الدخول فى دائرة التمدن الذى يطلب سلامة الطباع إلا إذا كان متزينا بتثقيف العقل الذى يعتبر كآلة عظيمة، بها يمكن لكل من البشر أن يسترجع إلى طبيعته ما أفقدها التوحش. ولا يتم هذا التثقيف إلا بالتروّض فى العلوم والفنون ودراسة المعارف الطبيعية والأدبية. على أنه أمرمحقق كون العلم يخلق فى الإنسان قلبا نقيا وروحا مستقيمة، ويجعله ظافرا بكل الصفات الصافية، ونافرا عن كل ما يشين الجوهر الإنسانى، ولا يترك له سبيلا إلى التفكير فى الأمور الدنيئة والميول المنحرفة، الأمر الذى تشتق منه كل أفعال الشر، وعليه تبنى كل دعائم التوحش».

هذا الفهم الأخلاقى للعلم لا يخلو من المعنى القيمى للتمدن الذى يمايز بين الإنسان والحيوان. وهو فهم يؤكد نزعة الأخلاق العقلية عند المرّاش على نحو ما أشرت منذ قليل، لكن الأهم فى هذا السياق هو ما يؤكده هذا الفهم من مسؤولية ذاتية، تترتب على ما تخلقه المعرفة العلمية فى داخل الإنسان من نوازع أخلاقية سرعان ما تنقلب إلى لوامع روحية، خصوصا من الزاوية التى تؤدى بها هذه المعرفة إلى ارتقاء الوعى والشعور، فتؤدى إلي حال من النقاء الذى يباعد بين الإنسان وما يمكن أن يشين

جوهره الذى أصبح صافيا. والنتيجة هى العمل على كل ما يدفع بهذا الجوهر إلى المزيد من الكمال فى كل تجلياته، واطراح الأغراض المتدنية أو الميول المنحرفة من الحساب، وذلك بوصفها أغراضا وميولا مقترنة بدوافع التوحش. ويشرح الفيلسوف ذلك بطريقة شعرية، قائلا: كيف يقبل الإنسان تدنى سلوكه عندما يكون الفلك طائرا به إلى أعالى الأجرام السماوية؟! والمقصود من الفلك فى هذه العبارات العلم الذى يؤدى رمزيا دور البراق الذى يعتليه الإنسان ليرى الكون كله من علٍ، وهو فى أصفى وأنقى حالاته. وليست هذه الصورة للعلم بعيدة عن خيال الفيلسوف، خصوصا حين يقول:

«إن العلم هو الفاعل الأعظم لتثقيف العقل، والمروّض الأكبر لجماح الطبائع، والسبب الأهم لتشييد التمدن والعمار، إذ إنه يرفع أفكار الإنسان إلى الحقائق السامية فلا تعود دائرة على مستحقرات الأشياء، ويرسم فى مرآة ذهنه صور الكائنات الدقيقة، فلا يعود هاذيا بخزعبلات الأمور» و«بدون تثقيف العقل إذن لا يتصف الإنسان إلا بصفة البهائم التى لا عقل لها، ولا يمكن أن يدعى متمدنا قط».

وطبيعى أن لا تفارق النزعة الأخلاقية الملازمة لمفهوم العلم شرح الفيلسوف لمبدأ تحسين العوائد، خصوصا حين ينظر الفيلسوف إلى أخلاق البشر بوصفها الدليل على حالة تمدنهم ومقامهم على درجات سلم الحضارة. فكلما كانت هذه العوائد والأخلاق جيدة كان تمدن أربابها جيدا وعاليا، والعكس صحيح. ولذلك وجب على الشعب الداخل فى دائرة التمدن أن يبذل الاعتناء كثيرا فى تحسين عاداته وأخلاقه كيلا يكون تمدنه «من باب الدعوى». ومعنى هذا أنه لا قيمة لمن يدّعون التمدن إذا كانت بيوتهم مشحونة بالأثاث العقيم وأنواع الخزف والأقمشة وليس فيها كتاب ولا أدنى آلة للعلم، وذلك لأن زينة العقل تفوق زينة المسكن، وعلامة «الجيل المتنور الذى لا يقبل ما لا نفع فيه». ولا تقدم لمن تشعشع رؤوس نسائهم بأنوار الأحجار الكريمة ما لم يكن فى تلك الرؤوس أدنى شعاع للعقل والآداب. ولا تحسن ثياب التمدن على كل أولئك الذين ينزلون الخرافات منزلة الحقائق، وينذرون بها الآفاق، غير عالمين أنه لا شىء يدنس تلك الثياب النقية ويلطخها مثل اعتناق الأكاذيب والأباطيل وإشاعتها.

ويفضى تحسين العوائد المدنية إلى الحديث عن نظافة المدينة التى يرتبط المعنى اللغوى للتمدن بحضورها، والتى لا تكتمل دائرة الحديث عنها إلا بالحديث عن ضرورة تمهيد

الشوارع والأزقة فيها، وعن ترميم الأبنية، وذلك على نحو يرد الجمالى على الأخلاقى، ويجعل من قيمة الجمال الوجه الآخر لقيمتى الخير والحق. والحديث عن صحة المدينة في هذا السياق حديث عن سلامة سكانها، ومن ثم عن سلامة عقول أبنائها وأذواقهم. ودليل ذلك أن استقامة الشوارع العريضة للمدينة تتيح امتداد النور إلى كل مكان فيها، وتجدد الهواء لأبنائها، وتبعثهم على الحركة النشطة التي تزداد حيوية بجمال المعمار وجاذبيته.

ويفضى ذلك إلى تقوية الإحساس بالحب فى الإنسان، فالحب هو الوجه الآخر للشعور بالجمال. وهو ذروة دعامات المدنية. ويتضح ذلك عندما يؤكد المرّاش أن المراد من دعوى المحبة العامة ليس أن تكون هى نقش الذات الإلهية منبثة فى جزئيات الخليقة، بل أن تكون هى القوة التى جعلها الله لتحريك الخلائق وتدبير الكائنات، تحت أشكال مختلفة هى الناموس العام. وذلك فهم يترتب عليه نوع من المسؤولية الداخلية. يقصد المرّاش إلى:

> «أن الإنسان إذا كان يحب نفسه فهو ملزوم، تبعًا لهذه المحبة، أن يحب شبيهه بالإنسانية تشديدا لحق كماله الطبيعى، وذلك اقتداء بخالقه الذى عندما رأى جوهره ملء الكمال أحب ذاته بديهيا. وبمحبته هذه خلق العالم محبوبا منه، وجعل يدبر

هيئة نظامه بما لم تدركه أفكار الطبيعيين فأعطوا
لكل حركة اسما مبهما. فينتج إذا أنه بالمحبة قد قام
العالم جميعه. وبالمحبة تتحرك جميع الأشياء.
وبالمحبة يثبت كل من المخلوقات على حدته، وبالمحبة
يحافظ الكل على أجزائه».

هذه الرؤية التى تريد أن ترى الجمال فى النظام، وأن تجعل من الكون كله نسيجا من الحب الذى لا يخلو من معنى المسؤولية، هى الأساس فى يوتوبيا المرّاش، وهى حلمه الذى واجه به عقل السلطة المدنية (متمثلة فى الفيلسوف) إمكان بطش السلطة العسكرية (متمثلة فى قائد الجيش). أعنى بطش السلطة التى اقترنت بشرور العسس والشرطة فى الميراث الثقافى للمرّاش، ذلك الميراث الذى صدَّر ببعضه عبد الرحمن منيف روايته «الآن.. هنا»، عندما نقل عن كتاب «حياة الحيوان الكبرى» للدميرى - فى باب الذئب - الحديث الذى نسبته العامة إلى ابن عباس، تنفيثا عن مكبوتها، فجعلته رضى الله عنه يروى عن النبى صلى الله عليه وسلّم أنه قال: «أدخلت الجَنة فرأيت فيها ذئبا، فقلت أذئبٌ فى الجنة؟! فقال: أكَلْتُ ابن شُرطى، فقال ابن عباس: هذا إنما أكل ابنه، فلو أكله كله رُفِعَ فى عليين». وكذلك ما روى عن سفيان الثورى - فى طبقات الشعرانى - من نصيحة تقول:

«إذا رأيتم شرطيا نائما عن صلاة فلا توقظوه لها، فإنه يقوم يؤذى الناس».

وكما تواجه السلطة المدنية السلطة العسكرية، تأكيدا للحضور المدنى للدولة فى يوتوبيا المرّاش، فإن هذه السلطة تواجه قوة الحكم المطلق، وتقوم منه مقام العقل النقدى الذى يراجع آراءه وأحكامه، كى يصل بها إلى ما يؤكد قيم الحق والخير والجمال. ولا يتردد الفيلسوف فى ذلك، ولا يخشى من الملك شيئا، بل يظل عليه بالتوضيح الذى يرده إلى جادة التمدن وقيم العدل، وذلك على نحو يبدو معه الفيلسوف بمثابة صورة أخرى من الحكيم «بيدبا» الذى نقلت حكمته السلطان «دبشليم» من حال إلى حال، فالمغزى المضمر فى «غابة الحق» يشبه المغزى المضمر فى «كليلة ودمنة» من الزاوية التى تؤكد حاجة السلطان إلى الحكمة والحكيم. ولا شك أن ازدهار مملكة التمدن والحرية يرجع، من هذه الزاوية، إلى اكتمال الصفات الذاتية للحاكم العادل بالصفات الملازمة للملكة (الحكمة) والفيلسوف (العقل) الذى ظل يقف من الجميع موقف المعلم العارف بكل شيء.

وإذا رددنا حضور هذا الفيلسوف على حضور الملكة ورمزية الملك فى معنى دولة التمدن والحرية، وبحثنا لمجاز هذه الدولة عن

حقيقة يمكن أن تشير إليها فى دلالة من دلالاتها، وجدنا أن التركيز يقع بالدرجة الأولى على صفة الحرية بوصفها مقابلا للعبودية، خصوصا فى دائرة تحرير العبيد من الرق، ولاحظنا أن هذا التركيز يقودنا إلى خارج النص، ويومئ إلى نموذج دولة بعينها أخذ حضورها الصاعد عالميا يشعّ فى السياق التاريخى لكتابة يوتوبيا «غابة الحق». ويبدو أن أقرب الدول التى نظر إليها المرّاش بوصفها تجسيدا لهذا النموذج كانت الولايات المتحدة. ودليل ذلك مبذول فى المقدمة التى يستعرض فيها الراوى بخياله تاريخ الإنسانية، فيرى ما يؤكد له أن ازدهار التمدن ظل قرين مبدأ «العقل يحكم» و«العلم يغلب». ويتطلع الراوى، من خلال إنجازات العلم، إلى جيوش التمدن الزاهر ممتطية متون الاختراعات العجيبة والمعارف الكاملة، وهى تخطر متموجة بأنوار أسلحة الحكمة والعدل، متدرعة بدروع الحرية الإنسانية. ويلمح ممالك الظلام تهرب أمام هذه الجيوش المظفرة مع كافة أجنادها، ناكصة على أعقاب القهقرة والانكسار، مؤكدة صعود دولة العقل التى بسطت قوتها على كل بقعة ومكان. وبينما هو ثمل بمشاهدة «هذا المسرح الجديد الذى تتلاعب به شموس هذا العصر الحديث» يظهر له من وراء الأفق الغربى دخان كثيف، وتسمع

أذناه صوتا آتيا من بعيد، يشبه لعلعة رعد شاسع. وإذ داخله العجب «لما عانى من المنقلب» سمع أصوات الأخبار الشائعة التى تناديه، قائلة:

«هو ذا العالم الجديد (أميريكا). قد رفض قبول شريعة العبودية. ولذلك قد نهض ضد هذه العادة الخشنة بالأسلحة والنار، إذ ما عاد يحتمل وجود بقية لدولة التوحش على سطح الأرض، وها دخان المواقع الحربية يبرقع وجه السماء».

وعندما يستوعب الراوى هذه الكلمات ويفى التمعن فيها حقه، يأخذ فى الارتياح، والاستسلام إلى المشاعر الهادئة التى تسلمه إلى المنام، وتفتح لعينيه «مسرح الأحلام». وتبدأ الأحلام بالبرية التى يرى أول ما يرى منها ملك الحرية وملكة الحكمة اللذين ينتقل منهما إلى بقية أمثولة مملكة التمدن الخيالية.

ولا يمكن فهم دلالة أسطر المقدمة وبداية الحلم إلا بوصلهما بسياقهما التاريخي الذى تولّدت عنه اليوتوبيا الأمثولة كلها، فقد كتب المرّاش روايته وهو واقع تحت تأثير أفكار الثورة الفرنسية التى انتقلت إلى أمريكا، والتى تحوّلت إلى عامل من عوامل الحرب الأهلية الأمريكية التى اشتعلت سنة ١٨٦١

واستمرت إلى سنة ١٨٦٥ ، منتهية بتوحيد الولايات المتحدة الأمريكية وتحرير العبيد. وقد نشر المرّاش روايته في حلب في السنة نفسها التي انتهت فيها الحرب الأهلية في أمريكا التي أعلنت التزامها بالعمل على تحرير العبيد في كل مكان، الأمر الذى أثار خياله ودفعه إلى الحلم بمملكة جديدة تقوم فى عالمه هو، مملكة تؤمن بالتمدن وتعمل من أجله، وتقوم على الحرية والإخاء المساواة، أى تقوم على القيم التى رفعت الثورة الفرنسية شعاراتها، منذ أن اشتعلت شرارتها التى بدأت بتدمير سجن الباستيل سنة ١٧٨٩ ، قبل سنوات قليلة من إعدام لويس السادس عشر سنة ١٧٩٣ وقيام الجمهورية الفرنسية. وأتصور أن صعود نجم الولايات المتحدة، بالقياس إلى اضطراب أحوال فرنسا، وانكسار نابليون ووفاته فى جزيرة القديسة هيلانه سنة ١٨٢١ ، أدّى إلى تحول الولايات المتحدة إلى النموذج الواعد لذلك «العالم الجديد» الذى يتحدث عنه المرّاش في مقدمة «غابة الحق». وذلك أمر ترتب عليه التوحيد بين «العالم الجديد» و«أمريكا» من حيث إشارتهما إلى إمكان مستقبل يخلو من العبودية، ويحقق شعارات الحرية والمساواة والإخاء.

ولا يستطيع قارئ للمراش أن ينكر تأثره بالثورة الفرنسية التى فتنته مبادؤها، ولا تأثره بما أتيح له الاطلاع عليه من كتابة

فلاسفة عصر الأنوار الذين مهدوا الطريق إلى هذه الثورة، وأرسوا الأصول النظرية للشعارات التى اقترنت بها. والجاذبية التى تحتلها باريس فى هذا السياق دالة على الميول الفكرية للمراش، خصوصا حين نقرأ كتابه الصغير «رحلة باريس» الذى «طبع بالمطبعة الشرفية عند حنا النجار فى بيروت سنة ١٨٦٧»، أى بعد عامين فحسب من نشر «غابة الحق». ففى هذا الكتاب ما يؤكد عقلانية عصر الأنوار التى يشير إليها المرّاش بقوله:

«إن للفكر قوة تغلب جميع القوات، وانطلاقا يقاوم كل العوارض، فلا يوجد رادّ إذا جمحت، ولا صادم إذا اندفعت، وكل الوسايط التى استعملت قديما أو حديثا لردها وصدّها إنما كانت مساعدات لازدياد حركتها وتفاقم انطلاقها».

وغير بعيد عن ذلك ما يقوله المرّاش عن مدينة باريس التى هى «مركز مجد العالم وأعجوبته» و«مصب أنهار العجايب وموقع أنوار التمدن والآداب». لقد أصبحت باريس عاصمة فرنسا فى عينى «الجيل الحاضر» الذى انتسب إليه المرّاش، كما أصبحت «عروسة لجميع مدن المسكونة، وشمسا يدور حولها فلك العالم البشرى». وذلك حال يجعلنا نفهم سر تسمية ملك التمدن بملك الحرية فى رواية المرّاش، كما يجعلنا نقرن بين هزيمة «مملكة

التوحش والعبودية» وهزيمة المعارضين لمبادئ الحرية والمساواة فى الحرب الأهلية الأمريكية على الأقل كما فهمها المرّاش. ويجعلنا نفهم، كذلك، تجليات مبدأ الرغبة فى هزيمة كل القوى التى اشتكى منها المرّاش فى مجتمعه، وحلم بإزالتها، وقام بإزالتها فعلا، فى دائرة الحلم الذى تحوّل إلى حيلة فنية انبنت عليها الرواية.

والجانب النقدى الذى ينطوى عليه الحلم أوضح من أن نشير إليه، ومحاولة تعرية مثالب المجتمع متجسدة فى الرواية، يوقع بها الخيال الروائى الهزيمة على مستوى مبدأ الرغبة. ولا يخفى المرّاش ذلك كله، فهو يصرح به فى ختام الرواية، حين تحدّث عن تيقظه قبل أن يعرف نتيجة محاكمة رموز مملكة التوحش والعبودية، وكيف تطلع حوله فلم يجد سوى بيداء مجدبة. ويسمع صوتا ينادى من بعيد: هذه برية الشهباء فلتبشر بقدوم الخير. ولكنه يقول لنفسه: «من أين سيأتى الخير إلى هذه القفار المجدبة والساقطة من أعين العناية منذ ألف سنة فأكثر. إن فى هذه البشرى ضربا من المحال». ثم يلتفت إلى جهة الغرب، وإذا بأفق عفى من الاخضرار، يهم أن يندفق على تلك القفار اليابسة. ويسمع صوتا يقول: «أبشرى، أبشرى، يا برية إرم القديمة، وافرحى وابتهجى يا شهباء سوريا فها هى العناية الملوكانية مقبلة إليك، والمراحم السلطانية هاجمة عليك». وعندما سمع الراوى

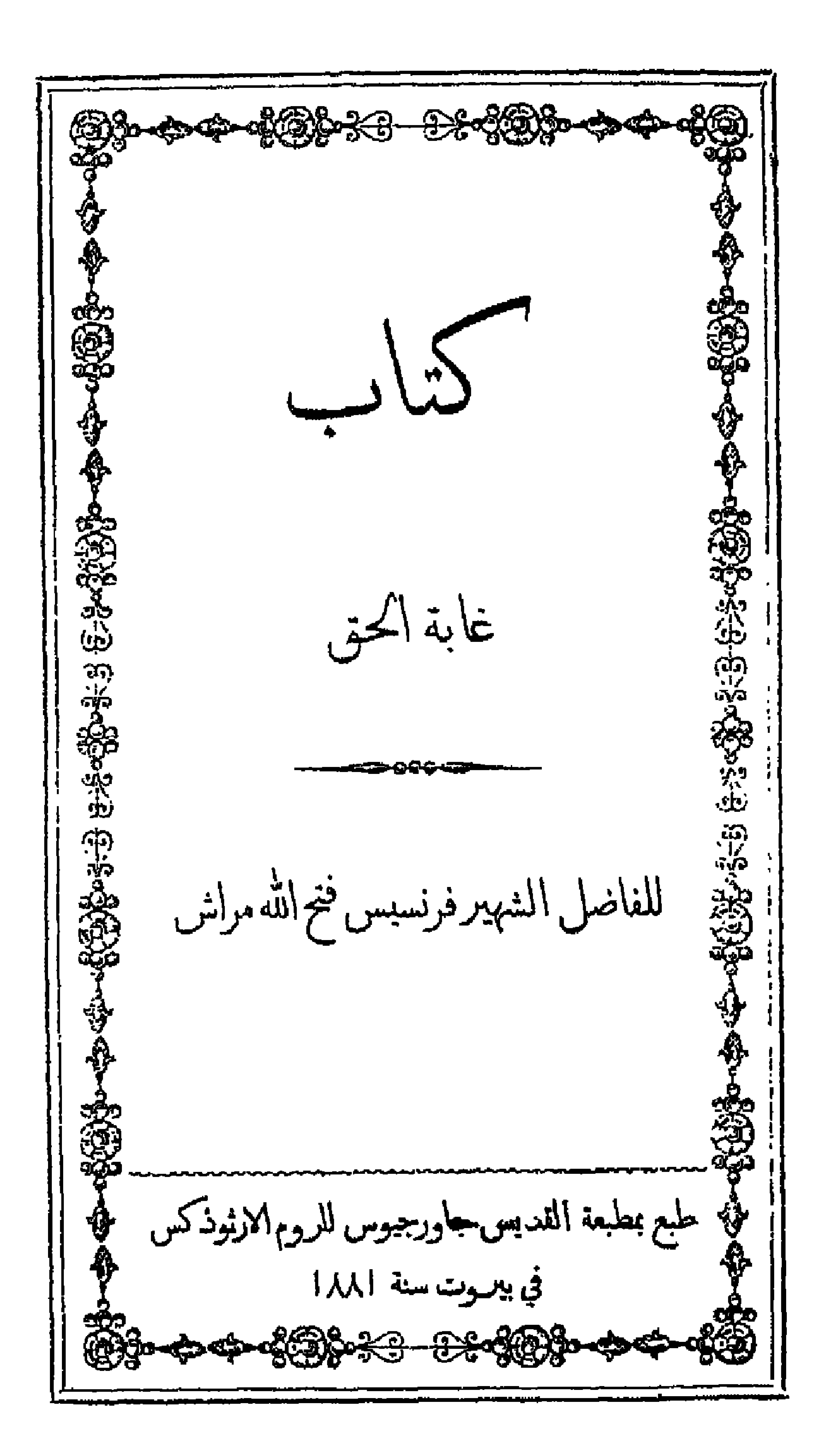
هذا الكلام استبشر بالخير على يدى السلطان عبد العزيز الذى كان لابد من تحيته على سبيل المناورة أو المداورة.

وليس ذلك كله بغريب فى تقاليد القص التمثيلى، حيث الاتحاد اللافت بين المؤلف والراوى، واختفاء المؤلف وراء أقنعة تدل عليه دلالة اللزوم أو التضمن، وتحويل الشخصيات المجرّدة إلى أبواق للأفكار المراد توصيلها أو التمثيل عليها بالشخصيات نفسها، ومزج الغاية التعليمية ذات المنحى الأخلاقى فى القص بهدف التقيّة والرغبة فى إنطاق المسكوت عنه من الخطاب المقموع. ولذلك تأخذ الصياغة الفنية شكل الأمثولة السردية التى تجمع ما بين أسلوب المقامة والرسالة الفلسفية. ولكن بما يجعل أساس الحركة السردية، أو المبدأ المولّد لها، هو طريقة المنامات التى نعرف مثلها فى «منامات الوهرانى». لكنها لا تبدأ بعبارة الوهرانى - الشيخ ركن الدين محمد بن محمد بن محرز المتوفى سنة ١٥٧٥م - «فرأى فيما يرى النائم» وإنما تبدأ باستهلال، هو مقدمة ينطلق فيها الراوى على جناح التأمل الفكرى:

«بينما كنت ذات ليلة ضاربا فى أودية التأملات العقلية، وطائرا على أجنحة الأفكار المتبلبلة فى جوّ الهواجس والأحلام التخيلية، وإذا قد انفتح لدى أعين خواطرى مشهد عجيب تلعب به أشباح الأعصار السالفة».

وتختتم المقدمة بالإشارة إلى انتصار حركة تحرير العبيد «في العالم الجديد» الذى هو «أمريكا». ولكن المقدمة تنتهى بالحلم الفعلى، حيث يفضى الطيران على أجنحة الأفكار، إلى «مسرح الأحلام» الذى هو الرواية نفسها، الرواية التى تمضى فصولها ما بين الحلم، والهواجس، ومملكة الروح، والمملكة، والسياسة، والتمدن، وقواد الشر، والمحاكمة، واليقظة. ويلفت الانتباه فى هذا التتابع العلاقة بين المقدمة وبقية الفصول، فالمقدمة تبدو أقرب إلى الدعوى التى تثبتها الفصول، أو تؤكدها بما هو مثال عليها. وتلك علاقة تذكّر بمبنى «كليلة ودمنة» الذى يستهله القاص بحكاية الحكيم «بيدبا» والسلطان «دبشليم». أقصد إلى الاستهلال الذى يجعل من مغزى الحكاية دعوى تثبتها كل الحكايات اللاحقة فى «كليلة ودمنة» التى تغدو أقاصيصها أمثلة دالة على مغزاها الاستهلالى الذى يعلى من شأن «عقل» الفيلسوف بالقياس إلى «سيف» السلطان أو بطشه المادى، تماما كما تعلى الطبيعة من شأن أصناف الحيوان الصغيرة التى تستطيع بالحيلة (العقل) غلبة أصناف الحيوان الكبيرة التى تشبه فى بطشها السلطان «دبشليم». والأمر نفسه موجود بمعنى من المعانى فى التتابع السردى لتمثيلات «غابة الحق»، خصوصا من الزاوية التى تتحول بها المقدمة إلى ما يشبه حكاية صغرى تتولد منها حكاية كبرى، هى دليل تمثيلى عليها، وذلك بواسطة الحلم الذى يغدو تجسيدا للدعوى على مستوى مبدأ الرغبة.

وأحسب أن هذا الجانب من «غابة الحق» يؤكد صلتها بتراثها، ويصلها ببلاغة المقموعين وصلها بتقاليد «المقامة» التى يقوم فيها السرد على المزج بين الشعر والنثر. وذلك أسلوب كان لا يزال شائعا فى عصر المرّاش، سواء فى المحفوظ من المقامات القديمة للهمذانى والحريرى والزمخشرى و غيرهم، أو المستخدم فى المقامات الإحيائية، ابتداء من مقامات الشيخ ناصيف اليازجى (١٨٠٠-١٨٧١) التى طبعها الخواجة نخلة مدور فى بيروت سنة ١٨٥٦ بعنوان «مجمع البحرين». ويأتى الشعر، عادة، فى «غابة الحق» ضمن مناطق السرد المتوترة، حيث ترتفع درجة الانفعال، سواء فى دائرة الإعجاب أو التأسى أو التمثيل. وأغلب الشعر المستشهد به من نظم المرّاش. ويكشف عن موهبته الشعرية التى تركت لنا ديوانا مطبوعا ورسالة شعرية بعنوان «كتاب الكنور الغنية فى الرموز الميمونية» طبع فى حلب سنة ١٨٧٠ (وأنا مدين بمعرفته لصديقى الدكتور يوسف زيدان الذى زودنى بمصورات لكل ما تحتفظ به مكتبة البلدية فى الإسكندرية من كتابات المرّاش التى لا توجد إلا فيها لحسن الحظ). لكن تبقى «غابة الحق» درة أعمال المرّاش، وعلامة المفارقة التى استبدلت بالشعر فى كتاباته العمل القصصى الأول الذى استهلت به الرواية العربية زمنها الذى ارتبط، منذ البداية، بمواجهة القمع، تأكيدا لقيم الاستنارة التى هى قيم العقل والعلم والحرية والتقدم.



# كتاب

## غابة الحق

للفاضل الشهير فرنسيس فتح الله مراش

طبع بمطبعة القديس جاورجيوس للروم الارثوذكس

في بيروت سنة ١٨٨١

## مقدمة المؤلف

إننى بينما كنت ذات ليلة ضاربا فى أودية التـأمـلات العقليـة. وطائراً على أجنحـة الأفكار المتبلبلة فى جوّ الهواجس والأحـلام التـخيّليـة. وإذا قد انفتح لدى أعين خواطرى مشـهد عـجيب تلعب به أشبـاح الأعـصار السالفة. وترن فـى هوائه نغمات الشعوب الغابرة وراء حـجب التواريخ الخـالدة. فرأيت ممالك العالم القديم تتعالى إلى أوج العظمة والكرامـة. وترتقى إلى سدرة الآداب والتهذيب. حينما ينتهى مجد الإنسان النازل من الخليقة منزلة الأوّل من العدد. فبينما كنت أرى المصريين مشـتغلين بتهـذيب الفلاحـة والزراعة وتربيـة العلم وصناعـة الأيدى. والأشـوريين مـجـدّين باخـتـراع ظرافـة المشـادات والأبنية. والفينيقين آخذين بتوسيع المتاجر ونهج سُبل البحـار وتقريب صلة الهيئة الاجتماعية. وإذا براية فارس مقبلة من بعيد حـاملة شمسها الساطعة وأسدها الزائر. وهى تخفق على رؤوس جيش عرمرمى من فوق صهوات الخيول الصاهلة التى كلما كانت تضرب بحوافرها أديم الأرض كانت تثير غباراً يلقى وخط الشيب على هامـة الزمـان، وينسج برده الأشـهب لجسد التاريخ.

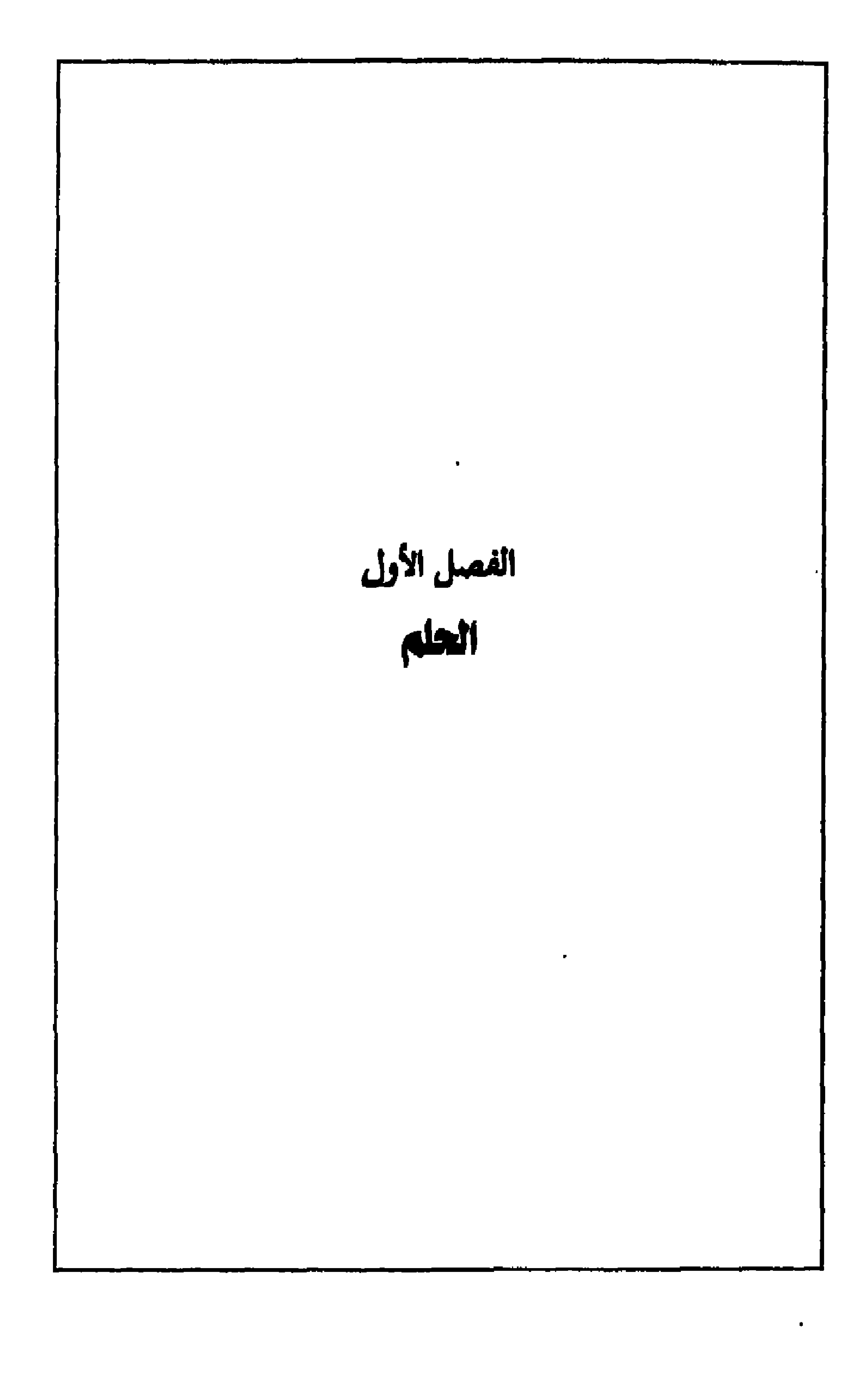
وهكذا لم يزل يتهاجم ذلك الجيش الجرار تحت تلك الراية الخافقة إلى أن مد بساط صوته على كل أولئك الشعوب الذين كانوا يرفلون بذيول الثروة والنعيم، فأحنى كلٌّ ركبة لدى تلك النار الفارسية، وأهال كلٌّ قلب بطلعة ذلك الأسد السائد.

وما برحت دولة فارس متمتعة بتلك الأراضى المحروسة وذاك الغنى الوافر، حتى برزت عساكر مكدونية وأحدقت من كل جانب تحت أعلام الإقدام والبسالة مثيرة لهب الحروب الهائلة، إلى أن ظفرت بجميع هاتيك الممالك وأخمدت نار فارس. ولم يزل الصولجان المكدونى يفرع تقدما ونجاحا، وفسحة ذلك الجوشن تتسع بالسطوة والاقتدار، إلى أن رأيت نسر الرومانيين صاعداً من الشمال، وهو يخفق بأجنحة النصر والظفر منقضاً على كل ما امتلكه المكدونيون من تلك الممالك الواسعة والبقاع الشاسعة. وهكذا قد بسط جناحيه وخيَّم على العالم. فانتصب لدى عينى حينئذ قوس النصر الرومانى فى وسط ساحة الدنيا، وعدت أرى جميع شعوب الأرض تتقاطر أفواجاً أفواجاً وتمر تحت ذلك القوس العظيم إشارة للخضوع والطاعة. وما برحت تلك الدولة العجيبة تمتد وتتسع

منتفخة بالغلبة والجبروت إلى أن انشطرت إلى شطرين عظيمين: فكان الأول شرقياً والثاني غربياً، فأخذ ذاك يتعاقب بين ارتفاع وهبوط تحت رحمة الأقدار. وهذا يتشعب ويتفرع إلى جملة ممالك وولايات تحت اختلاف الأطوار.

ولم تزل تحصحص لأعين تأملاتي تلك الظواهر إلى أن انفتح أخيراً لدى أبصار تبصراتي باب رحب مكتوب على قنطرته «العقل يحكم» ومنه عاينت برية فسيحة جداً. وظهر لي عن بعد علم يخفق متقربا، فوضعت نظارة الاختبار وأمعنت النظر فرأيت مكتوباً عليه: «العلم يغلب». وظهر لي حينئذ من ورائه جيوش التمدن الزاهر ممتطية متون الاختراعات العجيبة والمعارف الكاملة، وهي تتخطر متموجة بأنوار أسلحة الحكمة والعدل، متدرعة بدروع الحرية الإنسانية والخلوص المحض. ورأيت أمام هذه الجيوش المظفرة تتراكض ممالك الظلام مع كافة أجنادها ناكصة على أعقاب القهقرة والانكسار، وهي تزاحم بعضها البعض إلى الهبوط في لجج العدم والاضمحلال حيثما لا حركة ولا صوت. وهكذا مدت دولة العقل قوتها على كل بقعة ومكان، وعم السلام على كافة المسكونة.

وفيما أنا مشمول بشمول هذه المرئيات التصورية فى هذا العالم الفكرى، ثمل بما أشاهده فى هذا المسرح الجديد الذى تتلألأ به شموس هذا العصر الحديث، وإذ قد ظهر لى من وراء الأفق الغربى دخان كثيف مدلهم، وأخذت أذناى تسمع لغطا آتياً من بعيد يشبه لعلعة رعد صادر عن بعد شاسع، وكادت حينئذ نواظرى تستلمح وميض أسلحة الحرب، وإذ داخلنى روح العجب لما عاينت من هذا المنقلب، ونادتنى أصوات الأخبار الشائعة قائلة: هو ذا العالم الجديد (أمريكا) قد رفض قبول شريعة العبودية، ولذلك قد نهض ضد هذه العادة الخشنة بالأسلحة والنار، إذ ما عاد يحتمل وجود بقية لدولة التوحش على سطح الأرض. وها دخان المواقع الحربية يبرقع وجه السماء، وتموجات رعود المدافع تتفتح فى كتلة الهواء. فعندما استوعبت هذه الحوادث ووفيت التمعن حقه، تلاعبت يد الاضطراب فى جهاز الحياة ومالت الأعضاء إلى الراحة، ولم أزل كفريسة ترتعد بين مخالب تلك الانفعالات إلى أن أخذتنى سنة المنام وانفتح لدى أعينى مسرح الأحلام.



# الفصل الأول

# الحلم

# الحلم

ولما عرتني لجج الرقاد وجدت ذاتي متخطراً في برية واسعة، وكان يظهر لي عن بعد غابة عظيمة ذات أشجار ضخمة عالية بأغصان متكاثفة الأوراق ملتفة بعضها على بعض، بنوع أنه لا يمكن لأشعة الشمس أن تخترق قبابها الشاهقة الواصلة إلى كبد السماء لكثرة التفاف غصونها واندغامها. وكانت تفرش على الأرض بساطاً ثخيناً من ذلك الظل الذي لا يتقلص.

وبعد أن اجتهدت في المسير وتبطنت هذه الغابة رأيت نفسي من ثم محاطا بسكوت عميق يتخلله من فترة إلى أخرى هدير مبهم يشبه دوي غدير متدفق ممزوج ببعض زمجرة من وحوش الغاب أو تغريدات من طائر السماء. فأخذت أتتبع هذا الصوت الذي يظهر كأنه ينعي ألم الوحدة أو يبث شكوى الفراق، ولم أزل مهتديا به إلى أصله وأنا أركض تارةً وأتوقف أخرى إلى أن انتهى بي الجد إلى فسحة فسيحة واقعة في جوف تلك الغابة ومحاطة بسياج من أعظم الأشجار، وهناك

رفعت نظرى فرأيت السماء حينئذ متحدبة على تلك الفسحة المحاطة بذلك الشجر الهائل كتحدّب قبة من زجاج على عمد وقناطر من زبرجد. وإذ أطلقت نظرى قليلا وجدت صخرة منفردة القيام مضجعة على ناحية يتدفق فى أسفلها ماء غدير عظيم، تدفقاً يسابق الطير بسرعة، وهو يتشعب إلى جوارٍ تذهب متشتتة فى أقطار ذلك الحوش تاركة عند انفصالها صياحا وأنينا موجعين.

وبينما كنت شخاصا فى هذا المشهد البهيج، ومتأملا بما تصنعه الطبيعة من الفلتات الغريبة، وإذا بعاصف من الريح قد نهض من سكناته وهبّ هبوبا كاد يقتلع جميع الغابة ويطير بها إلى أعالى الجبال الشامخة، فأغمضت نواظرى إذ ذاك لدى تلك الزوبعة الطائرة خوفا من لذع غبارها الثائر. ولما فتحت أجفانى رأيت عرشين منتصبين أمامى على الفور كأنهما مصاغان من الذهب الإبريز وهما مرصعان بأفخر الأحجار الكريمة، ووضعهما كان قريبا من تلك الصخرة وذلك الغدير. وفى كل منهما لمحت شخصاً جالساً وعليه من اللياقة والكمال ما لم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر.

أما الشخص الأول فكان رجلا لابساً برفيراً أرجوانياً يتلألأ كأنوار الضحى وفى يده اليمنى صولجان طويل وقابض باليسرى على رقعة مطوية بغير نظام. وهو معتقل سيفاً ذا حدين وعلى رأسه تاج مكتوب على إكليله «يعيش ملك الحرية». وكانت عيناه تتناثران شرراً وهو مقطب الحاجبين واجم الوجه بحيث يتضح للناظر كونه منفعلا بنوبة عظيمة من الغضب لأمور تدخل فى سياسته، وكان شاخصا فى نقطة من الأفق يتصاعد منها دخان وقتام.

أما الشخص الثانى فكان امرأة. وعلى ما لاح لى أنها زوجة الأول. وهذه المرأة قد كانت ذات وجه بيضوى الشكل، يلوح عليه حسن بلغ أعلى درجة من سلم الجمال. فعينان تنبعث منهما أنوار الحوار على سواد الكحل. وأجفان كأنها سكرى بخمرة الفتور أو مأخوذة بسحر الغزل. وحاجبان كأنهما صورتا بقلم رافائيل أو نقشتا بأزميل ميخائيل، قد جمعتا بين الاقتران والزجج وجمع جبينها بين السعة والبلج. وكان رأسها متوجا بشعر مسترسل يترامى على أقدامها كطالب شفاعة بهيأة تكل عن إحاطة تشخيصها الصناعة. وسواده يتموج بسنا الصقال اللامع كالليل الذى يخامره ضياء الفجر الساطع. وهو

مكلل بإكليل من الذهب والغار علامة الظفر والانتصار. وكانت وجنتاها صفحتى لجين، قد اندفع إليهما نور الشفق. ومباسمها كشقيق أخذ يتفتح إذا ما الصبح انفلق. وكان جيدها قد صيغ من بلور لطيف، يعلو على صدر يحمل كرتى مرمر نظيف. أما معصماها فقد كانا لدوائر الأساور مركزين يرسلان أقطاراً متساوية الاتصال. وكذلك أرساغ قدميها كانت تزدان بخلخاليها. أما لباسها فقد كان جامعاً لكل الحشمة، بحيث لم يكن سوى جلباب عريض حريرى النسيج يحيط بجميع قوامها من العنق إلى الأقدام، مزرراً على صدرها ومستدقاً عند معطفها يحيطه كنطاق، ومن هناك يأخذ بالاتساع إلى الأسفل بدون أن يتبدى مشهد قبة عظيمة.

وبينما كنت أنظر إليها نظر المندهش الحيران مأخوذاً بخمرة ذلك الجمال البديع مضطرباً بوقوع تأثيراته على قلبى الذى كنت أضغطه بيدى خوفاً أن يطير شعاعاً، وإذ قد لاح لى سطر من أحرف نارية على إكليلها الذهبى يعلن هكذا «فلتحيا الحكمة».

وإذ شرعت أتأمل بعد تلاوة تلك الأحرف فى أبهة هذه الملكة المتواضعة، رأيت جبينها زاهراً بأنوار النباهة والذكاء،

وعيناها تتقدان بأشعة التعقل والفطنة، وصدغاها متسمان بالحزم والرشد، وهى تبتسم بالبشاشة والوقار ملتفتة إلى ذلك الملك الغضبان التفاتاً يرسم شكل القمر فى الليلة الإحدى عشرة، ومنحنية أمامه بيد منبسطة تستميل خاطره وتستعطف قلبه بكلام يقع فى السمع وقوع الدر فى الصدف، فسمعتها تقول له هكذا:

– نعم لا يجب التغاضى عن هذا الملك الظالم الذى لا يبرح مجتهداً بزرع زوان الخشونة والتوحش فى حقل مملكتنا ذات التمدن والتهذيب، ولا ينبغى الاضراب عن استئصال كل أعوانه وأنصاره الذين يلبسون ثياب الحملان وينفردون ما بين خراف رعايانا كلما غفلت عنهم أعين التيقظ والانتباه، واضعين على وجوهم براقع المكر والخديعة. حتى إذا ما تمكنوا من استمالتم بقوة الاحتيال، يأخذون حينئذ فى إفساد ضمائرهم السليمة، مظهرين لهم شرف التعبد لملكهم وما عنده من الفوائد والمنافع، إلى أن يطرحوهم أخيراً بأيدى ذئاب عبوديته. ولكن مع ذلك لا ينبغى معاملة ذلك الملك العنيد وأولئك الأعوان المردة إلا بما يقتضيه قانون شريعتنا العادلة. أى بالأناة والحلم واللطف لئلا يحسبنا الذين يجهلوننا ظلاّماً أو حمقى.

– كيف يمكننى أن أعامل هؤلاء القوم بما تقتضيه نواميسنا حسبما تشورين مع أننى قد أفرغت جهداً طويلاً وتكلفت تعبا ليس بيسير حتى أوقعتهم أخيراً فى قبضتى؟ أفما يخشى من هربهم بواسطة الحيل والخداع إلى حيث لا نعود نظفر بهم ثانية؟ فها أنا قد اعتمدت على شنق هذا الملك الخبيث وسجن جميع حفدته وعبيده مؤبداً، وعلى دثار جميع مملكة العبودية بكل سرعة، وما عاد لى حاجة لما كانت تدفعه هذه الدولة من الخراج، لأن جميعه آت من مال الظلم.

– إياك تصنع هكذا يا أيها الملك المعظم لئلا تفتح سبيل التمرد والعصيان أمام شعوب مملكتنا وتعود القوميات الأهلية إلى الثورة ثائرة. لأنه معلوم لديك كم وكم من الناس يميلون طبعاً إلى تلك الدولة ما عدا الذين قد مالوا إليها بقوة الفساد والغش، فإذا – لا سمح الله – أخذت الحروب الأهلية بالانتشاب، نعدم راحتنا ونقع فى وجل عظيم، فتصير المصيبة الأخيرة أشر من الأولى. إذ نكون كالطبيب الذى يسرع إلى سفك الدم حالا فى الحميات الخبيثة بدون ملاحظة المزاج والبنية، فيهلك المريض بشدة انحطاط القوى الحيوية.

فأشور عليك إذا يا أيها الملك الجليل وأرجوك أن تتنازل إلى قبول مشورتى، وأن تستحضر لديك ذلك الملك العنيد مع أهم أعـوانه، وتضع لهم شـرائع وقـوانين جـديدة يسلكون بموجبها، وتشدد ذلك الوضع بالصرامة اللازمة بعد توبيخهم وتبكيتهم، ثم تجعل لكل منهم ناظراً من طرفك. وكذلك يجب أن تكون كثر عساكرهم من جنس عساكرنا، كيلا يعود لهم مقدرة على مخالفة الناموس أو العصيان والتمرد، ولكى يعلموا أنك أنت هو الملك الأكبر مقداراً والأشد عزيمة والأوسع مملكة وأجناداً، وأنه بأى وقت تشاء يمكنك شنّ الغارة عليهم وأسرهم وسجنهم حسبما فعلت الآن.

– قد ظهر لى الآن من كلامك يا أيتها الملكة السعيدة أنه يجب إرجاع هؤلاء الظلمة إلى مملكتهم بعد تلك الحروب التى أثرناها عليهم وكل ذلك التعب. فأنا أعجب منك كيف مع كونك بهذا المقدار حكيمة تردين على بمثل هذا الرد ولا تشورين علىّ باستئصالهم عن آخرهم لكى تأمن غوائلهم ومكائدهم؟

فقاطعته الملكة قائلة: إن شورى عليك يا أيها الملك الجليل بوضع شرائع جديدة لأولئك القوم أصحاب تلك المملكة المشؤمة، وباستصحابهم بمناظرين عليهم من طرفنا، وبجعل أكثر عساكرهم من جنس عساكرنا، إنما هو عين استئصالهم وإبادتهم، لأن بذلك يعود يمكننا وضع اليد على مملكتهم وضمها إلى مملكتنا بكل سهولة وبدون أدنى انزعاج لداخليتنا ولكن مع طول الزمان والصبر، الأمر الذى به قد نجحت أكثر ممالك العالم حسبما تخبرنا التواريخ. ولكن إذا أوقعت بهم الآن حد السيف بدون التبصر بعواقب العجلة، فأخشى عليك من الوقوع فى بلبلة البال والندم على المحال.

وبينما كانت هذه الملكة الحكيمة تبسط آراءها لذلك الملك الجليل، وإذا برجلين مقبلين من جوف الغابة بأقدام مهرولة وبوجوه عليها سيماء الاشتغال، ولم يزالا يتقربان إلى أن وصلا أمام المظهر الملوكى وسجدا هنالك بكل احترام ووقار. وكانا متدرعين بأسلحة الحرب وأعينهما ملتهبة بضرام الموقع، وأحذيتهما متوشحة بما نسجه النقع، والدماء سائلة على حد ظباها ومضمخة ثيابهما العسكرية. وكان مكتوبا على خوذة أحدهما: «هذا قائد جيش التمدن» وعلى منكب الآخر. «هذا وزير محبة السلام».

وعندما وقعت من الملك التفاتة عليهما حياهما بالإكرام وقال لهما: أخبراني بما فعلتما شفاها. فأخذ الأول يسرد الحوادث هكذا:

– إن نصرتنا الكاملة على الأعداء لم تحتمل أكثر من موقعتين. أما الأولى فكان حدوثها على هذا الوجه: وهو أن هؤلاء عندما شاهدوا جيوش آدابنا المستظهرة مقبلة عليهم فرقاً فرقاً أسرعوا حالا إلى قتالنا منظمين أجناد مقاومتهم، وأخذوا يدافعون هجومنا عليهم بنيران مدافع العناد بدون أدنى اكتراث بنا. وكان حامل علمهم رجل يسمى بالبغض. فعندما لاحظنا قحتهم هذه زمرنا حالا ببوق النار الدائمة ورفعنا لواء الهجوم، وعدت ترى حينئذ جيوشنا الغضنفرية الظافرة غائصة فى سحب دخان الغيرة، متلألئة ببروق صحيح التعاليم على صهوات جياد المدارس التى كانت تحمحم طلباً للهجوم وشوقاً للاقتحام. ولم تزل قنابر براهيننا تنقض على صفوف الأعداء كالصواعق من أفواه مدافع جيوشنا المظفرة التى كانت ترعد تحت سماء حرب الحرية. ولم تبرح بنادق ألفاظنا تمطر عليهم رصاص العزيمة إلى أن رأيت تلك الصفوف أخيراً متفرقة كبنات نعش، ومنهزمة أمام نظام فيلقنا الذى كان يحكى الثريا

شملا والجوزاء مسيراً. وهكذا لم نزل هاجمين عليهم وهم ناكصون على أعقابهم متقهقرين، حتي ظفرنا بالغلبة والانتصار وتركنا كثيرهم بين قتيل وجريح، والبقية أدبروا وحوصروا في معاقل الآراء السخيفة التي ألفوها وحسبوها حقائق غير قابلة التحويل.

أما الواقعة الثانية فقد كانت على هذه الكيفية: وهي أن أولئك الأعداء قد أرسلوا إلينا رسولا حاملا من طرف ملكهم رسالة بها يعدنا أنهم يتركون الأسلحة بشرط أن تتنحى عنهم قليلاً عساكرنا، فوعدهم سعادة رفيقي هذا (وأشار إلى جوزين محبة السلام) أن يصالحهم، وكتب لهم بذلك رقعة ودفعها للرسول، فأخذها وذهب، وهكذا أتممنا الوعد. ومذ شاهدوا تنحينا عن معاقلهم طمعوا بمسالمتنا لهم وأخذوا يجمعون عساكر جديدة بعزم جديد، واندفعوا علينا ثانية كالوحوش الضارية تحت إدارة سبعة قواد تسمى بالأرواح الشريرة، وكان حاملا علمهم جندي يقال له الخيانة، فعندما رأينا تأهبهم للقتال وهجومهم علينا اغتيالا ومفاجأة تحت لواء الخيانة، هرعنا حالا إلى أسلحتنا القاطعة وقابلناهم بأمواج كتائبنا المنتصرة وأخذنا نصادمهم مصادمة بني أسد لبني كلب

وكنت أنا وهذا الوزير نخترق صفوف جيوشهم شاهرين سيف الهمة والمسعى، ونضرب يميناً وشمالاً بكل عزائمنا لكى نشدد قلوب الجنود المنقضة عليهم كالنسور، وكان دخاننا يبتلع دخانهم، ورعود مدافعنا تخرس مدافعهم، ولم نزل نجزر مدّهم ونفل حدهم حتى استظهرنا عليهم ملياً، وأوضحنا تقهقرهم جليا، ولم نرجع عنهم حتى أوقعنا جميع عساكرهم وقوادهم فى قبضتنا بعد حرب ضروس قامت على ساق وقدم، وأشهر من نار على علم. ولم نكتف بهذه الغلبة فقط بل دخلنا أيضاً إلى معاقلهم الحصينة لكى نستخرج ما فيها من القوات. وبينما كنا نتجسس ونبحث تلك الحصون واحداً فواحداً وجدنا فى أحدها رجلاً هرما قد نفضت أقدام الأيام على هامته غبار الشيب وهو مختبئ فى إحدى زوايا إحدى الغرف، وكان ناكس الرأس مكفهر الوجه منحط العزائم والقوى ذارف الدموع منحنى الظهر حتى كأنه صنم لا يستطيع إتيان أدنى حراك، فقبضنا عليه أيضا وأخرجناه إلى الخارج، وربطناه مع سبعة قواده المذكورين ومن يحمل عليه بسلسلة حديدية ووضعناهم فى سجن عندنا تحت الأسر، وحالا أخذت قلما وقرطاسا وسطرت به هاتين الموقعتين بحذافيرهما على وجه

الاختصار، وأرسلت الأسطر إلى عظمتكم مع بريد مخصوص.

– أجاب الملك: قد وصلتني رقعتكم مع البريد المذكور ولكني لم استوعب كل الحوادث حسب الواجب، ولذلك رددت إليكم البريد لكي يدعوكم إلى هنا لأقف على جلية الأمر منكم مشافهة. فمن هذه الواقعة التي أبرزتموها لي لم أعلم سوى موقعة واحدة، وأنكم موعودون من الأعداء بالتسليم وترك الأسلحة، بينما كان نظري يسبق ويرى من بعيد دخان وغبار معركة مخيفة، وأذني كانت تسمع لغطا يشبه دوي رعدات من أفق بعيد، ولم ألبث أن أغرقتني لجة البلبال، إذ إنني لم أعلم النصر لمن يكون.

– نعم إن هذه المعركة التي هي الثانية ربما كانت جارية بينما كنتم تشرّفون معروضنا بتلاوته، لأننا بعد برهة قليلة من نهاية الكفاح الأول، حيثما أسرعنا إلى أخبار عظمتكم، فزنا بالمعترك الأخير ونوال النصر والظفر من حيث لا تعلمون. ومع ذلك كنا نقتصر على إنجاز تلك الموقعة الأولى حسب المرغوب لو لم يدخل غش هؤلاء المردة على

سلامة قلب وزير محبة السلام (وأشار إليه)، أما هذا الأخير فقد كان مطرقا ببصره إلى الأرض غير متحرك وكأنه واقع فى هواجس كثيرة فالتفت الملك إليه وقال:

– بالحقيقة أن سلامة قلبك قد صارت السبب الوحيد لنشوب تلك الموقعة الثانية، لأنه لو كنت تعرض عن تصديق دعوى أعدائنا بالتسليم عالما أن الحرب خدعة، لكانت جيوشنا أنهت الموقعة الأولى حسبما اقتضت الثانية، وكنا اغتنينا عن ثقلة هذه الأخيرة ووفرنا رجالا ومالا.

– فأحنى الوزير رأسه لدى الملك وقال: إنه لم يخطر لى البتة إمكان هجوم هؤلاء البرابرة علينا مرة ثانية بعد ما شاهدوا ما شاهدوه من بسالة جنودنا الأقوياء فى الحروب، وتيقنوا جيداً من عجزهم وضعفهم بالنسبة إلى ثباتنا وقوتنا. فقد جرت الأقدار بما لم يخطر فى الأفكار، ومع ذلك فليس إجابتى لطلبهم كانت مسببة عن اقتناعى فقط بكونهم لا يجسرون على محاربتنا ثانية، بل وعلى طمعى بحقن الدم أيضاً، إذ قد خطر لى أنه إذا لم نجب طلباتهم وواصلنا الحصار والهجوم، فقد يمكن أن يجرى نهر من الدماء حسبما جرى

ذلك فى كثير من مواقع العالم من عهد يشوع أريحا إلى تيطس أورشليم ومن بعده....!!

فقاطعه الملك قائلا: إنه يوجد فى طريق الإنسان كثير من الموانع التى لا يمكن الحصول على رفعها إلا بسفك الدم، وكذلك قد يصيب الإنسان كثير من الحوادث التى لا يمكنه دفعها إلا ببذل الروح وعلى كل حال:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى يراق على جوانبه الدم

ولكن يا أيها الملك المعظم ليس بجيّد للإنسان أن يسرع حالا إلى إهراق الدماء على نزر الأشياء. وليس جميع الحوادث والأحوال تساوى الدم الإنسانى الذى لا يوجد أثمن منه. ولا يجب مصارعة أولئك الشعوب الذين يبادرون إلى شن الغارات والفتك ببعضهم البعض على مآرب لا يعتد بها أو خرافات لا بيت لها فى رقعة التمدن، بحيث يؤول صنيعهم هذا ليس إلى دمار ودثار أخصامهم فقط، بل إلى انحطاط وخراب هيئتهم أيضا. إذ إن الرجل الظالم يرجع ضرره على نفسه، وعلى هامته يهبط ظلمه.

فلا برهان إذن على سمو عقل الإنسان وترويض أخلاقه ودعة سجيته أعظم من محبته السلام ونفوره من الحروب والخصومات. على أنه بالسلام تنمو الهيئة الاجتماعية وتتوسع دائرة تقدمها بالثروة والمعارف والآداب. بالسلام تخصب الحقول وتعطى الأرض غلاتها وتجود الفلاحة ويكثر الحصاد. بالسلام تعمر البلاد والقرى وتتسع التجارة التى عليها يقومُ مدار الاشتراك الاقتصادى مع كافة العالم. بالسلام تتقوى الممالك وتعظم رجالا ومالا. وبالإجمال أنه بالسلام يقوم شرف البلاد وصالح العباد. ولكن إذا أخذنا نتصفح الحروب وغوائلها إنما نرى العكس تماما. على أنه بالحرب تتبدد الهيئة الاجتماعية وتضيق دائرة تقدمها ونجاحها حيثما يرسل إليها مركز الجهل قاطرات الخراب. بالحرب تمحل الأرض وتضن بإنتاجها وتتقهقر الفلاحة ويقتر الحصاد. بالحرب تنهدم البلاد وتغور المتاجر فى أودية الاضمحلال وتنقطع الشعوب عن مشاركة بعضهم البعض. بالحرب تضعف الممالك وتقل رجالا ومالا. وفى النتيجة أنه بالحرب تذل البلاد وتباد القبائل ويسود الخراب. ومع كل ذلك فقد يلد السلام حروباً والحروب سلاما، بناء على أن زيادة

الراحة قد تنشئ أضراراً لا تذهب إلا بواسطة التعب والرياضة. وهكذا أيضاً زيادة التعب قد تسبب جملة أعراض رديئة لا يمكن أن تنجو منها الإنسانية إلا تحت سلطة الراحة والسكون. أما ترى حينما تمردت علينا مملكة العبودية وأخذت تفسد في الأرض بواسطة أعوانها وتعيث بسذاجة شعوبنا فساداً كيف نهضنا ضدها مبادرة وأشهرنا أسلحة الحروب عليها حذراً لئلا يبتلعنا القعر وتطبق البئر علينا فاها. وهكذا اتممنا تشتيت شمل العدو وصحنا عليه بصافور الغلبة والظفر ضاربين بطبول الحرية التى نحن أولادها. وحينئذ فأنا وزير محبة السلام كما تدعوننى قد اخترقت بذاتى جماهير معسكر هؤلاء الأعداء، واقتحمت قلاعهم منتضياً سيف الهمة والمسعى حتى انزلت بهم النكال دفعاً لوقوع القلق والاضطراب فى بلادنا، ورفعاً لتسلط القبائل الأجنبية علينا، الأمر الذى يفعل الخراب أكثر مما تفعله الحروب، فهنا نرى أن السلام قد أنشأ خرباً.

وعندما تسترجع هذه الحروب راحتنا السابقة وهدؤنا الاعتيادى منادية: ليكن سيف السلطان طويلاً، نقول من ثم: إن صخرة الحرب قد أفاضت مياه السلام الدائم الذى به سيتمتع كل آت بماء هذه الصخرة التي فجرتها العناية بعصا موسى لعتق كل سارح فى برية الحرية أو فى غابة الحق

(وأومـأ إلى الصـخـرة التـي يتـدفق منهـا الماء وأحـاط بالإيماء جميع الغابة) وبينما كان هذا الوزير يتكلم كانت الملكة الجالسة بوقار وحشمة متكئة على ساعد العرش السامى تظهر الارتياح بتوريد خدها الأزهر، وعلى مباسمها تقرأ الحلاوة أية الكوثر، وهى تهز رجلها هزاً لطيفا إشارة لاستيعاب الخطاب. وكانت تنظر إلى وجه وزير مـحبـة السلام بعينين تفيضـان جمـالا وكمالا على طلعة تنفث فى العقول سحراً وتدير على القلوب خمـراً، فهى ترمى فؤاد فينوس (آلهـة العشق) بنبال الفتور، وتأخذ قلب باكوس (إله السكر) بنشوة الخمور، مع أنها تخلق فى مينارفا (آلهة الحكمة) مهابة واحتراماً، وتجرى فى روح المريخ (إله الحرب) بردا وسلاماً.

فما أتم الوزير كلامه إلا ورأيت زنجيين مهرولين من بعد إلى ساحة هذا المسرح، ولم تزل بطون الأدغال تبتلعهما تارة وتلفظهما أخرى حتى أدركا أخيراً هذا الموقف وسجدا على الفور تجاه المشـهـد الملوكى مكشوفى الرأس مطرقى الأعين، قد عبثت بإنفاسهما غصص الرعشة والهلع. وغب سجودهما أبرز أحدهما من جيبه درجاً مطوياً ورفعه منشوراً لدى العظمة الملوكية وهو مطمئن الظهر منحل العزائم.

فألقت عليهما الملكة لمحة عين، ثم أمرت قائد الجيش بحركة الإيماء أن يتناول الدرج ويتلوه علناً، فالتفت القائد وأشار إلى حامل هذا الدرج بالدنو، فدنا وألقى بين يديه الكتاب ونكص، فتلاه ذاك بصوت عال وإذا مكتوب فيه ما نصه:

إلى العظمة الملوكية..

إن تقادير النحس والتعاسة قد حركتنا نحن معشر الأشقياء إلى رفع الأسلحة إزاء وجه عظمتكم الملوكية بحيث لم نكترث بيدكم القوية وساعدكم الرفيع، الأمر الذى جلب علينا من لدن ملوكانيتكم غضباً لا يخفى وسخطاً لا يطفى، فلبستنا اللعنة كالثوب لأنه لم تعلم - لكثرة جهالتنا - أن كل سلطة هي من إله، ولذلك قد منعنا رب الحكمة كل حركة وأبقانا لديكم كعمود لوط، حاملين على عاتقنا رجسة الخراب، مسودي الوجه، مضطربين بين يدي الغضب الآتى.

فإذا كان لم يزل يوجد في قلبكم نحونا ذرة رحمة اقبلوا من عبيدكم إعلان الندم على ما فات، واطلقونا من سجن

الحماقة وأسر الجهالة، ونحن نعدكم وعداً ثابتاً أننا نجرى جميع أوامركم وقوانينكم فى كافة ولايتنا الصغيرة، ولا نعود نضع أدنى خلل فى نظام مملكتكم ذات الاتساع والعمار، عالمين أن سيف السلطان طويل، وأن الذى يعصى السلطان أو الشريعة تكون نهايته الدمار والدثار، وأنه لا يمكن قط لأى ملة كانت أو أمة وجدت قهر الصولجان الملوكى او مجاوزة قوانين السياسة، وأنه واجب على كل إنسان أن يخضع خضوعاً مطلقا لعظمة السلطان، عالما أن الله قد جعله على الأرض أعظم قهرمان، وسلمه مقاليد الشريعة ذات الأمان.

فحينما أتم القارئ تلاوة الدرج طرحه على الأرض. مرتعدا بثوران الحمية وصرخ يا للمكيدة!! فتناوله وزير محبة السلام وتلاه بفم الضمير ثانية، بينما كانت الملكة مشرئبة والبهتة تعلو وجهها صارخة: يا للحيرة. وبعد صمت يسير يكفى لتكرار التلاوة السرية، رفع الوزير عينيه بحياء إلى حضرة الملكة واضعا الدرة إلى جنبه برفق، وأخذ يستميل بلحظاته قلبها إلى إجابة أولئك المسجونين، ويحركها بظرافة تبسماته إلى الشفقة عليهم.

فانعطفت هذه السيدة إلى الجانب الملوكي ورمقته بعينين رطبهما الإشفاق، وقالت له بتبسم يطفح بأنوار الحنوّ:

– دعهم يحضرون إلى المحكمة عسى يفلحون.

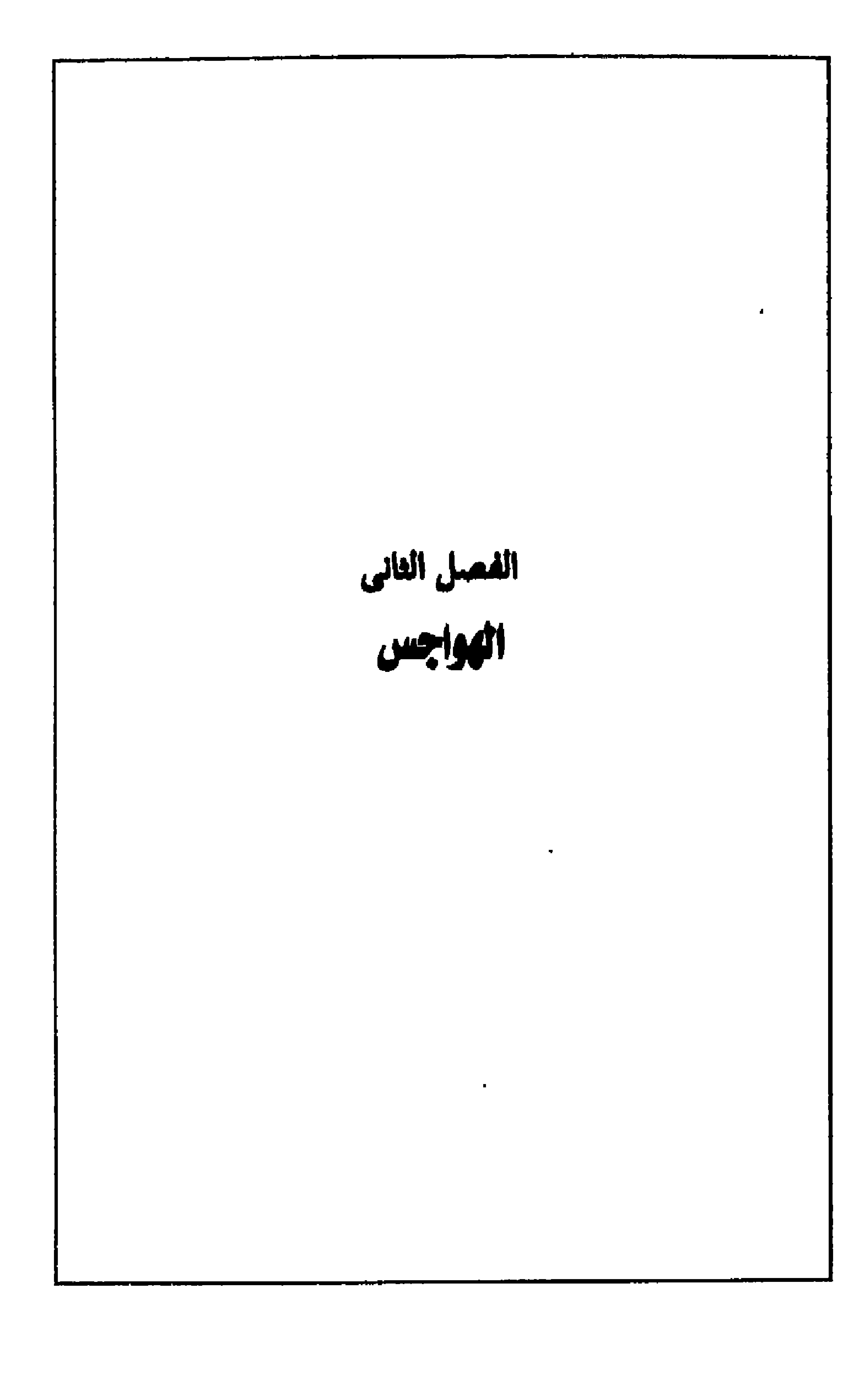
– أخشى وقوع المكيدة.

– أنا أكفل ذلك والحكمة تعرف طريقها.

– ليكن لك حسب قولك.

– فالتفت الملكة إلى الوزير وقالت له: قم فاذهب بذاتك واستحضر المسجونين إلى هنا كى نحاكمهم، فنهض المومى إليه للوقت وجاز مسرعا.

ثم قالت الملكة لقائد الجيش: اكتب رقعة إلى الفيلسوف واستعجله بالحضور إلى هنا. ففعل فقالت له: أرسلها مع هذين العبدين. فدفع لهما الرقعة حالا بعد أن أطلعهما على محلته فى مدينة النور، فذهبا يذرعان الأرض، والقائد راح يتخطى فى ناحية، وأخذ المظهر الملوكى يضرب فى أغوار التفكرات، وما عدت أرى سوى هيبة السكوت العميق ولا أسمع سوى هدير الماء المتدفق.



# الفصل الثانى

# الهواجس

# الهواجس

وبينما كنت أجول فى مسارح الأوهام العقلية وأهيم فى أودية الخيالات الفكرية، وإذ لمحت شبحا عن بعد وهو يخب فى بطن الغاب، غائصا فى غمر الظلال المتكاثف. وما زال يعسف على قدم الإقدام حتى نفذ من تلك الغمرات المدلهمة، وظهر فى مسرح الأحلام ظهور القمر من كبد الغمام.

وما برح يتردد قدوما ويتحذر هجوما حتى رأيته خر لدى العرشين بأسلوب ما به شين. وإذا هو رجل أحرز سمة الوقار وعلى وجهه تلوح حذاقة الأفكار. فهو ذو جبهة تشير برحابتها إلى تمام العلم والعمل، ونظرات أشد نفوذاً من نبال بنى ثُعَل. وكان لباسه جامعا بين المهابة والاحتشام، جمع الحرف بين الصحة والإشمام. ذو قامة لا تغرب عن العامة، ورشاقة تتوقد بها النامة، أما سنه فلم يتجاوز آحاد الخمسين، على ما كان يلوح لى ويستبين.

فلما صادفته لحظات الجالسين على مقام السلطنة. بثته إشارة التحية مظهرة دلائل الابتهاج بقدومه. ثم أومأت إليه

الملكة أن يجلس حذاءها، فتقرب وجلس مستريحا على ركبتيه، فأوعزت إليه براحة الجلوس ففعل.

وبعد فترة من السكوت التفتت إليه هذه السيدة وقالت له:

- هل عرفت كيفية نهاية الحرب؟

- نعم قد بلغنى أن النهاية كانت انتصاراً لكم والله يعطى النصر لمن يشاء.

- ولكن بعد موقعتين يحكيان العُوَيْرض بما تكلفتاه من تعب شاق.

- لا راحة إلا بعد تعب، ولا نعيم إلا بعد شقاء.

- وهل بلغك أن ملك العبودية وأعوانه قد أسروا واطرحوا فى السجن تحت سطوتنا بعد أن أدرنا عليهم رحى المنايا وأمطرنا على هامهم البلايا.

- لا لم يبلغنى أمر الأسر. (أجاب بدون كبير اكتراث).

- نعم هكذا تم الأمر. وقد أنفذوا إلينا عرض حال ينطوى على إقالة التمرد والعصيان والوعد بعدم الرجوع إلى

زرع الخلل فى نظام مملكتنا نادمين على ما اجترموه ضدنا، وراجين منا أن نطلق سجنهم ونفك أسرهم.

- لا شك أنه يجب إجابة استرحامهم (أجاب الفليسوف رافعا كتفيه) ولا ينبغى معاملتهم بالقسوة حذراً من ملامة العموم.

- فقاطعه الملك بعد إصغاء وتفكر قائلا: إن الأمارات التى بها نهجوا سبل التوحش والعبودية فى مملكة التمدن والحرية تستحق النهوض ضدهم بكل قسوة لأنهم أخذوا يسلبون حرية الناس ويزرعون بينهم الخصومات والخرافات. فلو لم تستدركنى هذه السيدة بمشورة حكيمة لكنت أنفذت أمراً بشنق ملكهم وسجن أعوانه وأنصاره مؤبدا.

- هكذا تم الأمر (أجابت الملكة) أما المشورة التى تنازل عظمة الملك بقبولها، فهى أننا نستحضر أولئك الأئمة ونضع لهم قوانين وشرائع جديدة يسلكون بموجبها ونرفقهم بنظار من طرفنا ونمزج عساكرهم بعساكرنا وبذلك نأمن من غوائلهم ونستولى على ولاياتهم بالتدريج بدون إثارة الحروب وشن الغارات فنتخلص من فخاخ دولة العبودية. فأطرق

الفيلسوف ساعة ثم رفع عينيه إلى السماء وأخذ يتأمل قليلاً، ثم أدار رأسهم يمينا ويساراً وأحاط جميع الغابة بنظره وهو يهمهم بكلام مترادف غير مفهوم. ثم أعاد الإطراق ثانية وأسدل على عينيه براقع الجمود صائراً لبواشق الأفكار فريسة.

فشرعت الملكة تتأمل فى هذه الظواهر مندهشة كأنها ترى مشهداً عجيباً.

وأخذ الملك يفاوض العدل والحلم وما كان إلا كلمح البصر حتى انبرى الفيلسوف من هواجسه وقال:

– ولم أفهم معنى الخلاص من دولة العبودية وهل يمكن أن يوجد لأحد خلاص منها؟

– كيف لا يمكن ذلك؟ (أجابت الملكة) وهل يخفى عليك فعل المدافع والبنادق؟

– إننى لا أرى وسيلة يمكن بها الخلاص لأحد من نير العبودية، على أننى أرى جميع ما فى الطبيعة مرتبط بسلسلة الاستعباد بعضها لبعض.

– وكيف ذلك؟ (أجاب الملك) وهلا يوجد حرية فى العالم؟

- لا أيها الملك العظيم.

- أفلا توجد طريقة بها يحصل الإنسان على شبه الحرية لكي ينال لذة الحياة؟

- نعم يوجد.

- أوضح لنا ذلك.

فأطرق الفيلسوف برهة ثم أخذ يتكلم فقال:

- إننا إذا تتبعنا الإنسان منذ ولادته إلى نهاية حياته. إنما نرى حيرته تجرى خاضعة إلى ما لا ينتهى من العبوديات، وهكذا نرى أيضاً جميع المخلوقات، فالطفل المولود عندما يسقط على الأرض يصرخ وينتحب علامة لإشعاره بوقوع سلطان المحيطات به عليه، ولم يزل عبداً طبيعياً لأمه طالما يغتذى من لبنها إلى أن تضع له المرّ على الثدى إثارة لطرده من حلاوة الحياة وإكراهه على الدخول فى مضمار الحياة المستقلة، وحينئذ يميل بوجهه إلى مواجهة عالم الغلبات، فتدفعه شرائع الاستقلال الحيوى فى عبودية الموجودات، وتعصف به زوابع الأقدار فى مفازة الطبيعة،

فيعود مدافعاً ومجاذباً جميع الكائنات أملاً بالخلاص من فواعلها وتأثيراتها الواقعه عليه، فيخضع للحرارة ليستعين بها على الفرار من سلطة البرد، ويميل إلى هذا الأخير ليدفع عنه غلبة سفير الأولى، ثم يبسط يديه لدى مكارم المملكة الأزلية علنا ليسترجع منها ما اقتنصته من بنيته بالانحلال والتنفس خفية، ويبتنى من الجوامد بيوتا لتحميه من حوادث الجو وهجير الشمس، ويستنجد بالمعادن لوقاية أبنيته من غوائل الصواعق المنقضة، ويستخدم أجنحة البخار ليطير بها إلى كل فسحات الأرض. وهكذا لا تبرح طيور أفكاره تحوم على دوحة الطبيعة، وأقدام آماله تعدو فى كل ميادين العالم، حتى تنتصر أخيراً على جميع قواته كل تلك الأكوان وتزجه فى أودية العدم حيثما تحيط به ظلمات الأزل وتكتنفه غمرات السكوت بعد حياة قد تقضت بالتعبد لكافة الحادثات وجرت تحت رق المصائب والأتعاب والأمراض، خاضعة لقوى مقتدر أو ضعيف مستتر حسبما تقتضى الغاية أو الضرورة. فلا حرية إذن للإنسان، وهكذا تجرى عين هذا المجرى سائر الموجودات. أما ترى كيف الحيوان القوى يستعبد الضعيف؟ أما ترى كيف أن كل الحيوانات تسترق لخدمتها جميع

جماهير الوجود النباتى؟ أما ترى كيف القوات الجاذبة تجمع ما بين المتفرقات العنصرية وتخضعها لسلطان الاجتماع والتراكم تحت عبودية الفواعل الكيماوية وأسر قوات التماسك بحيث لو أمكن للعناصر الهيولية أن تأخذ حرية الانفراد لما أمكن قيام النظام الطبيعى أصلاً؟ أما ترى كيف السيارة تدخل فى سلطة الثوابت؟ قم بنا لنطير على أجنحة التصورات، ونرفع ببخار الأفكار إلى سماء الحقيقة، وهناك أريك كيف أن هذه الكرة الأرضية تظهر لنا عن بعد سابحة فى أعماق الفضاء وهى تدور منحنية على نفسها كشيخ أحنت ظهره أثقال السنين، وكيف أن هذا الجرم العظيم منقاد بسلاسل سرية إلى الخضوع لنظام الفلك الشمسى بحيث لا يمكن له الخروج عن حدود دائرته المضبوطة بأقطار من تشعشع جاذبية ذلك المركز الثابت. وكيف أن جميع الأجسام المنتشرة على سطحه خاضعة لحكم تقلب الفصول والأوقات حسبما يقتضى حلوله فى إحدى جهات تلك الدائرة المنطقية. وكيف أن كل تلك الأجسام نراها ثائرة على بعضها البعض لتدفع عبودية التغلبات حيثما تنشئ معامع مهولة، فهناك تسمع ضوضاء حروب الجو تضبح ضد غلبة المؤثرات، وترعد فى آذان

الأرض التى تراها تقذف السماء بلهيب غضبها، وعجيج عالم المتحركات يصدع رؤوس الجبال العالية، إذ تشاهد كلا من أنواعه يشن الغارة الشعواء على ضده حتى يهلك الجنس ويباد. فترى أسلحة تتلامع فى الشمس وتقعقع فى الهواء، وجيوشاً تتضارب على صهوات الخيول تاركة سحب غبارها تغشى وجه السماء، وأيادى تتجالد وتتقارع، ومخالب تخلب وتجرح، وأظافر تنشب وتهشم، وحوافر ترفس وتصدع، وأجنحة تخفق وتلطم، وذنأبات وأفواهاً تلذع وتلسع، وكذلك ترى مملكة الحياة النباتية مشتغلة بدفاع غارات الطقوس بوسائط وطرق لا ينجلي غموضها ولا يحصى عددها، وهى تضبح وتئن ليلا ونهاراً مما تفعله عليها لطمات الأرياح الهائجة التى تخطف ورقها وتنثر ثمرها. ونرى أيضا عالم السوائل يقاسى تبديد التبخير تحت إحكام، فيهب إلى العلا وينضم هناك إلى بعضه متنوعاً. ثم يهبط غائراً فى بطون الجوامد حيثما يشرع بمصادمتها فتقذفه إلى حيث يذهب آنا مضطربا خوفاً مما قد قاسى. فكيف لا يمكن والحالة هذه أن يقال لا حرية فى الخليقة ولا خلاص من العبودية؟ ومع ذلك فقد يمكن للإنسان

أن يحصل على شبه الحرية ويتمتع بلذة الحياة على نوع ما، أما حصوله على الحرية فلا يمكن إلا إذا أدرك كون اعتبار سني وجوده – مهما كانت عديدة بالنسبة إلى ما سبقه من العدم وما سيرد عليه – كاعتبار برق طفيف لمع في ليل دامس، وأن جميع مصايب الدنيا وأكدارها تحيط بهذه الفترة الحقيرة من الحياة التي يجب أن يستثني منها أوقات نومه وطفولته وشيخوخته، الأوقات التي تعتبر عدماً، وأن جميع المحيطات به تجتهد بهدم بنيته لتسترد منه ما سرقه من موادها بالاغتصاب، ولا تغفر السرقة إلا بالرد الذي هو حكم المغتصب، فإذا عرف هذا جميعه يعود متحرراً من سلطان الوقائع ومعتوقا من عبودية الزمان، فلا يلبث معرضا للأكدار والأحزان لعدم مبالاته بها، ولا يوجد هائما بالمسرات والملذات لكونه لا يعتبرها بحيث يرى الجميع بخاراً يتصاعد قليلا ثم يضمحل، ومن لم يبالِ بالألم لا يشعر بمضضه، ومن لا يعبأ باللذة لا يدرك بهجتها.

إذا كان وقع السيف ليس يمضني
فعندي سواء غمده وغراره

وإن كـــان جمر الخطب ليس يصيبنى
فـــلا خــوف لـى مهمـــا يهب شراره
أنا لا أرى فـى الأرض شيئـــاً يروقنى
لذلك نــــور العمــــر عنـدى نـــــاره
أيطربنى هـــذا الزمـان وكلـــــــــه
عـــــراك علــــى الدنيا يثور غـــباره

أمـا حـصول الإنسـان على لذة الحـياة فـلا يقـوم إلا إذا طرح ثقل العالم عن ظهره وارتضى بما قسم لـه من الله لقيام وجـوده، خـالعـا كل أمـارة تجـعله عـبـداً وأسـيـراً لمن يعلوه أو يتـواطاه. وذلـك كـالحسد والطمـع والكبـرياء والحقـد وهلم جرا، مـوجـهـا أقـدامـه على هذه الأرض حسـبـمـا يـهـديه الصـواب والاختبار، منعزلا عن الناس ما أمكن، واضعاً لأفكاره نامـوساً يحـفظهـا فى قـيود الاستقامـة والرشد، لاجمـا لسانه عن كـثـرة الكلام لـئلا يحـسب تكلمه هذياناً، راكضـاً وراء الحكمـة والعلم، معرضـاً عما يؤول إلى خراب بصره وبصيرته كالتـهافت على اللذات الجسدية والتمرغ بأوحـال التفاهة والفساد، ناظراً فى كل لحظة إلى الموت الذى يتـهدده على ممر الثوانى، عالماً أن كل نفـخـة من نفسه مأخوذه من روحـه، عارفاً أن القوة الضـابطة

لأقدامه على سطح الارض ستكون يوماً سببا لابتلاعه إلى عمقها.

فبهذا جميعه قد يحصل الإنسان على لذة قصوى فى مسير حياته، إذ يشاهد ذاته محلولاً من جميع وثاقات الأكدار والآلام الأدبية والطبيعة، منقطعا عن كل عالم العبوديات اللازمة والمتعدية.

وإذا تحركت به الأميال إلى مخالطة أشباهه فى النوعية، فعليه باختيار من حسن وطاب، واجتناب من قبح وخبث، على أنه بذاك تفسد الفطرة السليمة التى هى أصلية فى الإنسان، وبهذا تصلح وتجود وتسمو إلى أوج الكمال.

وإذا اتفق وجوده فى مركز بعيد عن دائرة المخالطة الحسنة، فعليه بالانفراد إلى ذاته ومخالطة العوالم المحيطة حيثما ينال لذات لا مزيد عليها ويغتني بها عما سواها.

فإن الإنسان المثقف لا يدرك لذة أعظم اعتبار من تلك الملذات التى يدركها عندما ينشر شراع التعقل لسفينة أفكاره ويطلقها فى بحور الموجودات لدى مهب أرياح الحوادث.

هناك نرى غزالة العالم تبرز يومئذ من كناس المشارق الذهبية ناشرة أنوار بهجتها على وجه السماء، حيثما تعود كافة

الخليقة مستبشرة بلقاءها وتخطراتها. فالجبال تنطق بمناطق لجينية وترفع قممها الغاطسة فى غمرات الظلام فاتحة باعاتها لاعتناق طفحات الضوء. والمياه تتموج بلمعان الأشعة المنبعثة من لدن أبى الأنوار كأنها متسربلة بدروع نارية. والأشجار تمرجح رؤوسها لدى بشائر النسيم كذى طرب متوجة بأكليلها العسجدية ذات المنظر البديع، والأزهار تبتسم إزاء وجه الطبيعة نافحة بأطيابها التى تذهب مبشرة سائر الخلائق بثوران حركة الحياة. والأطيار تغرد وتصيح مهللة مكبرة على أدواحها العديدة ومحطاتها المتفرقة وسائر الحيوانات تأخذ بالحركة والانتعاش.

هناك نشاهد هذه الغزالة مائلة على خط الزوال بوجه يقدح شرراً، حتى إذا ما بلغت الطفل وأوشكت على الفراق، صبغت بدموعها الدموية وجنات المغرب وغارت فى كهف الأفق سادلة على المسكونة ستار الظلام، تاركة العالم فى حالة سكوت الموت، منهضة الخمود العميق فى جميع البنية الأزلية، سالبة من جميع المواد المظلمة ما أفاضته عليها من الصور الجلية، حيثما تتبلبل الأرض مع السماء وتضيع الجبال فى الأودية ولا يعود يقال سوى: ما هذا السكوت العظيم.

هناك تحوم عقولنا على كل حادثة طبيعية وظاهرة أدبية، فترتقب طيور السماء متبصرة باجتماعاتها وانفراداتها واختلاف أصواتها وحركاتها، وتتبع مسير وحوش الغاب متأملة بفرائسها المرتعدة وحروبها المتقدة، وتهب مع الرياح الأربع إلى حيث لا يعرف إلى أين ذاهابها ولا من أين إيابها، وتقف حائرة عند نهوض الزوابع وانتشاب الأنواء وتراكض البروق وانقضاض الصواعق وهدير الرعود، حيثما لا يدرك الباحث من الأسباب سوى ما يظن به، ولا يعلم من الحقائق سوى ما يراه ماديا فى بحور الاندهاش والذهول، ملتطما بأمواج الهذايان والبحران، مأخوذاً بخمرة الهواجس والأوهام إلى أن يصبح كريشة تتجاذبها رياح الأحكام المضطربة، ويأخذ بتصوير الغيوم إلى أشكال وصور تتجدد على ممر الدقائق والأوقات خالعة كل هيئة حقيقية.

هناك نهجس بهذه المواد الكونية من أسمى جرم إلى أدنى ذرة باحثين عن أصولها وفروعها وعلاقاتها ونسبة بعضها إلى بعض وغاياتها وأحكامها، ناظرين فى كل جنس من أجناسها حركة حيوية متوزعة على سائر أنواعها تحت ناموس المناسبة، فالبعض يجمد متصلباً، والبعض يسيل مائعاً،

والبعض ينتشر طائراً، وهذا ينمو بلا حياة ولا حركة، وذاك يفتخر بأسلوب نموه وحياته وحركته المطلقة والإرادية.

هناك نتصفح هذه الأشياء وتلك الحوادث فنقول: إن كلا منها له حياة خصوصية تقوم بتدبير وظائفه وحركاته الذاتية، وحياة عمومية تشركه مع بقية الأشياء وتربطه بعللها. ثم لا نرضى، فنقول: إن الكهرباء هى السبب الوحيد لجمع وتحريك كل العناصر بما أنها روح العالم. ثم لا نرضى، فنقول: إن سيال الحرارة هو عنصر جميع الحركات والمتحركات وعليه مدار سببية الحياة والنعيم. ثم لا نرضى، فنقول: إن النور ذاته هو القائم بإحياء وتحريك كل مادة مؤلفة أو منفردة. ثم لا نرضى، فنقول: إن شريعة التثاقل التى تثبت أقدار الأكوان فى مراكزها وأوضاعها وترشد جميع خطواتها إلى سواء السبيل هى ذاتها سبب القيام العام ومبدأ الحركة. ثم لا نرضى، فنقول: إن الفضاء الغير متناهى هو ينبوع البداية والنهاية ومنه أخذت كل الأصول العالمية وإليه سترجع. ثم لا نرضى، فنقول: إنه يوجد رب منزه عن إدراك الأفهام مهتم دائما بتدبير عموم تلك المخلوقات ومنه الحياة كانت وكل شىء به

كان وبغيره لم يكن شيء مما كوّن، وهو محرك الحركات وأصل الكائنات وإليه مصير الأشياء جميعها لا إله إلا هو ولا معبود سواه. فحالا نرضى بهذا المقال ونسحب جميع أفكارنا من مواقع الأوهام والوساوس الغريبة معانقين عروسة الحقائق وبكر كل برية متمتعين بلذة الحياة وحرية المعيشة.

وبينما كان الفيلسوف مواصلا خطابه كان الملك والملكة شاخصين إليه بأعين يخامرها الذكاء والإصغاء مستوعبين معانيه بكل اتضاع ودعة. وغب نهاية مقالته جعلت الملكة تقول له:

– إننا عرفنا عدم إمكان وجود حرية ليس للإنسان فقط بل ولسائر الأنواع أيضاً، وأن جميع الأشياء بما أنها مرتبطة بخدمة بعضها البعض فهي مفيدة أيضاً بعبودية بعضها للبعض، ولكن عندما تكون هذه العبودية غريبة عن الفائدة أو مضرة بمصلحة العموم، فالاجتهاد بإبطالها ضرب من اللزوم وقانون صوابي، وبناءً على ذلك عندما نظرنا دولة الاستعباد تتداخل بين شعوبنا بطرق مختلفة حيثما لا ينجم عن هذا التداخل سوى الإضرار بهم وفساد طبائعهم السليمة، نهضنا

حالا ضدها وسطونا عليها سطوة إسكندر على داريوس وسجناهما كما علمت.

أما حصول الشخص على لذة الحياة معتوقة من كل حكم وصافية من كل مكدر فهو أمر لا يمكنه أصلاً، ولو تطبع على تتبع تلك النواميس التى ذكرتها والتى يصعب تنفيذها بمقدار سهولتها على التصور حسب كل الأعمال الفلسفية. لأن ما يناط بالتطبع لا يقوم بالطبع، وما يوجد هكذا غير لذيذ لمجرد الطبيعة وغريباً عن السهولة، وإذا استطاع الإنسان السلوك كما أشرت فلا يكون ذلك إلا لمن وسمته العناية بسمة الانفراد. وهذا شاذ وليس حكم الشواذ إلا الحفظ وعدم القياس عليهم. وعلى كل حال إن الإنسان إذا كان متعبداً لأحكام دولة التمدن والصلاح يكون داخلا فى حقيقة الحرية التى تطلبها الواجبات الإنسانية أدبياً. على أنه إذا كان التعبد لازما فتلك الحرية ملزومة لأن اعتناق الإنسان واجباته لا يدعى عبودية، ولكن إذا كان الشخص معتوقاً من رق تلك الدولة فهو بالضرورة داخل فى عبودية ما ضدها تبعاً لمقتضى الحال.

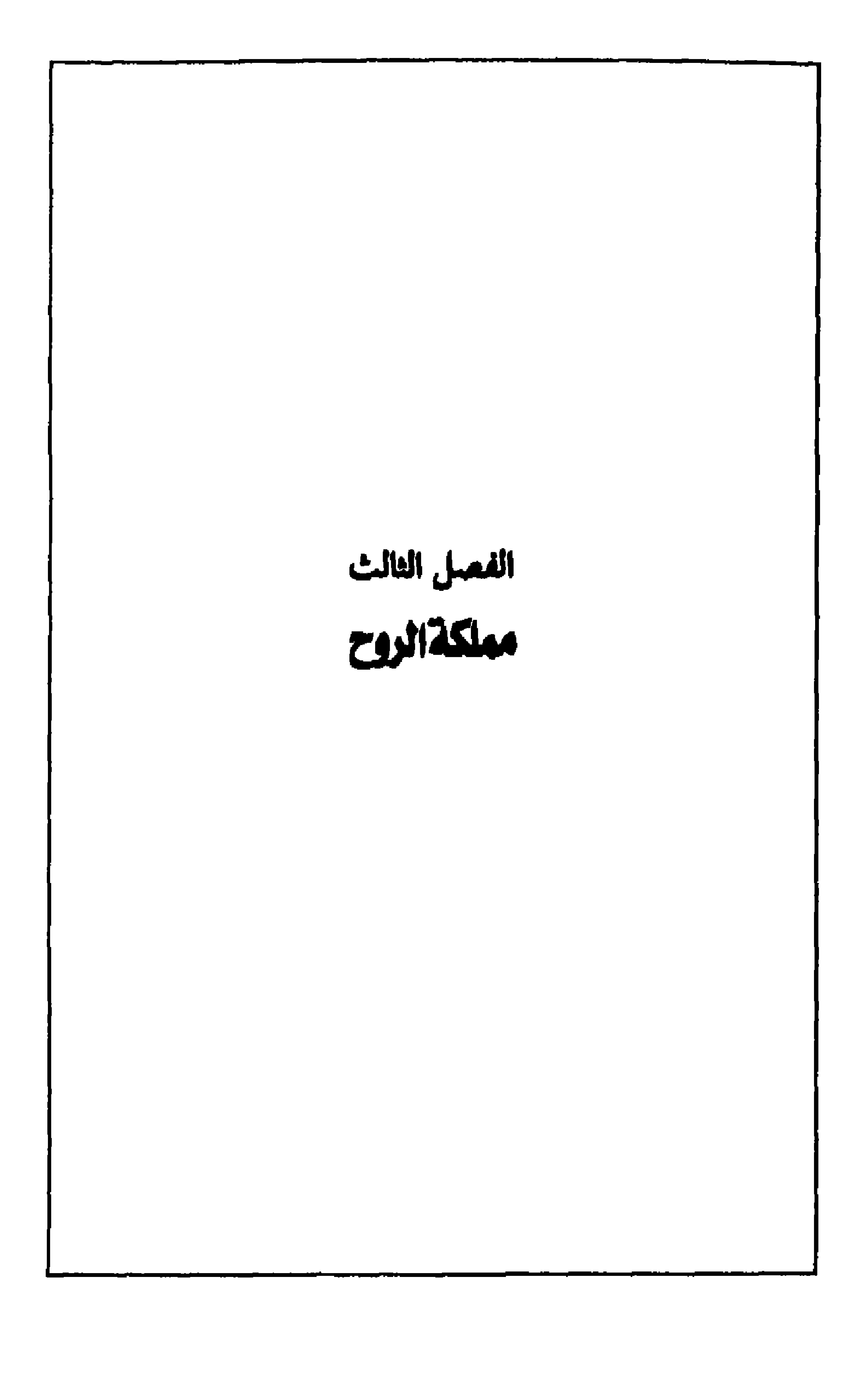
وبما أن الدخول فى أحكام دولة الخشونة والبربرية يفسد أحوال البشر وينثر نظام جمعهم نازعاً عنهم كل الصفات

الحميدة والسلوك السليم، الأمر الذى لا يوجد أضر وأشر منه لمملكة التمدن والصلاح، وجب علينا من ثم دفعا لوقوع البلبال والوبال بين رعايانا أن ننهض ضد تلك الدولة الآبقة التى إذا لم ندثر آثارها لم تقم حرية الإنسان المطلوبة أصلا، تلك الحرية التى لا يمكن إنكارها أدبياً مهما رددت الهواجس والأوهام الفلسفية التى لا وجود لها إلا فى العقل الذى قد يخطر فيه ما لا حقيقة له فى الظاهر.

– فأردف الفيلسوف كلامه قائلا: أنا لم أمنع إمكان الحرية أدبيا بل طبيعيا، ولا شك إذا أطلقنا أنظارنا إلى عالم الآداب وتبصرنا بشرائع الحكمة إنما نرى بكل وضوح قوماً أحراراً وآخرين عبيداً حسبما تقتضى أحوالهم وكيفياتهم. وعلى كل حال إن الاجتهاد فى عتق العبيد وهدم مبانى العبودية هو أمر ضرورى وواجب. فطرح الملك أنظاره على الفيلسوف وقال:

– إذن فمشروعنا محاربة مملكة العبودية وإنقاذ شعوبنا من قيودها لا يستحق الملام.

- كلا، بل هو مستحسن وواجب يا أيها الملك المعظم لأن الاستعباد مكروه عقلا وطبعاً، وقد نهض العالم بأسره ضد هذه العادة المستهجنة وما يحاكيها، فحاربوا من ظلم واعتدى، وأعدوا له السلاسل والأغلال.



# الفصل الثالث

# مملكة الروح

# مملكة الروح

وإذ كان التمدن والحكمة يتناقشان في الفلسفة رأيت جمهوراً آتياً من شاسع الأرض وما زال يتقدم متقربا تحت كراديس الأغصان حتى بزغ من أفق الغاب وانتصب أمام المشهد المهاب. وبينما كان يتراءى لي أن الشمس مالت إلى الطفل وعاد الغروب يطوى ذلك الشراع الذهبي الذي نشرته أيدي الأصيل على الشجر، لم أعد أرى حينئذ سوى أشباح ضئيلة تتحرك في الفسحة، وما عاد يمكن تمييزها لاندفاع تيار الظلام عليها، بحيث جميع الغابة أوشكت أن تنمحي تحت أقدام الظلام وتغور في غمر الظلمات المتراكمة.

وما كان إلا فترة قصيرة حتى رأيت ناراً لمعت عن بعد فجأة، وصارت تتقرب تاركة خلفها مصابيح مضيئة. ولم تزل تتكاثر هذه النبارس ممتدة إلينا من وراء العرشين حتى ملأت ميدان النظر. ولما خرقت الأضواء جلباب الظلام، عدت أرى رجالاً كثيرين عليهم أبهة العسكر بارزين من كمين وهم يعملون على إيقاد ما لا يحصى من تلك القناديل التي كانت

معلقة على الأغصان. وما برحوا يتممون مسعاهم حتى ملأ الغابة جميعها أنواراً، فأخذت الغابة تتموج بالأضواء الساطعة وصارت شعلة واحدة حتى أظهرت مشهداً عجيباً لم أشهد أبهج ولا أسنى منه، فصار يظهر لى كأن الأرض أخذت تقذف السماء ليلا بما طرحت عليها من شهب الرمضاء نهاراً، أو كأن جميع عرائس الغابة جعلت ترشق علينا بروق نظراتها. وعدت حينئذ أخال نفسى كأننى قائم فى وسط فلك يتشعشع بالنجوم والكواكب التى لا عدد لها. وما زلت أتبع بأنظارى هؤلاء الرجال الذين زرعتهم الهمم فى أربعة أقطار الغابة لكى يذيعوا آثارهم ويبثوا أنوارهم اللامعة حتى رأيتهم يرجعون منضمين أجواقا أجواقا ويعسكرون وراء المحفل الملوكى مثنى وثلاث ورباع حينما كان يحثهم الصوت العالى قائلا: أتموا الصفوف فإنى أراكم خلف ظهرى.

وحينما أمعنت النظر فى هذه الصفوف الملوكية رأيت على صدر كل منهم لوحاً مكتوباً فيه: «هذا جندى المدن فليعش منصوراً». وما لبثت أن أخذت بمجامع حواسى جلالة هذا المشهد اللامع بالأنوار، الساطع بالبهجة والأزهار، حيثما كان الملك نازلا فى عرشه نزول الشمس فى الحمل، مغموراً

فى أشعة الهيبة والوقار. والملكة بازغة من سماء مجدها بزوغ الزهرة من أفق الصباح، مكتسية بحلل الكمال وحلى الجمال. والفيلسوف جالساً قبالتها جلوس الدعامة على أساسها، موثوق الأعين بسلاسل الأفكار والهواجس. وقائد جيش التمدن متخطراً فى محله تخطر الأسد فى عرينه. وأجواق الجنود مصطفة حول المسرح كالزرازير على الأشجار. بينما كان الليل ناشراً شراع الهدوء على جميع حركات الطبيعة وضاغطاً بكل ثقله على الهواء كيلا يخترقه صوت آخر سوى تكتكة المصابيح أو تغريد البلابل:

ولما أخذ الصوت قراره طفق الملك يناجى الفيلسوف قائلا:

– إنه يوجد مملكة كبيرة جداً وقوية إلى الغاية يقال لها مملكة الروح، وهى ليست بعيدة عن تخومنا فهل تعرفها؟

– نعم توجد مملكة كهذه أنا أعرفها حق المعرفة، فما سبب سؤال العظمة عنها؟

– لأننى أريد شن الغارة عليها أيضا.

– وما الداعى إلى ذلك؟

- هو سماعى عنها أنها تتصرف كثيراً بما يضاد سياستنا، وأن ملكها الجالس على العرش القديم طالما يجتهد بخراب شرائعنا واضمحلال كل مملكة لا تخضع لنواميسه.

- فهز الفيلسوف رأسه وأجاب قائلا: لا تصغ إلى كل محدث أيها الملك المعظم لأن أكثر خراب العالم ينشأ عن أحاديث ذوى الغرض. وطالما يتكلم الناس بلغة غير مفهومة ولا معقولة، وحقيقة الأمر هى خلاف ما بلغ أذنيك لأن العالم لم يدخل فى دائرة التهذيب ولم تقم مملكتكم هذه إلا منذ قيام تلك المملكة القديمة. وإذا كان البعض من رعاياكم ينسبون إليها بعض أراجيف، فهذا ناجم عن المصلحة الخصوصية التى من شأنها أن تهدم بناء المصالح العامة.

- فرشق الملك محدثه بنظره وقال: إن كثيرين من ذوى الصدق والثقة قد أخبرونى عن جملة أمور خشنة تواظب عليها مملكة الروح، فهى على ما يقولون إنها أولا: لا تفتر عن بث التصورات الباطلة فى عقول الناس لكى تنهض بذلك تصديقات سخيفة تؤسس عليها أقيسة دعواها بالسياسة المطلقة. وعلى هذا الأساس قد شيدت قوس نصرها فى ساحة

العالم ونشرت عليه راية سلطانها. ثانياً: لم يكفها التسلط المطلق على الأنفس والأجساد حتى جعلت تمد سلاسل سطوتها إلى أعماق القلوب لكى تجتذب السرائر والضمائر إلى ميدان أحكامها وعبوديتها. ثالثا: لا يكل أعوانها وأنصارها عن الجولان فى كافة المسكونة لأجل زرع الشقاق والفتن حتى إن أكثر الحروب التى جرت فى الدنيا كانت مسببة عن أفعالهم على ما قيل. فهل يصوغ لنا الصمت عن هذه المملكة إذا كان هذا شأنها؟

وبعد برهة من السكوت وثب الفيلسوف على قدميه وأحنى رأسه أمام الملك. وقال: اسمح لى أيها الملك أن أجاوب عظمتك بالتفصيل عما شرفت به أذنى.

- قل ما تشاء.

- أولا: إن هذه المملكة ما علمت قط ولن تعلم إلا ما يقود الناس إلى نوال السعادة الحقيقية كما يظهر لنا ذلك بتدقيق الاستقصاء والفحص بدون التفات إلى ما يهذر به أهل الغرض الأعمى. وجميع تعاليمها مأخوذة من الكتاب المعصوم الذى لا ينكره إلا أهل الضلال المبين. ولو لم يرتفع

قوس نصرها فى ساحة العالم، وتخفق رايتها على كافة الأقطار، لكان النوع البشرى وقع فى هاوية الفساد وعم الخراب جميعه، ولاسيما فى هذه الأجيال الأخيرة حيثما انتبهت الطباع الخبيثة من غفلات السذاجة لدى ارتفاع نهار التمدن الذى ما عاد يوجد عنده لجم لردّ جماح تلك الطباع سوى ما تعلمه مملكة الروح. فإذا رغبت عظمتكم فى خرابها تكون هذه الرغبة واقعة على نفس مملكتكم أيضاً، فلا تنقسموا على ذواتكم. ثانياً: إنها إذا كانت تمد سلاسل سطوتها إلى أعماق القلوب فلا يكون ذلك إلا لإيقاع التهديد والخوف على السرائر والضمائر الشريرة لا للاستيلاء عليها، فلو لم تكشف هذه المملكة حجاب غفلات البشر عن المستقبل، وتظهر لهم ما يكمن فيه من المخاوف المستعدة لابتلاعهم، فمن كان يمكنه ردع الغنى عن الفقير؟ ومن كان يستطيع رد جماح القوى عن الضعيف؟ ومن كان يحسن تقييد رجل السارق ويد القاتل؟ ومن كان يقدر على قمع ثوران الزانى؟ ومن كان يمكنه قطع لسان شاهد الزور؟ وبالإجمال فمن كان يمسك العالم البشرى عن تمزيق بعضه البعض ويحفظ نظامه من الانتثار؟ ثالثاً: إن الإنسان لانطباعه على السوء ينسب جميع

المعاصى والقبائح لمن ينهى عنها ويوبخ مرتكبيها، وبناء على ذلك قد توهم البعض من الأشرار كون جولان خدام مملكة الروح فى أقطار المسكونة هو لأجل غرس الخصومات والقلاقل بين الناس على أن الأمر بالعكس، أى أنهم يهتمون دائما بنشر الاتفاق والسكينة فى العالم ولو اضطرتهم الحال أحياناً إلى أن لا يلقوا على الأرض سلاماً بل حرباً.

فإذن ليس يجب فقط أن يغض الطرف عن هذه المملكة، بل ينبغى أيضا أن تكون مملكتكم موجهة كل قوتها إلى مساعدة نموها وانتشارها. على أنه إذا كانت دولتكم قائمة بالأبدان فتلك ثابتة بالأرواح. ومن المستحيل قيام البدن بدون الروح ومن الجهالة تغافل ذاك عن هذه.

وإذا خامر أفكاركم الميل إلى محاربتها فلا يخطر لكم إمكان الانتصار عليها، بل يجب أن تعلموا أنكم سترجعون القهقرى ناكصين على أعقاب الندم لأن يد القدرة ممتدة دائما إلى مساعدتها وإغاثتها حتى لا يمكن لنفس أبواب سقر أن تقوى عليها. وطالما اجتهدت الملوك قبلكم فى إسقاطها وإفنائها ولم ينجح لهم اجتهاد، وبمقدار ما كانت الاضطهادات ثائرة عليها كانت هى تزداد قوة وامتداداً إلى أن استغرقت فى

حضنها العالم وأخضعت كل ملوك الأرض تحت موطأى قدميها. وما ذاك إلا لكون العناية العلوية قد سلمتها زمام الأرواح والعقول ورافقتها في كل المسالك، وهكذا فهي ستظل تنمو وتكثر وتشحن الأرض إلى أن تتم المشيئة.

فبعد أن استوفى الملك كلام الفيلسوف ووجده في غاية الصواب أيقن ببطلان فكره وخطأ اعتماده، وعلم أن ما كان يبلغه البعض من أهالي مملكته ضد مملكة الروح هو ناشئ عن روح التغرض والتعرض. وهكذا عزم على تقديم الإعانة والإغاثة إلى مملكة الروح بدل المضاربة والمحاربة. وبعد فترة من الصمت التفت إلى ملكة الحكمة وقال:

– إن جميع كلام الرجل صواب وليس فيه أدنى ارتياب وكل ما كنا نسمعه كان باطلاً لا حقيقة له، وإذا افترضنا محال صحته وأشهرنا الحرب على مملكة الروح فلا نرجع إلا خائبين وربما نقع في خطر اضمحلال كل مملكتنا وسياستنا لأن ما تساعده الروح لا يغلبه الجسد.

– فأجابت الملكة باتضاع: لا شك فيما تكلم به الفيلسوف، ولا ريب أن الاعتماد السابق كان باطلا، لأن السياسة العلوية منتصرة دائما على السلفية، وما يكون هابطاً

من الأعـالى يسطو مطلقـاً على مـا ينهض من الأسافل، ومـا تفعله الصدف لا يغلب مفاعيل القصد.

– لعل سـياستنا ودولتنا وجـدتا على سـبـيل الصـدفـة والاتفاق.

– إذا تتبعنا شجرة امتداد السياسة والتملك فى العالم من حـيث الأصل، إنما نـراها باسـقـة من جـرثومـة المصادفـات والتقادير. قال هذا والتفت إلى الفيلسـوف وقال له ماذا تقول أنت؟

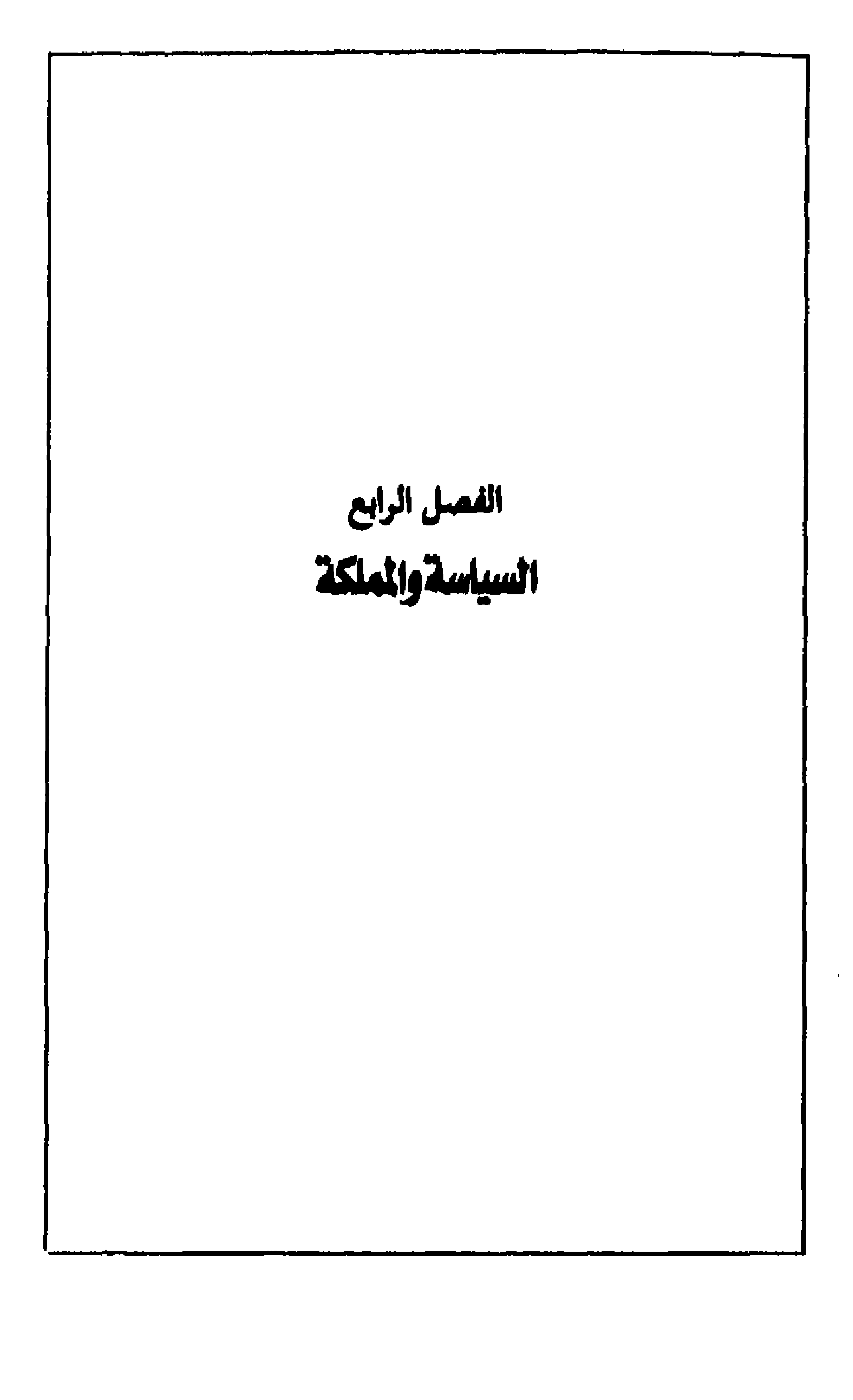
– فأطرق الفـيلسوف قليـلا ثم أجاب. لا شك بما قـالته حضرة الحكمة.

– فصل لنا ذلك.

– إن تفصيل هذا الأمـر يعسر جدا ولا يوجـد نور واضح يستهدى به إلى حيث الحقيقة. فقط يمكننى أن أورد على ذلك ما أتناوله من الاستقراء والاستنتاج التاريخى.

– لا بأس خذ راحة الجلوس وقل ما يـخطر لك.

فـامـتـثل الفـيلسوف للأمر وجلس وبعد إطراق قليل رفع رأسه وجعل يقول:



## الفصل الرابع

# السياسة والمملكة

## السياسة والملكة

- كما أن نظام هذه الكرة الأرضية لا يمكن قيامه بمجرد حركتها اليومية على نفسها فقط بل يحتاج إلى الحركة الشمسية حول فلكها أيضاً، فهكذا الإنسان بما أنه محمول على ظهر تلك الكرة وآخذ جميع مواده ومقوماته من حضنها، فهو تابع في جميع أطواره لأحوالها. فلا يمكنه القيام بمجرد اقتصاره على ذاته فقط وذلك لعدم مقدرته على حفظ نظام حياته الشخصية، بل يحتاز إلى الدوران حول مركز مجموعة أيضاً. وكما أن القوة الجاذبية التي تتبادلها جميع الأجرام السماوية لا تسمح بوقوع خلل في نظام الفلك العامر، هكذا يحتاج ذلك المجموع الإنساني إلى قوة تحفظه من الوقوع في الخلل والتبديد. وإذا أخذنا نفتش عن مثل هذه القوة فلا نراها إلا في السياسة والشريعة. على أنه بذلك يوجد الإنسان محافظاً على التئام شمل جمعيته.

أما ينبوع ظهور السياسة والسيادة والشرائع فهو جار من تغلب الناس على بعضهم البعض منذ القديم، الأمر الذي أنتج التملك والممتلكات على وجه الأرض.

فلا سبيل لمن يرغب في الاطلاع على حقائق الحوادث البشرية وطرائق حدوثها إلا في إطلاق طيور التبصرات

الدقيقة حتى تحوم باسطة أجنحة البحث والاستقصاء على شواجن التاريخ العام، حيثما يشتبك شجر المواقع فى منحدرات الأجيال الغابرة وتهوى غدران الوقائع من شواهق القدمية العالية.

فلا ريب أنه إذا تطلبنا معرفة أصل انتماء وانقياد العالم البشرى إلى بعضه البعض وكيفية انتشار السيادة والشريعة فيه لدعا الأمر إلى التوغل فى أودية التواريخ الفسيحة. وهناك تبرز لدينا عروسة غابة الحق من خباء الأزمنة السالفة مقدمة لنا بين أناملها زهرة المراد. وهكذا نعلم حينئذ أن الإنسان لم يسد فى أول أمره إلا على عائلته وتوابعها فقط، ثم آلت به حركات الظروف إلى أن يسود ويسطو على قبيلة، ثم أفضت به تلك السيادة والسطوة إلى التسلط على شعوب مختلفة وقبائل متنوعة حيثما نودى به «يعيش الملك».

فهلم بنا لنهبط بأقدام الاستقراء فى أعماق القدمية الغامضة حيثما قد ابتدأت تلك الحركات فى الصعود إلى قمة التمام الأقصى، حتى إذا ما بلغنا سدرة التتبع مخترقين فلوات الأدهار المتراكمة نجد أنفسنا منتصبين على عرفات البداية، إذ نشاهد الإنسان القديم يهرع إلينا شاهراً حسام السيادة وهو يقول:

– إنه لما كان النوع البشرى تائها فى البرارى وثقوب الأرض، لا يجد له مقراً فى بطون الأودية التى كانت تهدده بانقضاض قمم الجبال الشامخة عليه، ولا راحة له فى فسحات القفر الذى كان يقذفه بثوران العواصف القاصفة ويلدعه بلهيب الهجير المستعر بين أثافى الجنادل والآكام. ولا مفر أمامه من زوابع الجو التى كانت ترشقه بمعجزاتها إذ ترسل بروقها لدى أعينه فتخطفها دهشة، وتطلق صواعقها فى آذانه فيرتعد جزعاً، وتسكب أنواءها على هامته فيخر ساجداً لديها طالباً رحمةً من إله يستحق العبادة. كانت الأرض وقتئذ غير محروثة ولا مزروعة وعديمة كل ثمرة، ومع ذلك فقد كانت تزهو ببساطها السندسى الذى بسطته عليها يد الطبيعة تحت مضارب السحاب منسوجاً من كل شجر ونبات وسيم.

فبينما كان أحد أفراد هذا النوع العظيم مضجعاً على كثيب مرتفع فى فلاة قفرة الأديم تحت سماء وضيئة الأثير رائقة النسيم محفوفاً بنسائه وبنيه، وإذا بنسمة هبت عليه عند انتصاب عمود الصباح، منطوية على نفحات زهور متنوعة الأطياب حاملة صرخات المواشى التى كانت تسبح رب الفلق. فأرشدت لحظاته الزائغة إلى أفق شاسع يترعرع بجلباب خضل الاخضرار ويترقرق تحت مساحب ذيول الغمام ومساقط

أنداء الفجر. فعندما بدا لديه ذلك المشهد الزاهر وثب على قدميه للحال وصاح بلفيف عائلته المقرون وهو باسط يد الإيماء قائلاً: أما تنظرون إلى ذلك الأفق البعيد الذى يظهر لنا من خلال البزوغ كم هو بهيج المنظر وحسن المظهر؟ قوموا بنا لنذهب إليه ونتجسسه عله يكون صالحاً لإقامتنا فنخلص من هذه الأرض الممحلة وتعب تلك الحياة التائهة ونتمتع برغيد العيش. فما أتم كلامه إلا ورأى أقدام جميع تبعته تهرول أمامه إلى المحل الذى أشار إليه.

ولم يزل هذا المهاجر يطوى أديم الثرى حادياً رحل رفاقه آخذا هدير الحيوانات دليلاً إلى حيث المناخ، حتى انتهى به المسير أخيراً إلى بقعة رحبة الأرجاء، فوقف للحين واستوقف وأطلق نظرات التأمل ليرى جليا ما كان يلحظه عن بعد خفيا، وإذا هو منتصب فى غوط قد كسته العناية بوشاح الجمال العجيب، وكللته الطبيعة بأنواء الفصل الرطيب، فهناك كانت الشمس تسبل أشعة ضحاها على طلعة ذلك الجنان الأزهر فيزدهى بألوان أجنحة الطاووس، هناك كانت الأنداء تتراقص على ثغور الزهر العطر فتمثل تراقص الحبب فى أفواه الكؤوس. هناك كان الجو الصافى يتعطر بأنفاس السحر فتهب نسماته ناشرة على الدنيا أطياب الرياحين. هناك كانت

عرائس الربيع ينثرن من رؤوسهن لآلى النور على حدائق الرياض ويرسلن نظراتهن الصاحية إلى آفاق الأرجاء الغراء. هناك كانت رؤوس أشجار الخمائل تحرق بنيران أنوار المشرق وأقدامها الثابتة تغرق فى مسيل الماء المتدفق، وكانت أغصانها تترنح تحت عقود الزهور لدى خطرات الرياح، وصفحات أوراقها تتلألأ بطفحات النور تلألؤ الأسنة والصفاح. هناك كانت الأطيار تصدح باختلاف الألحان. هناك كانت المواشى تسرح متنوعة الأبدان. فلما شاهد هذا الإنسان سمو تلك البقعة الزاهرة، وكيف أن الطبيعة قد توجتها بكل أكاليل الجمال، وسكبت عليها مياه البهجة والازدهار، التفت إلى جمهور ذريته وقال: هو ذا مدير العالم ومدبره قد أرشدنا إلى مقر الراحة فى مكان خضرة حيث لا بكاء ولا تنهد، فهلموا لنمكث ههنا تحت هذه الأفياء الممتدة بين الزهور والينابيع، ونستريح مما قاسيناه من النصب والوصب فى تلك البرية الجدباء. فأحنى كل منهم رأسه امتثالا وصاروا جميعاً تحت إيعاز إشاراته إلى حيث المحط. فكان حلولهم تحت ظلال دوحة لا تفلحها بها لفحة الرمضاء ولا تخترقها أشعة البيضاء. ولما استروح الكل بريح الارتياح، وطفحت على شفاههم تبسمات الأفراح، جعلوا يتبادلون أحاديث البارحة ويتذكرون

كل غادية ورائحة. أما ربهم فقد كان شاخصاً فى الأفق حيثما كانت تتراقص بنات الصباح ذوات الأكاليل الذهبية أمِام ملكة المشرق الراكبة على عجلة نارية، ومندهشا بما كانت الأنوار ترسمه على وجه الطبيعة ذات الحلل السندسية. وكأن لسان حاله يقول:

هـــو ذا الصـــباح بساطع الأنوار
لالا وفتـــح مغمـــض الأبصـــــار
والشمـــس قـد سطعت ورايتها على
قمـــم الجبـــال أمـــام جيش نهـــار
وعلى عمود الصبح قد شاد الضحى
برج النهـــــــار مســـلحا بالـــــنار
والشـــرق أوتر قـــوس نور وانثنى
يرمـــــى علـــى الدنيـــا سهام شرار
وغـــدا يزج علـــى الرياض أشـعة
كـالنـــار تحـرق أرؤس الأشـــجـار
والفجـــر مـــد على السما بحر السـنا
فهـوت درارى الأفـــق فى التيـــار
والليـل مزق ثوبه حزنـــا عـــلى
فقـــد النجـــوم وغـــار فى الأغـوار

ما زال مـــد النور يدفع فى العـــــلا
جـزر الظـــلام كعـــاصف لغـــــبار
حتى امتــلا جـوف الفضاء من الضـيا
وزهـــت بذلك كـــافة الأقطـــــار
والنهــر أصبح بالســـنا متـــــــموجا
فجـــرى يرد الضـــوء للأنظـــــار
فترنم القمـرى فـــوق غصونــــــــه
طــرياً وفـاحـت نســمة الأسحـــــار

وإذ أفاق من غفلات هواجسه نظر إلى أولاده ونسائه، فرآهم جالسين حوله كغروس الزيتون وهم يتعاطون كؤوس الحديث، فأخذ يخاطبهم قائلاً: ها أن معارض الصدف قد دفعتنا إلى هذا المكان الفاخر، فنلبث به ولا نحد عنه، وعلى ما أرى لا يعوزنا شيء ها هنا مما تحتاجه حياتنا، فها الأشجار تطرح علينا أفياءها وتنثر ثمارها. والينابيع تدفق لنا مياهها، والمواشى تسمح لنا بألبانها ولحومها، وإذا أرعد البرد فرائصنا وغرقتنا الأنواء نصنع من صوف هذه الحيوانات ثيابا تدفئنا ومضارب تقينا. فاشربوا هنيئا وكلوا مريئا فى جنات تجرى من تحتها الأنهار حيث لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون.

فلئن كان التاريخ يعجز عن تمزيق حجاب القدمية القصوى ليكشف لنا تفصيل ما أحدثه الزمان مع تلك العائلة هناك، إلا أنه مع ذلك قد ينهج لنا طريقاً نسير به علىً قدم الاستقراء إلى حيث نقول:

إن هذه العائلة قد اغتنمت لذة العيش فى ذلك المكان الخصب فمكثت به آمنة وصارت تعيش بنتائج الأرض وحواصل الحيوانات المنفردة هناك وتسلك تحت إرشاد الكبير منها خلفاً بعد سلف، ولم تزل مع تقدم الزمان تنمو وتتسع بانضمام آخرين إليها، حتى صارت جمهورا غفيراً يجرى تحت سياسة ذلك الكبير الذى كان يخترع شرائع وقوانين يلتزم باعتناقها كل فرد من هذا الجمهور لدفع وقوع الخلل فى نظام الجمعية. وبناء على ذلك سموه أميرا، ولكون المواشى والأنعام قد كثرت أيضا وتعاظمت هناك لتواصل الداخلة وانقطاع الخارجة كما تطلب طبيعة حيوان الكلأ إذ يوجد الأمان. لم تعد من ثم تلك البقعة كافية لإشباع الجميع بدون توجيه الاعتناء بها، فصارت القطعان تتشتت. ولذلك بادر الناس إلى فلاحة الأرض وتهذيبها بعد أن تعلموا العملية الإنباتية من نفس الطبيعة، لأنهم كانوا يراقبون كيفية هذه

العملية من السنابل أو القيصلات التى كانت تطرح الحبوب أو البزور فى التراب بعد النضج، فتندفن هناك ثم تنهض نامية على شكل الأصل.

ولتسهيل إجراء التقليد للطبيعة فى الفلاحة شرعوا يستخلصون المعادن الصلبة من مدافنها ويعالجونها بالنار الموقودة من حطب الغاب، فيسكبونها آلات ويستخدمونها فى حرث الأرض وتحريك الأثقال آخذين الثيران أعواناً لهم.

وعلى هذا النمط أخذوا يتمتعون هم ومواشيهم بغلات الأرض وأثمارها مضاعفة، وصاروا يدفعون الأعشار لأميرهم أجرة لما كان يعانيه لأجلهم، لأنه كان يحمى برجاله مزارعهم وحقولهم، ويمنع تعدى هذا على أمتعة ذاك مدافعاً عن تخوم أرضهم هجوم المغتصب، ساهراً على جميع أحوالهم السياسية بدون أدنى خلل فى ترتيب الجمهور، حاكما بينهم بالعدل، قاضيا بالإنصاف، ناشراً على الجميع راية شريعة واحدة، غير ملتفت إلى الامتيازات الأدبية ما لم يكن لأربابها نفع للمصلحة العامة، مجتهداً بكل أمانة فى راحة شعبه ورفاهيتهم، عارفاً أن من يأخذ أجرته يطالب بالعمل وإذا لم

يعمل يسقط من عين ذاته بحيث من لا يؤثر أن يعمل فلا يأكل، عالما أن السياسة أو الرئاسة إذا وقعت فى غير محلها تطلب من الشعب إنقاذها، غير مأخوذ بخمرة حب الرئاسة التى إذا ما خامرت العقل منعت بإبخرتها الكثيفة نفوذ أشعة الصواب إليه، متيقظا لكل واجباته، صاحياً فى كل أعماله، ذا سلوك حسن مع الجميع، محباً للغرباء، قادرا على السياسة، لاسكيراً ولا ضرابا ولا طماعا. وبعد مضى فترة من الزمان صار أولئك القوم ينحتون من الجبال حجارة، ويشوون من التراب قرميدا، ويوقدون من خشب الشجر نارا.

ولما رأى أولئك القوم أن هيئتهم الاجتماعية قد انطوت على كل شروط الأمن والسلام وصارت حديقة حياتهم تزهو بأثمار الدعة والسكون تحت سياسة أميرهم واعتنائه، أعلنوا جميعهم وجوب الطاعة والانقياد له وقد ملئت قلوبهم من محبته. وصاروا يسمون أنفسهم عبيده ويحامون عن حقوقه وحقوق بيته بكل مقدرتهم. وهو كان يضاعف اهتمامه فى جميع مصالحهم العامة أو الخاصة غير مفتكر إلا فى دوام راحتهم، ولا ملتفت إلا إلى وقايتهم من كل المزعجات مسميا إياهم شعبه وأولاده.

ولما كان لا يمكن لنظر الرائى أن يدرك جليا كيفية امتداد السياسة على العالم، ولا أن يستوضح حقيقة المسلك الذى نهجته لها الأقدار، لما يعترضه هناك من ظلمات الأحقاب والأعصار، وجب عليه حينئذ أن يستخدم العقل كمصباح لكى يمكن لأعينه بواسطة أشعة الانتقالات الفكرية أن تنفذ فى تلك الظلمات الدامسة، فتفوز بمشاهدة ما وراء ذلك.

فهلم إذن أيها الرائى واتل علينا بقية ما جرى هنالك وأخبرنا عما عثرت عليه من المواقع بعد أن استطلعت العقل نيرا فى أوج الغوامض.

– إننى بعد أن أولجت نظرى طويلا فى بحر زاخر من الظلام الهائل حيثما كانت أمواج التيه والمعاثر تتلاطم تحت مهب عواصف الأيام والليالى، أنفذته أخيرا من هذه اللجج العميقة إلى سهل فسيح الأمد يعانق بباع نهايته أفق البداية، وإذا مسرح عظيم قد انفتح أمامى. وإذ كنت عاجزاً عن استجلاء اللاعبة فيه تماما لشدة توغلهم فى عباب القدمية وضعت على عينى نظارة الإستبقراء وجعلت أتأمل، فرأيت جموعا عديدة من الناس قائمين بمهمات عظيمة ومقيمين

ضوضاء حافلة وهم يصيحون فى بعضهم البعض قائلين: هلموا نبتنى لأميرنا برجا يبلغ رأسه إلى السماء. فكان البعض يقطع من الجبال حجارة، والبعض يصنع طينا، وآخرون يشوون لبنا، وغيرهم يسرد ترابا، وما برحوا بإقامة البنيان حتى انتصب برج عظيم وصارت تخفق عليه راية أمير القبيلة.

وهكذا شرع كل إنسان يبنى له بيتا ولمواشيه مزودا حتى قامت مدينة عظيمة المشاد يضج فى شوارعها أفواج وافرة من العباد، ولما صارت الأسواق تطن بمطارق معامل المعادن، والشوارع ترن بأصوات الصنائع والأشغال اليدوية، والساحات ترتجف تحت أقدام المحافل والجحافل، والمسارح تتموج لدى لطم أمواج الأصوات الاحتفالية الآتية من أفواه آلات الطرب، صار يدوى فى آذان الشعوب المتفرقة صوت ذلك الضجيج المرتفع واللغط الهادر، فكانوا يتقاطرون أجواقا أجواقا، ويخيمون فى ظلال المدينة طالبين من سكانها أن يقبلوهم فى الجوار لكى يتخلصوا من مشاق البادية ويفوزوا براحة الحضر.

وهكذا كانت تلك المدينة تقبلهم بكل إكرام على شرط أن يخضعوا لأحكامها وشرائعها ويؤدوا الأعشار لأميرها، فلم

تلبث أن تعاظمت جداً وتضاعفت مساحة وسكانا، وصارت محاطة بأسوار رفيعة وحصون منيعة، حتى أضحت مركز رهبة يدور عليه احترام القبائل، وموضوع عظمة يحمل عليه حسد البشر.

وبينما كانت هذه المدينة الزاهرة رافلةً بأذيال اليمن والكرامة، مختالة بسربال الهدوء والسلامة، تطفح فى حاناتها كاسات السرور، وتشدو فى حدائقها بلابل الحبور، وإذا عجاج يثور عن بعيد، ونقع غبار يتصاعد إلى الجو، حتى عاد يظن أن زوبعة شديدة قد نهضت من جوف الثرى، وهمتا أن تكحل أعين السماء بأثمد تراب الأرض، وكانت أصوات كهدير هجمات المياه تهب من تلك الجهة، فصليل تمازجه قعقعة اللجم، وصهيل تتخلله نقرات حوافر الخيل، وما كان إلا كتردد الفكر بين شك ويقين حتى أسفر ذلك الغبار عن جيش جرار يتموج على الصهوات ويفرى بطون الفلوات.

فلما نظرت عينا الأمير ذلك العجاج الثائر، وسمعت أذناه تلك الأصوات الضاجة، لم يعد عنده ريب أن عدوا سمع بجلال مدينته، فدفعه لهيب الحسد إلى إشهار الحرب وإيقاع الحصار.

ولما ثبت عنده ذلك الغضب المقبل أخذته ثورة الحمية ودارت فى رأسه حرارة الوطن ونادى فى جميع المدينة معلناً صوت الحرب، حيثما أصبح الأهلون فريسة ترتعد بين مخالب الجزع والهلع لما عاينوا مما لم يعاينوا. فأوعز إليهم أن يجتمعوا فى إحدى الساحات الفسيحة رؤساء ومرؤوسين، رجالا ونساء، كبارا وصغارا، أغنياء وفقراء، بدون أدنى امتياز أو تفريق. لكون الجميع لهم أن يحاموا عن حقوق الوطن ويقتسموا مطاليب محبته سوية، لوجوب حقه على كل من لا ينكر عليه حق التمتع بخيراته. وعندما تم الاجتماع وشملت النخوة كل الجموع وقف ذلك الأمير على مرتفع عال وأنشأ يقول:

هو ذا الغرباء قد أحدقوا بنا فدونكم والطراد. وها الأعداء قد هاجمونا فعليكم بالجلاد. أنتم الأسود وهم الكلاب. فواعجباً لكلب يقتحم الغاب. هلموا إلى النزال هيا إلى القتال. انزلوا بهم الحسام المسنون وانظروا أى منقلب ينقلبون.

ولما فرغ الأمير من مقاله، برز رجل عليه سيماء الذكاء والحماسة ورفع صوته بلسان فصيح وسط الجمع وجعل ينشد:

## نشيد الحرب

هبوا من الغفلات يا أهل الوطن
إن العدو دنا وها نار الفتن
حتى متى يا أسد صبركم ألا
هبوا فقد حام الذئاب على الدمن
هجم العدو وها الغبار وأنتم
من ذا الغبار ستنسجون له كفن
لا تحجل الغربان في سعة الفلا
يوماً إذا نهض العقاب من الوكن
ناداكم الوطن الذي قد ضمكم
في حضنه وسقاكم لبن المنن
كروا إلى الأعداء كر الأسد يا
أسد الوفاء فهم ثعالبة خون
واصغوا لصوت أب لكم يرجو الحمى
منكم وهبوا اطردوا عنه المحن
أو ما ترون الدمع منه لأجلكم
يهمي فقوموا نشفوا دمع الوطن
لا يحسن الموت الزؤام لدى امرء
لكن فدى الأوطان موتكم حسن

فتقلـــدوا عِــدَدَ الســـلاح ويـــــددوا
جيش العـدى وخـذوا أمامكم الزمــــن

فمـا فرغ مـن إنشاد نشـيد الحـرب حتـى صـارت أعين القوم تنثـر شـرر نيـران الحميـة التـى كـانت تتوقـد فـى القلوب. فأخذ جميع الرجال يتراكضون إلى الأسلحة أفواجاً ويندفعون من أبواب الأسوار كـاندفاع الصـواعق من بطـون السـحب وهم يصرخون لا مقبرة إلا وراء السور. وكان الأمير ساعياً أمامهم كأحد الجنود. أمـا النسـاء فكن يحـافظن علـى الأولاد ويجـهزن أدوات الحـرب. وهكذا أخـذت الموقـعة تنتـشب بين الجـيوش، فكانت أصـوات المقـاليع ترن بين الأودية، والحـجارة تتـرامى بين الصـفوف، وعمـد الحـديد تتساقط علـى الرؤوس، ولم تزل الحـرب دائرة حتـى صـارت الصـدور تتلاطم والأيدى تتقاوم، وكـان الغبـار يتصـاعد من الأرض كتصـاعد الدخـان من فم الأتون. وما برحت هذه الملحمة مشتبكة حتى أخذ جيش العدو يتقـهقر إلى الخلف ناكصا على الأعقاب، وصـارت جـيوش المدينة تنـادى خلفه بالغلبة والظفر. ولم تلبث أن شتتت شمل الأعداء ونثرت نظام صفوفهم وأسرت أكثر أجنادهم.

فوقعت خشية الأمير فى قلوب سائر الأخصام، وعمت هيبته على كافة الأصقاع، وازدادت محبته فى نفوس شعبه الخاص، وصار الجميع يقدمون له الخراج ويقولون ليعش الملك ولتدم الملكة.

وهكذا لم تزل هذه المملكة تنمو وتتسع ويمتد سلطانها إلى الأصقاع السحيقة حتى صارت أخيرا واسعة السياسة قائمة الشرائع والروابط بحيث لا عاد يستطيع أحد أن يعيش إلا تحت ذلك النظام.

فيظهر لنا مما تقدم أنه على هذا النمط قد كان ظهور السيادة والسياسة فى العالم القديم، وعلى ذلك المنوال كان قيام الممالك. فمن يعلم أن مملكة أشور أو فينيقية لم يكن ظهورها وامتدادها على النسق المذكور، ومن يعلم أن مكدونية التى ابتلعت هاتين الأمتين لم تكن بدايتها هكذا. وأمر واضح هو أن رومية التى خفق نسرها على المسكونة قد كانت فى الأصل أكواخاً.

ولما فرغ الفيلسوف من مقالته هذه نظر إليه الملك نظرة المندهش وقال له:

– ولئن كان خطابك هذا مبنيا على نتائج الوساوس والظنون مفعما من أحلام المخيلة وأوهام الفكر، إلا أنه مع ذلك لا يخلو من رائحة الصواب وسمة الحقيقة، فلا بأس فيه.

وهكذا رمقته ملكة الحكمة بمقلة المرتضى واستصوبت خطابه.

وبعد وقوع السكوت في مسرح المطارحة برهة زهيدة وخلو المجلس من الحديث، أخذ الملك يناجي الملكة بصوت سرى لم أعلم من موضوعه سوى الاهتمام بما جرى البحث فيه.

وإذ رأى الفيلسوف أن بواعث المناقشة صارت تحول دون مناجاة الملكين نهض مخليا لهما المكان وسار قاصدا جهة قائد جيش التمدن الذى كان يتخطر على مسافة غير بعيدة. ولما دنا منه وتلاطمت النظرات تبادلا مصافحة الأكف وسلما على بعضهما البعض، ثم جلسا معا على جزع شجرة عظيمة قد أضجعها الزمان.

ولما مكن الفيلسوف نظره من القائد وجد عينيه متقدتين بلهيب الغضب، ووجهه مرقعا بسحابة الغيظ، وأثوابه

مضمخة الدماء. فأخذ يطيب خاطره بعبارات لطيفة ويبشره باقتطاف ثمرة مشروعه قائلا:

– ما لى أرى دخان الهيجاء يتصاعد إلى الآن من منخريك يا أيها القائد الشجاع. ولماذا يتناثر شرر السخط من عينيك؟ ولِمَ لم تلق عن وجهك لثام الكمد، وأنت الظافر بالعدو والقاهر صفوف المردة والمنادى فى مسرح الكفاح هو ذا أنا الغالب؟ ألعل الغضب لا يرحل بعد حلول الانتقام؟ وهل الانتقام لا يروى لدى فيضان نهر الانتصار؟ وكيف لا يتبسم الانتصار عندما يظفر صاحبه بإكليل الغار؟ رحب صدرك فقد أنزلت بالأعداء نكبات الضيق. شد حقويك بالقوة فقد ضعفت عزائم الأخصام. أنقذ أطوار وجهك من أسر الغيظ فقد سقطت دولة العبودية. كيف يزأر الأسد والفريسة بين يديه؟ كيف يعتكر البحر والرياح قد سكنت أمامه؟ كيف يكمد الصباح والليل يتمزق إزاء وجهه؟ نعم قد بذرت الحروب ولكن حصدت السلامة. نعم قد غرست القتال ولكن جنيت الظفر. نعم قد أمت العبودية ولكن أحييت الحرية. نعم قد قيدت

البربرية ولكن أطلقت التمدن. فاحكم بما شئت واقض ما أنت قاض.

فأجابه القائد مبتسما وكأنه دخل فى خلق جديد:

- إن دوام لوائح الغضب والكآبة على وجهى إلى الآن ليس مسببا عن تلك الحروب والمواقع التى ملكنا بها الغلبة والنصر، والتى تسترعى ظهور لوائح الفرح والابتهاج بل عن سبب مهم جدا.

- وما هذا السبب؟ (سأل الفيلسوف)

- هو اعتماد الحضرة الملوكية على إرجاع العصاة إلى أوطانهم ومملكتهم.

- نعم قد بلغنى ذلك ولكن على شروط كثيرة منها إرفاقهم بجماعة من طرف دولتكم كرقباء على كل أحوالهم وأحكامهم، ومنها إلزامهم اتباع شرائع التمدن وقوانينه.

- إن أولئك القوم هم محتالون منافقون وليس لهم ذمم ولا عهود تربطهم، يقولون ما لا يفعلون، وفى كل واد

يهيمون، أما تعلم أنه لا يوجد لأهل الخشونة والبربرية ميثاق سوى الكذب، ولا شريعة غير الاحتيال والمكر، ولا حكم عدا التعدى والظلم، ولا حاكم خلاف الرشوة، ومن أصعب الأمور إخضاعهم بدون تبديد شملهم وإهلاكهم عن آخرهم.

– نعم كل ذلك هو أكيد ولا ريب فيه، ولكن متى شاعت بينهم شرائع التمدن وطفقوا يتعلمونها من نعومة أظفارهم، وقام عليهم رقباء يسهرون عليهم من طرفكم، لا يظلون على تلك الخصال التى ذكرتها ويصيرون بعد قليل من الزمان طبق المراد.

– ربما يتم ذلك ولكن بعد ألف عام.

– ولماذا كل هذه المدة؟

– لأنهم شعب منقسم على نفسه من كل قبيلة وملة تحت السماء، فكل حزب منهم يبغض الآخر ويجتهد بخرابه ودثاره، بناء على أن المحبة لا تقوم فى اختلاف الأجناس، ومتى بطلت المحبة زال التمدن لأنها الأساس الأول له. ومتى زال التمدن تمزقت أحشاء الوطن وخفقت عليه أعلام

العبودية. فلا يمكن رفع كل هذه الصعوبات ما لم يمر زمان طويل جدا.

– إنه وإن كانت كل هذه المبادئ صحيحة فربما لا يمتنع نهوض التمدن فى وسطها لأن قوة انتشاره تغلب كل تلك الصعوبات، كما جرى ذلك فى أمم كثيرة مختلفة الأصل والفصل.

– أظن أنه دون قوة المعجزات لا يقوم انتشار التمدن ما بين هذه القبائل، وإذا كان جرى ذلك ما بين أقوام مختلفين أصلا وفصلا، فهم قد كانوا متفقين ميلا ورأيا.

– لا حاجة هنا إلى المعجزات والآيات.

– إذن بأى قوة ينتشر التمدن؟

– بقوة دعائمه المرتكزة على قلب الإنسان طبعا قبل انحرافه إلى الفساد.

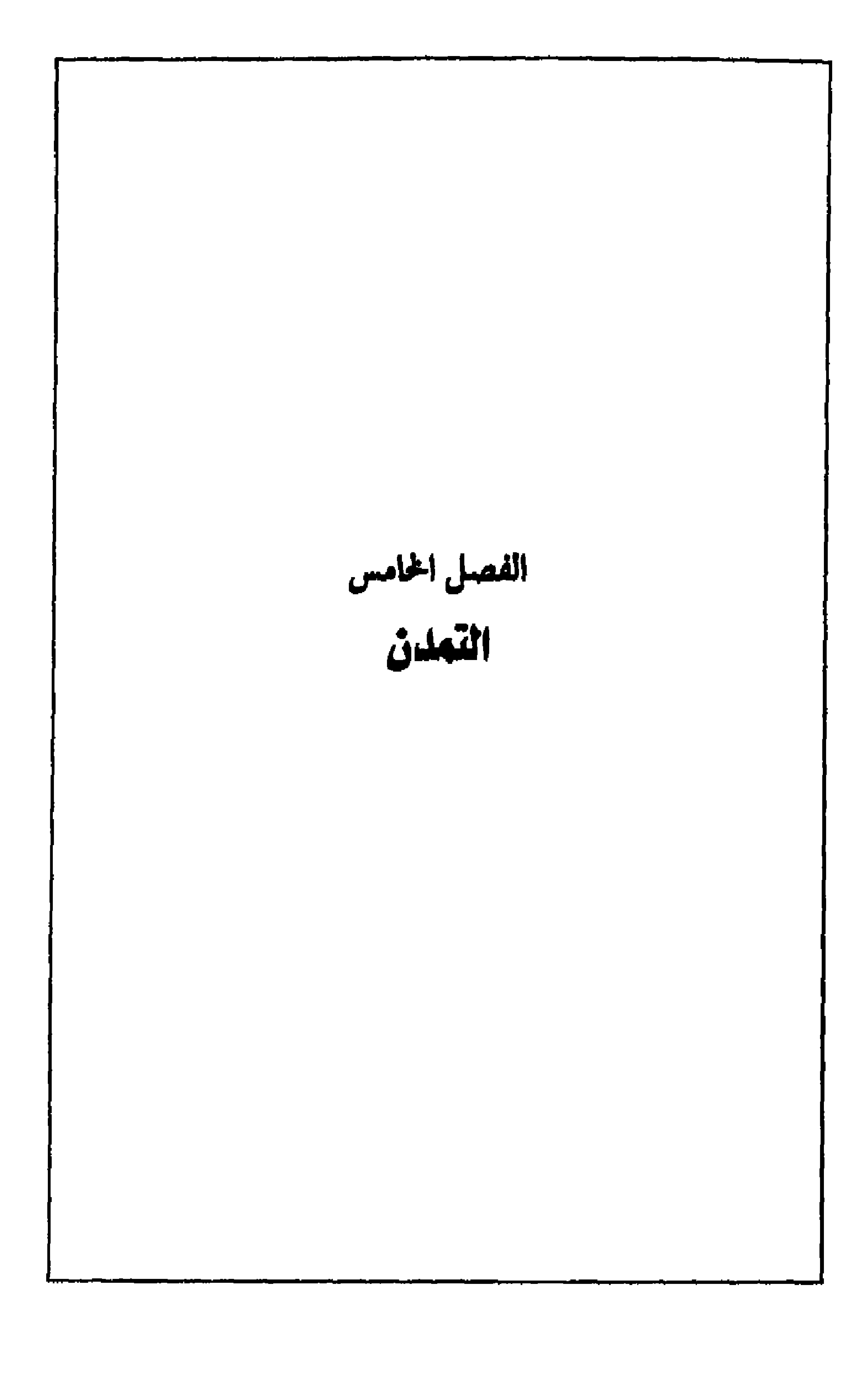
– كم دعامة توجد للتمدن؟

– خمس دعائم.

– هل يمكنك ذكـرها لأننـى أفـتكر أنه يوجـد أكـثـر من ذلك؟

– نعم توجـد دعـائم أخـرى للتـمدن ولكنها تـدخل طى الخمس التى أشرت إليها.

– فاشرح إذن لى ذلك:



# الفصل الخامس

# التمدن

# التمدن

قال الفيلسوف: إن التمدن فى اللغة هو التخلق بأخلاق أهل المدن والانتقال من حالة الخشونة والبربرية والجهل إلى حالة الظرف والأنس والمعرفة، وفى اصطلاح علماء الاجتماع ناموس يرشد الإنسان إلى تجويد أحواله الطبيعية والأدبية. وهذا الناموس يبنى على خمس دعائم وهى: أولا تهذيب السياسة، ثانياً تثقيف العقل، ثالثاً تحسين العادات والأخلاق، رابعاً إصلاح المدينة، خامساً المحبة.

## الدعامة الأولى
## تهذيب السياسة

إنه لما كان مدار نظام العالم الإنسانى لا يمكن صونه من كل خلل إلا بحسن سياسته، بات من الضرورى الاهتمام والالتفات إلى تهذيب هذه السياسة وتحسينها لكونها محورا يدور عليه عالم كبير يستحق كل الالتفات إلى نظامه.

ولا يوجد لهذا التهذيب أساس آخر سوى توطيد الحق وتمهيد أسباب الراحة للهيأة الاجتماعية لأنهما المركزان

الأولان اللذان يتوقف عليهما مدار السياسة العامة. ومتى طرأ على الأساس خلل ما، لحق ذلك بكل ما بنى عليه.

ولا يمكن بقاء ذلك الأساس وطيدا إلا تحت جملة الأحوال وهى: حالة الشخص الذى يتعاطى السياسة؛ فهو يجب أن يكون رجلا من أصل كريم وموسر، لأنه متى كان هكذا يكون بطبيعته ذا تربية حسنة وصالحة فيكون ذا صفات حميدة وأخلاق رضية حسبما يستلزم حسن التربية ويقتضى صلاح الأحكام. ثم يجب أن يكون مروضا بالعلوم الرياضية والأدبية، ومثقفا بمعرفة الشرائع والقوانين، لأنه إذا كان يجهل هذه الأمور لا يكون قادرا على تتميم خدمته، ويعود حينئذ مضطرا إلى الاسترشاد بالأجانب أو تحكيمهم، وهم ربما يضلونه أو يخونونه لأغراض ذاتية لهم، فتصير كل أحكامه فاسدة ويقع فى مهاوى اشمئزاز الجمهور. ثم ينبغى أن يكون فطنا نبيها لأنه إذا كان خاملا لا تجد دقائق السياسة محلا فى عقله، فيضيع الحق وتضطرب الأحكام، فيصبح المحقوق غالباً والمحق مغلوبا. ثم يقتضى أن يكون عادلا لأن العدل يثبت الحكم ويوطده ويجعل الحاكم محبوباً من جميع الناس، ممدوحا من الأخيار، مهابا ومخافا من الأشرار الذين لا لجام لجماح شرهم سوى هيبة الحاكم. وخلاف ذلك الظلم لكونه

يهدم بناء السياسة ويعارض اتجاهات الحق ويلقى المقت والكراهية فى قلوب الشعب وينهج سبيلا رحبا لهجوم العصاة وتمزيق الهيئة. ثم يجب أن يكون قنوعا لأن الطمع نتيجة التولع بالمال، وحيثما وجد الولع بالأموال فهناك يوجد التعرض والارتشاء، الصفتان اللتان متى باشرتا قلب الحاكم أزاغتاه عن الحق وسدلتا بينه وبين المصلحة العامة حجابا كثيفا. ثم يجب أن يكون ذا أناة لأن الأناة هى الآلة الوحيدة لاستقصاء الحقائق من صدور المتداعين حتى تصح الأحكام، أما العجلة فعليها يسافر الصواب. ثم ينبغى ألا يكون سكيرا، على أنه لا يوجد أعظم طارد للرشد والنباهة من مداناة الدن ومخامرة الخمر، فمتى ذهب رشد الحاكم فسدت الحكومة وبطل الحق. ومن الواجب أن يكون شجاعا لأن الشجاعة درع للرؤساء ودرع للمرؤوسين، ولا عار أعظم من جبانة الرئيس، لأنها تبقيه عاجزا عن اقتحام صعوبات الرئاسة، وتجعله كريشة ترتجف لدى هبوب كل ريح. ومن الضرورة أن يكون غير ممازح، لأنه متى لازم المزاح سخرت منه الناس واستهجنته وربما استقلت بعقله فلا يعود أحد يعتبر أحكامه مهما كان حازما.

ولا شك أن وجود صفات كهذه فى الشخص الذى يتناول زمام الحكومة قد تستلزم وجود نتائجها ما بين أتباعه وحواشيه، الأمر الذى له دخل كبير فى واجبات السياسة. أما العكس فبالعكس، وذلك كالمركز الذى تتوقف استقامة أقطاره على استقامة وضعه، فبمقدار كونه مستقيما تستقيم، وبمقدار كونه منحرفا تنحرف.

ثانيا حالة الاستواء: إن أعظم المقومات لصحة السياسة وإقامة الحق هو أن يكون مجرى شرائعها متساويا على كل أبنائها بدون أدنى امتياز بين الأشخاص أو تفريق بين الأحوال. فلا يجب الأخذ بيد الكبير ودفع الصغير، ولا الالتفات إلى الغنى والإعراض عن الفقير، ولا مؤازرة القوى ومواراة الضعيف، بل يجب معاملة الجميع على حد سواء كيلا يقع خلل فى نظام الحق، لأن كل فئة من الناس لها منزلة فى طريق السياسة تستدعى النظر إليها. فكما أن العظماء والأغنياء هم القوة الواصلة، كذلك الصغار والفقراء هم الآلة الموصلة. فلولا يد الصغير لم يطل ساعد الكبير. ولولا تعب ذوى الفاقة لم تتسهل متاجر أرباب الغنى، ولم تحرس أموالهم، ولم تقم قصورهم العالية وسرادقهم المشيدة. ألعل ذلك الغنى عندما

يأتـى من مـواطن مـلاهيـه ومـسـارحـه إلى مـسكنه الوسـيع ويضـجع على فـراشـه المصنوع من ريش النعـام وينظر إلى رقوش حجرته ونقوشها، لا يفكر فى ذاك المسكين الذى بعد أن يكد ويكدح طول النهار مقاسيا حر صيفه ومتكبداً برد شتائه لأجل تشييد ذاك المسكن وتنميق تلك الحجـرة، فيذهب إلى كوخه الحقير ويأكل خبزته اليابسة مع أولاده العراة الجائعين ثم يضجع على فراشه الخشن تحت لحاف الإعياء والوصب. فهل كل هذا التباين لا يكفيه حتى يرغب فى إيقاعه أيضا فى موقف الحق الذى يستوى عنده الجميع. وهل يسوغ لأرباب السياسة أن يقبلوا وقوع هذا التباين ويجحفوا بذلك المسكين الذى بدونه لا تصل قوتهم إلى مواقعها. أفلا يخافون من وثوب التسعة والتسعين وفرط عقد الجمعية؟

ولماذا يوجد حق لأصوات الأغنياء إذ ترن فى قاعات السياسة ولا يوجد هذا الحق لأصوات بقية الشعب اللذين هم الجانب الأكبر والأهم، والذين بواسطتهم تقوم سطوة الممالك وقوات الملوك وعليهم يتوقف مدار السياسات؟ فلا شك أن لسان السياسة نفسه ينادى بوجوب حالة الاستواء ويصرخ ضد المستبدين.

ثالثا حـالة المطابقـة: إن منزلة السياسـة من الهيئـة الاجتماعية هى كمنزلة الدم من الجسد. فكما أن هذا السائل يقوم بتغذية الجسد وبدونه لا تثبت الحياة، هكذا السياسة تقوم بإعالة تلك الهيئة وبدونها لا يثبت النظام. وكما أن الدم يجب أن يكون مطابقاً بمقداره ونسب أجزائه لما يحتاجه الجهاز العضوى، بحيث إذا لم تحصل هذه المطابقة - إن يكن من قبيل الزيادة أو النقصان - لا تلبث الأعضاء على صحتها، وتقع فى حالة الاضطراب فى وظائفها. هكذا ينبغى أن تكون السياسة مطابقة بقوانينها وشرائعها لما يقتضيه واقع الحال بدون زيادة ولا نقصان. ومتى عدمت تلك المطابقة زاغت الهيئة غن واجباتها واضطرب كل نظامها. وكما أن السائل الدموى يستلزم التنقيص عند زيادته استدراكا لوقوع الأمراض الالتهابية، والإزادة عند نقصانه دفعا لنهوض العاهات الافتقارية، هكذا يجب أن تعامل الأحكام السياسية فى محكوماتها حذرا من وقوع البلبال. فلا ينبغى أن يستعمل الحاكم الصرامة والقساوة والجور والانتقام مكان الرفق والشفقة والحلم والإغضاء. وبالعكس، يجب توقيع كل من الحالين فى

محله بحيث إذا زاد أو نقص يجب تعديله بحكمة حذرا من إخلاله بالواجب السياسى.

ولما كانت حوادث الهيئة الاجتماعية تختلف جرما وموقعا، كان لكل منها شأن يستوجب حكما يلائمه ويطابقه، ولكل حكم قوانين تناسبه وتشاكله. وهكذا فتكون الأحكام وقوانينها مختلفة باختلاف الحوادث الجارية فمتى استعمل الواحد محل الآخر نشأ خلل عظيم فى نظام السياسة يستدعى خلل الهيئة جميعها. فلا يصوغ تنزيل واجبات الكبائر منزلة واجبات الصغائر، ولا يجوز إيقاع الحوادث العظيمة فى موقع الحوادث الحقيرة بل يجب إعطاء كل حكمه ليستوفى كل حقه.

وبما أن الأحكام والقوانين تعتبر كأجزاء تؤلف جسم الشريعة فى عالم السياسة، وجب أن يكون كل من هذه الأجزاء ثابتا على نقطة وضعه. وبناء على ذلك نرى أنه متى زاغ أحدها عن الوضع المعين له يقع حالا فى حركة الاضطراب، ويستفز البقية إلى مشاركته فى تلك الحركة، ولا يرجع إلى سكونه ويسترجع حالته ما لم ينقطع تأثير الفاعل عنه، بحيث إذا دام متواصلا ينهدم بناء ذلك الجسم ويتشتت شمل أجزائه حسبما يتم فى الأجسام الخزفية.

ثم لا يستعمل الحرب مكان السلام ولا السلام مكان الحرب، لأن أحدهما يبدد والآخر يجمع. ومتى نزل أحدهما منزلة الآخر تزعزعت أساسات الهيئة الاجتماعية.

رابعا حالة المصلحة العامة: إن أهم دواعى السياسة وأعظم بواعثها هو النظر الدائم إلى المصلحة العامة وتواصل السهر عليها، بحيث مهما أتقنت السياسة نظامها وأحكمته ولم تلتفت إلى هذه المصلحة أو تغافلت عنها فلا تعتبر إلا كمساعد على نثر عقد الهيئة الاجتماعية الذى لا يمكن دوامه منظوما ما لم تكن الملاحظة السياسية عاصمة له، إذ إن إهمال ما يسبب العمار هو تسبيب لوقوع الخراب والدمار. وهذه الملاحظة تنحصر جميعها فى توقيع ما يؤول نفعه إلى العامة إجمالا وأفرادا ودفع ما يفضى إلى الضرر. وذلك يستريح على خمسة أركان. وهى: تمهيد سبل العلوم، وتسهيل طرائق التجارة، وتقوية وسائط الصنائع والأشغال، ومساعدة الزراعة والفلاحة، وقطع أسباب التعدى.

أما الركن الأول الذى يناط بتمهيد سبل العلوم. فهو يتضمن المساعدة على تشييد المدارس وتسهيل الدخول فيها

أمام كل من يرغب، وترقية الناجحين بالدراسة على قدر الاستحقاق.

وأما الركن الثانى الذى يلاحظ تسهيل طرائق التجارة فهو يتوقف أولا على تقريب أبعاد الأسفار بواسطة إصلاح الطرقات، وثانيا على إزالة مخاوف ومعاثر الطرق وتوطيد دعائم الأمان والسهولة، وثالثا على وضع حدود وأنظمة تجرى على كل أرباب الحرف بحيث لا يستطيع أحد تجاوزها، ورابعا وأخيرا على منع كل الصعوبات التى يمكنها صدم تقدم التجارة وإبطال كل عائق لسيرها.

وأما الركن الثالث الذى يخص تقوية وسائط الصنائع والأشغال فهو يتأسس أولا على إثارة همم ذوى الاختراعات بتعظيم جوائزهم ورفع شأنهم، وتهيئة ما به يمكنهم من اقتطاف ثمرات أتعابهم، وثانيا على توسيع دوائر الأدوات الصناعية وتضييق مساحة التلف والمصاريف، وثالثا على رفع كل ما يوقف الخطوات عن الهجوم إلى معاناة الأشغال العظيمة، وأخيراً على المساعدة فى تكثير المعامل وتسهيل مجراها.

وأمـا الركن الرابع الذى يتـعلق بمسـاعـدة الزراعـة والفلاحـة فـهـو يقوم برفع الجـور عن الفـلاح، وفـتح الطريق للزارع، وتعـجيل خطوات الحصاد، ومنع ظلم العشار وبطش المحتكر، وملاشاة كل مـوانع البدار وتسديد جـميع مطاليب الأرض.

وأما الركن الخامس الذى يشمل رفع أسباب التعدى فهو يستوى على ثلاث قضايا فقط، وهى حماية المتاع وصيانة الاعتبار ووقاية الأرواح.

## الدعامة الثانية

### تثقيف العقل

إنه إذا فحص الجوهر الإنسانى من حيث فطرته الأولى وأصله الطبيـعى إنما يشـاهد لامـعـا بكل الصـفـات السـاذجـة البسيطة حسبما يتبين ذلك من كل إنسان يتربى منفردا عن ازدحامات عالم المخالطة.

ولما كـان عظم لطافة هذا الجوهر وشدة احتيـاجه إلى وقـاية نفسه سـببـا فـعالا لقبـوله التـأثر بكل صـورة تلوح له، والتـخلق بكل سمـة يحافظ بهـا على ذاته، كـان انضـمـامـه فى

سلك الجمعية إذ ذاك موجبا لانطباع صور الحوادث الاجتماعية والوقائع الأدبية على صفحات قلبه، وتطبعه بأخلاق وطباع بها يمكنه أن يعارك ويزاحم أمواج العالم الثرى ويعيش تحت لواء حوادثه.

وهكذا فقد أفضت به أخيرا كثرة تقلبات الأحوال والأجيال إلى أن يفقد كل أطوار تلك الفطرة الأولى ويصير من أشر المخلوقات وأوحشها.

ومن ثم لا يعد الإنسان قادرا على الدخول فى دائرة التمدن الذى يطلب سلامة الطباع إلا إذا كان متزينا بتثقيف العقل الذى يعتبر كآلة عظيمة، بها يمكن لكل من البشر أن يسترجع إلى طبيعته ما أفقدها التوحش.

ولا يتم هذا التثقيف إلا بالتروُّض فى العلوم والفنون ودراسة المعارف الطبيعية والأدبية. على أنه أمر محقق كون العلم يخلق فى الإنسان قلبا نقيا وروحا مستقيمة، ويجعله ظافرا بكل الصفات الصافية، ونافرا عن كل ما يشين الجوهر الإنسانى، ولا يترك له سبيلا إلى التفكر فى الأمور الدنيئة والأميال المنحرفة، الأمر الذى تشتق منه كل أفعال الشر، وعليه تبنى كل دعائم التوحش.

فكيف يفكر الإنسان مثلا فى دناءة السلوك عندما يكون الفلك طائرا به إلى أعالى الأجرام السماوية حيثما يرى ألوف ألوف وربوات ربوات من النجوم التى هى شموس هائلة الحجم وكل منها جالس على عرش الفضاء ثابت في مركزه وتدور حوله كواكب سيارة مختلفة الأبعاد والأشكال، وجميع ذلك له من السمو والعظمة ما يخبر بعظم أعمال الله تعالى.

وكيف يأخذ بذهنه الهتك بالقريب بينما تكون الطبيعة هاتكة له أسرارها ومبدية لديه غوامضها، فإذا نظر إلى الأرض يراها تدعوه إلى تمييز تراكيب طبقاتها وتعديد مفردات عناصرها ومعرفة نسبة كل من موادها إلى غيره. وإذا تأمل فى الحيوان رآه باسطا أنواعه لدى حكمه وطالبا منه فصل كل صنف عن الآخر. وإذا لاحظ النباتات رآها كأنها تدعوه إلى معاينة عجائب نموها وماهية جوهرها وكيفية تغذيتها وعملية إنتاجها وتأثير خاصياتها، وكأنها تكلفه إحصاء كل من أنواعها وتحديده تكليفا فوق وسعه.

وكيف يرتضى بعمل المنكرات حينما تكون الكيمياء مقدمة له مشكلاتها وطارحة عليه مسائل غوامضها، فما

ينتهي من معرفة صفات عنصر ما وعلم نسبة اتحاده بغيره وكيفية قوامه إلا ويبرز لديه عنصر آخر ويدعوه إلى تفنيده، فيذهب خابطا فى عباب المشكلات حيثما يقابله مولد الحوامض بإيقاده وإنارته، ويطارحه مولد الماء برشاقته ولهيبه، ويناقشه حامل الأنوار بلمعانه وإضاءته، ويدهشه الذهب بثباته وثقله، وتذهله الفضة بوضاءتها ونقاوتها، ويلطمه الحديد بكثافته وصدأه، ويحيره الزئبق بفراره ونفاره.

وكيف يسمح لأمياله أن تسرح فى عالم الشرور والمعاصى حيثما تكون الجغرافية سارحة على ظهر الكرة الأرضية المملوءة من عجائب الخليقة وغرائب الحوادث، فتارة تطير به إلى قمم الجبال العالية فيرى ما بها من الأودية العميقة والسلاسل المستطيلة والينابيع الجارية، فيفكر فيمن سبب المرتفعات ومن أحدث المنخفضات ومن جمع المياه. وأحيانا تمر على السهول الواسعة والبحار الشاسعة والأنهار المتدفقة، فيقف متفكرا فيمن جمد اليابسة وجمع السوائل إلى مكان واحد. وأوقاتا تسوح به فى الأقاليم والأقطار، فيستوقفه اختلاف العرض والطول فى ميدان التأمل بتباين المناخات والأهوية. وطورا تترحل به إلى بلاد لا عدد لها وأماكن لا

تحصى، وجميعها تختلف باختلاف المواقع والوقائع، فيقف متحيرا فيما تحويه الأرض من الأمم والقبائل المختلفة في المذاهب والمشارب والهيئات، ومندهشا لما يراه من أحوال البلدان والسياسات والشرائع، ومتمعنا فيما يعاينه من الصنائع المتنوعة الأشكال والتجارات المتشكلة الأحوال. وهكذا يطوف هذا العلم إلى أقاصى العالم بدون أن يترك له سبيلا للجولان في عالم المآثم وهو جالس على وسادته غير مبارح صديقا ولا مفارق حبيبا.

وكيف لا يبدل الأعمال الرديئة بالصالحة عندما يكشف له التاريخ حجب الأجيال الغابرة ويطلعه على كثيرين من البشر الذين كانت أعمالهم سببا لأحوالهم، إن رديئة فرديئة أو صالحة فصالحة. ويظهر له كم وكم من الناس الذين بواسطة سمو أفعالهم قد بلغوا أسمى المراتب وأعلى المنازل. وكم وكم من الناس الذين بواسطة دناءة أفعالهم قد هبطوا إلى الحضيض. لا بل يظهر له أن كثيرا من الممالك العظيمة القوة والراسخة الأركان قد أفضت بها قبائح السلوك إلى الاضمحلال والملاشاة، وكثيرا من الولايات الصغيرة قد آلت بها قوة الأطوار الحميدة إلى الاتساع والامتداد ورفعتها إلى

سماء المجد والكرامة. وخاصة يظهر له أن أفعال الخشونة والتوحش ما كانت تبدد الممالك وتستأصل الملوك فقط، بل كانت أيضا تشتت العباد وتهدم البلاد مهما كانت حصينة غنية.

أفلا يشعر بحركة غامضة فى أعماق قلبه تدعوه إلى احتقار العظمات الإنسانية والفخفخات الكاذبة الخيالية وتجذبه إلى الاتصاف بالصفات السليمة والتخلق بالأخلاق الحميدة، وذلك حينما تمتطى تأملاته السرية خيول التاريخ وتجرى فى برية سوريا مثلا حينما يشاهد أن عظمة ذلك الإقليم القديم العهد والكريم التربة والأصل قد استحالت بفعل الأجيال الخشنة إلى دمار مهول، بحيث ما عاد يرى سوى خرابات تلقى الكآبة على الأبصار وعدد قليل من الشعوب المفتقرة بدل تلك العظمات السابقة والمجد الزاهر والغنى الوافر. أفلا يطرق إلى الأرض تأسفاً إذ يرى صور مدينة الفينيقيين التى كانت مركز تجارة العالم ومحط رحال الآمال قد صارت نسيا منسيا ولم يبق منها سوى شباك الصيادين. أفلا يرتعد لدى سطوة الحدثان حينما يرى أورشليم مدينة داود ومحل عظمة سليمان قد أصبحت قرية لا يذكر منها سوى المحلات التى لم تحفظها

سوى يد القداسة. أفلا يضطرب مخافة من بوائق الزمان عندما يرى أنطاكية مدينة الله العظمى ذات الأسوار العالية والحصون المنيعة قد أضحت رمة مضجعة فى قبر الوبال. أفلا يرتجف لدى هيبة الأيام إذ يرى مدينة تدمر التى كانت مبنية بالصفاح والعمد قد صارت أطلالا دراسة ورسوما بالية ولا عاد يشاهد فيها سوى عوامد هابطة وعضائد ساقطة وهياكل مهدومة. أفلا يهجس كربا إذ يعاين أن منبج ذات الصيت الرنان قد غدت كالسمك الذى لا صوت له. أفلا يقف محتارا عندما يصعد على رأس جبل سمعان ويرى أن جميع ما كان يحويه من المدن العظيمة والقرى الخصبة والمزارع الناضرة والأديرة العامرة والكنائس الرحبة قد صار خرابا تاما ودمارا لا مزيد عليه، بحيث لم يبق سوى بعض رسوم وأشكال. وأخيرا أفلا تسحقه صواعق الاشمئزاز عندما يتأكد أن جميع هذا الخراب هو نتيجة الجهل والتوحش؟؟؟

فبالإجمال نقول إن العلم هو الفاعل الأعظم لتثقيف العقل، والمروض الأكبر لجماح الطبائع، والسبب الأهم لتشييد التمدن والعمار، إذ إنه يرفع أفكار الإنسان إلى الحقائق السامية فلا تعود دائرة على مستحقرات الأشياء، ويرسم فى مرآة ذهنه

صور الكائنات الدقيقة، فلا يعود هاذيا بخزعبلات الأمور، فتنطفئ من قلبه توقدات الحسد بنظره إلى زوال المحسودات، ويطرد من صدره ضواغط الطمع بإدراكه حقيقة المطموعات، وتتلاشى من روحه بقية الأطوار المنتجة رجسة الخراب كالقساوة التى أغرقت مراكب مصر، والالتطاخ الذى هدم قصور آشور، والتغفل الذى كسف شمس فارس، والطمع الذى كسر صولجان مكدونية، والضغينة التى مزقت أحشاء فلسطين، والكبرياء التى شلت عرش الروم، والخيانة التى قلبت ممالك الرومانيين، والبغض الذى شتت شمل لبنان وزعزع أركان دمشق. ثم تنمو فيه الصفات الداعية إلى جلالة العمار كالشجاعة والنباهة والمحبة والاتضاع والدعة والإحسان والوفاء والأمنية، إذ إنه يعود خبيرا بغوائل تلك الأطوار الطالحة وعليما بنتائج هذه الصفات الصالحة.

فبدون تثقيف العقل إذن لا يتصف الإنسان إلا بصفة البهائم التى لا عقل لها، ولا يمكن أن يدعى متمدنا قط.

## الدعامة الثالثة

## تحسين العوائد والأخلاق

إن النظر إلى عوائد البشر وأخلاقهم يعتبر كأعظم دليل على حالة تمدنهم ومقامه. فكلما كانت هذه العوائد والأخلاق جيدة كان تمدن أربابها جيدا أو عاليا. وكلما كانت قبيحة كان قبيحا ودنيئا.

ولذلك يجب على الشعب الداخل فى دائرة التمدن أن يبذل الاعتناء كثيرا فى تحسن عاداته وأخلاقه كيلا يكون تمدنه من باب الدعوى لا الحقيقة، كما يشاهد ذلك فى كثير من الأمم. ولما كانت العوائد والأخلاق تارة تلاحظ على الخصوص وأخرى على العموم، وجب أن يكون كلامنا عليها خاصا وعاما.

أولاً الخاص: إن المراد هنا هو النظر إلى تحسين العادات والأخلاق الشخصية، أى التى تخص الشخص المفرد. وهى إما أنها طبيعية أو أدبية؛ فالطبيعية تدعى ملكات والأدبية عادات، وجميعها ترجع إلى التطبع لأنه الأصل لجميع هذا الباب، ولذلك يجب أن يكون المدار عليه فنقول:

إن الانسان حينما يولد على الأرض يكون خاليا من جميع العوائد والأخلاق جيدة كانت أو رديئة. ولا يوجد فيه شيء سوى الاستعداد إلى التطبع. فإذا كان استعداده جيدا مال إلى اقتباس الجيد، وإذا كان رديئا مال إلى اقتباس الردئ، فلا يوجد لتحسين العادات والأخلاق والشخصية أهم من إخضاع الاستعداد الإنساني منذ نعومة الأظفار إلى التطبع بالطبائع الحسنة والتخلق بالأخلاق الجيدة. على أنه في هذه المدة من الحياة تكون الطبيعة شديدة الخضوع لقبول التأثيرات والانفعالات، ولذلك فكل عادة وجدت في الحداثة ولم تستدرك، طبعت أثرها على الفطرة وكانت ملكة عند الكبر لا تسمح باستئصالها إلا تحت مشاق التعب الزائد، وهكذا كل خلق. ومتى حصل الانتقال إلى سن البلوغ فصاعدا صار التطبع صعبا جدا على الطبيعة، ولا يعود للملكة سلطان عليها بل تصير خاضعة لغلبة العادة التي ليس لإزالتها صعوبة.

أما كيفية ذلك الإخضاع للاستعداد الإنساني فهي تتم بإمالة الأميال عن التطبعات بالعوائد والأخلاق المنكرة وإلحاقها بالمقبولة. ولا يمكن التسليم بكون الشخص متمدنا

طالما تكون عوائده وأخلاقه غير موافقة لما يقتضيه التمدن من التعود والتخلق.

فلا يتفق التمدن مع ملكة السكر لأن ذاك يطلب تقوية أفعال العقل بتصحيح التصور وإصلاح الحكم وتنشيط الذكر. وهذه تقتضى إضعاف الأفعال العقلية بإيقاع الخمول وإفساد الأحكام وإلقاء الهذيان. ذاك يستلزم حسن الصفات كالأناسة واللطافة وعزة النفس، وهذه تستدعى قبح الأوصاف كالتوحش والكثافة والدناءة. ذاك يطلب الالتفات إلى الأعمال والأشغال والنشاط، وهذه تطلب البطالة والتوانى والكسل. ذاك يستميل العقول إلى المحافظة على الصحة ورفع أسباب الأمراض، وهذه تطرد كل قانون صحى وتفتح سبيلا عظيما لنهوض كل مرض عضال كالحدار والتيبس وسوء الهضم والاستحالات الآلية ونحو ذلك.

ولا يتفق التمدن مع عادة النهم، لأن ذاك يطلب الاقتصار على كفاية الطبيعة طبق إنسانيتها، وهذه تطلب تحميلها فوق طاقتها فتكسيها أخلاق البهيمة. ذاك يطلب الترتيب فى المعيشة حذرا من وثوب الاحتياج، وهذه تقتضى كثرة الانهماك فتكون داعية إلى الحاجة.

ولا يتفق التمدن مع ملكة الفجور، لأن ذاك يستلزم الطهارة والعفة، وهذه تستوجب الدنس والشهوة. ذاك يلتمس الوداعة والتعقل، وهذه تبغي الشراسة والحمق. ذاك يطلب الاستحياء والأدب، وهذه تقتضى الوقاحة والعهارة.

ولا يتفق التمدن مع خلق الكذب، لأن ذاك يطلب الاستقامة والحقانية، وهذا يقتضى الاعوجاج والتزوير. ذاك يستلزم الأمانة والثقة، وهذا يستدعى الخيانة والنكث. ذاك يدعو إلى النصيحة والتحريض، وهذا يستميل إلى الخديعة والغش. ذاك يجعل الإنسان مكرما محبوباً، وهذا يصيره مهانا مبغوضاً. ذاك ينهج لصاحبه طرق السعادة والغنى، وهذا يطوحه فى وهاد النحس والفقر.

ولا يتفق التمدن مع عادة النميمة، لأن ذاك ينادى بقبح الكشف عن الأعمال السرية للبشر، وهذه تصرخ بإعلانها لدى الآفاق. ذاك يسدل ستار الخفاء على كل النقايص والعيوب، وهذه مهتمة بخرق كل ستار. ذاك يفتح صدر الإنسان لدخول الأسرار فيه، وهذه تغلقه وتجعل صاحبها مجتنبا من جميع الناس وممقوتا.

ولا يتفق التمدن مع خلق الغضب، لأن ذاك يطلب الهدؤ والتأني في الأمور، وهذا يطلب الضوضاء والعجلة. ذاك يطلب إرضاء الناس واستمالتهم، وهذا يستلزم إسخاطهم وتنفيرهم. ذاك يقتضي البشاشة والطلاقة، وهذا ينتج الوجوم والقنوط. ذاك يجذب بركات الجماعة إلى وجه صاحبه؛ وهذا يسبب اللعنات.

ولا يتفق التمدن مع الجبن، لأن ذاك يطلب الثبات والصبر على الأهوال والمصائب، وهذه تطلب التقلقل لدى كل حادثة. ذاك يقتضي الإقدام على تشتيت المخاوف والمزعجات، وهذه تقتضي الفرار من كل شيء. ذاك يستوجب استصغار المستكبرات، وهذه تتناول استكبار المستصغرات.

فجميع هذه العادات والأخلاق الشخصية وأشباهها مما لم يذكر لا يمكن اتفاقها مع قوانين التمدن، ولذلك يجب استئصالها من الناس وتربيتهم على أضدادها ولو دعى الأمر إلى صعوبة قصوى. وبهذا يقوم التحسين المطلوب هنا في الكلام الخاص.

ثانياً العام: إن كرور أزمنة الجهالة على بعض البشر وتقلبات الظروف ما بينهم قد أحدثت فيهم كثيرا من العوائد والأخلاق التى تنكر عليهم إذا دخلوا فى نظام التمدن. ولذلك يجب أن يجتهدوا كثيرا فى إزالتها ويعتاضوا عنها ما يناسب روح العصر.

فلا يغتر أولئك المدعون بالتمدن إذا كانت بيوتهم مشحونة بالأثاث العقيم كالفضة والنحاس وأنواع الخزف والأقمشة ولم يوجد فيها كتاب أو صحفية يومية ولا أدنى وسيلة للعلم، وإنما يعتبرون متمدنين إذا كانوا يعلمون أن زينة العقل تفوق زينة المسكن ويتمسكون بأهدابها، كما يعلمون أن هذه نتيجة الأجيال المظلمة التى كانت تنطبق على الفخفخات والعظمات الفارغة، وتلك نتيجة الجيل المتنور الذى لا يقبل ما لا نفع فيه.

ولا يعتد بهؤلاء المتظاهرين بالتمدن إذا كانت رؤوس نسائهم تتشعشع بأنوار الأحجار الكريمة ذات الثمن الوافر والعديمة الثمرة، ولم يكن فى تلك الرؤوس أدنى شعاع للعقل والأدب. بل يعتد بهم إذا رفعوا جميع تلك الظواهر الخيالية

وأثبتوها للنفقة على تعليم نسائهم وتهذيبهن. كما لا يعتبرون أصلا مهما ضيقوا أثوابهم وأطالوا خيزراناتهم وهرولوا مسرعين إذا لم يوسعوا أفكارهم ويمهلوا جماح أميالهم المنحرفة.

ولا اعتبار لأولئك الذن ينفقون المبالغ الوافرة على تجهيز المآدب الفاخرة والولائم الحافلة فى أيام المواسم والأعياد. ولا يدفعون فلسا واحدا لعمل الخير، لكنهم يعتبرون إذا جعلوا ذلك الإنفاق مخصوصا للأعمال الخيرية، وعلموا أن عظمات المآدب والولائم إنما كانت معتبرة فى هياكل الوثنيين عند تقديم الضحايا لآلهتهم يوم الموسم أو العيد.

ولا يعدون مع المتمدنين أولئك الذين يتسابقون مسرعين إلى منازلهم بعضهم البعض فى الأيام المدعوة عندهم بالرسمية خابطين تحت شمس الصيف وغباره وخائضين فى أمطار الشتاء وأوحاله، ولا يوجه أحد منهم خطوة واحدة إلى فعل الخير. وإذا وجد منهم من يقصد ذلك الفعل سد الآخرون طريقه بحجارة الملامة كما يرجمونه بها لو تأخر فى مسابقتهم إلى قضاء تلك الرسوم الباطلة.

ولا يقبل التمدن أولئك الذين تثور فى أعراسهم صياحات زغاريد النساء وصراخات تجوبقات الرجال خاصة حينما تكون أنغام آلات الطرب داعية إلى الهدوء والسكوت، فهم يجمعون بين المتضادات إذ يتركون الآذان مصدوعة ومرتاحة معا، فلا يشتمون رائحة التمدن طالما لا يزالون معتنقين هذه العادة القبيحة.

ولا ينخرط فى سلك المتمدنين كل أولئك الذين إذا دخلت المنية إلى بيت نهضت ضوضاء الولاول وطارت صراخاتها الذريعة إلى قبة السماء بحيث تقشعر الأبدان انفعالا منها ويستولى الكمود والانزعاج على كل سامعيها. ولكن قد يضمون إلى عقد التمدن بشرط أن يبطلوا العادة القبيحة ويعلموا أنها موروثة من أزمنة عرب الجاهلية الذين كانوا يكلفون الطبيعة الإنسانية فى هذا الأمر ما تستعمله بعض الحيوانات. كما يعلمون أن إنسانيتهم بهذا المقدار ساقطة حتى إنها لم ترث من هاتيك القبائل سوى تلك العادة المستقحة وتركت كل ملائحهم الجليلة نظير الكرم والنخوة والحماسة وحماية الجار وإكرام الضيف وهلم جرا.

وهكذا لا يدعى القوم متمدنين إذا ظلوا يجعلون الحزن شريعة ظالمة كثيرة الكلفة حتى إنها لا تسمح قط لمن يدخل تحت لوائها أن يستعمل أقل شيء من لوازم الطبيعة إلا بعد بضع سنين.

فلا يستطيع المحزون أن يخفف عنه حرارة الصيف بلبس الثياب البيضاء ولو أفضى ذلك إلى الإضرار بصحته. ولا يقدر على تنقية جسمه من الأوساخ وتنشيط وظيفة التبخير بذهابه إلى الحمام ولو افترس القمل جلده وأهلكه الاستسقاء. ولا يستطيع الخروج إلى البساتين لأجل استنشاق الهواء النقى ولو تسرطن جميع دمه. ولا يؤذن له بسماع آلات الطرب أو أصوات الغناء ولو أوقعته الأكدار في داء «النورستانيا». ولا يسوغ له أن يصنع في بيته شيئا من المأكولات الطيبة إذا اشتهتها نفسه حذرا من قول الناس عنه أنه قليل حس. ولكنهم قد يحسبون من أرباب التمدن متى علموا أن الحزن شريعة تطلب عكس ما ينسبون إليها، وأنه انفعال كلما حدث في النفس لا يكف عن استنهاض ضده إيقاعا لرد الفعل، وكلما كان وقوع الفعل شديدا وسريعا كان رده شديدا وسريعا.

وهيهات أن يحسبوا متمدنين كل أولئك الذين يشترعون إذلال النساء وتحقيرهن وإهانتهن وضربهن أيضا بناء على أن هذا الجنس ساقط ولا يستحق أدنى اعتبار، بحيث لا يعلمون أن الأمر بالخلاف وأن الجنس النسائى جوهر لطيف للغاية وأهل لكل كرامة ومستحق كل الالتفات إليه، والطبيعة نفسها تدعو إلى إكرامه ومداراته، إذ إنه الجزء الأهم فى الإنسانية والمصاعد العظيم لقيام الجنس البشرى والينبوع الأول لتغذية الحياة ومواساتها فى زمن قصورها.

ولا يحسب متمدنا ذلك الرجل الذى يزعم أن الإفراط فى معاشرة النساء ومخالطتهن من واجبات التمدن غير عالم أن كثرة التهافت على المرأة تجعل الرجل ذليلا لديها، وكلما عز نفسا ارتفع عندها مقاما.

ولا تظهر سماء التمدن على أولئك الذن عندما يتكلمون أو يتخاصمون يفغرون أفواههم ويرفعون أصواتهم إلى درجة تمزيق أوتار حناجرهم حتى يكادوا يشاركون الجمل فى عجعجته والثور فى جعجعته والحمار فى نهيقه، مع أن غاية التمدن هى نزع كل سمة بهيمية عن الإنسان.

ولا تحسن ثياب التمدن على أولئك الذين ينزلون الخرافات منزلة الحقائق، وينذرون بها على الآفاق غير عالمين أنه لا يوجد شيء يدنس تلك الثياب النقية ويلطخها نظير اعتناق الأكاذيب والأباطيل وإشاعتها. فهم تارة ينسبون إلى بعض الحيوانات خاصيات لو أمكن وجودها لكان الإنسان خليقا بها وذلك كنبح الكلب دلالة على حدوث مصيبة، ونعق البوم إشارة إلى وقوع خراب، وهرب الطيور علامة على قدوم وباء. وتارة يتهمون الأفلاك بما تفعله الظروف والأقدار، إذ ينسبون إليها كل الحوادث التى تتم على الأرض عموما وخصوصا، فيعطون الحرب للمريخ، والسعد للمشترى، والنحس لزحل، والذكاء لعطارد، وخفة الروح للزهرة، والصقاعة للقمر، وطبخ المعادن للشمس. هذا عدا أمور لا تعد ولا تحصى ينسبونها إلى كل من هذه الأجرام التى تقسم بذواتها أنها لا تعرفهم، ولم تطرح عليهم قط لا حربا ولا سلاما ولا سعدا ولا نحسا. وكذلك ما ينسبونه إلى العين من التأثيرات، وإلى الأحلام من التفسيرات.

فلا يمكن لأحد أن يحسن عوائده وأخلاقه التمدنية إلا إذا رفع من فكره الاعتقاد بمثل هذا الخرافات عالما أنها واصلة

إليه من خرافات اليونانيين الذين كانت عباداتهم وطقوسهم تسمح لهم بأن يعتقدوا هذه الأضاليل.

وبالإجمال نقول إنه يوجد شوارد شتى مما يقتضيه مقام هذا الكلام العام قد عدلنا عن جمعها حبا فى الاختصار ونختم سياق هذا الحديث قائلين:

إنه لا يمكن للتمدن أن يقبل فى نظامه أى عادة قبيحة أو خلق ردئ، ولا يقدر أحد على الدخول تحت ألويته ما لم يحسن عاداته وأخلاقه.

## الدعامة الرابعة

## صحة المدينة

إن أول شيء يستدل به على تمدن أمة ما أو توحشها هو النظر إلى حالة مدينتها، فكلما كانت المدينة صحيحة كان التمدن صحيحا، وكلما كانت سقيمة كان سقيما. أما كيفية هذه الصحة المدنية فهى تقوم تحت جملة أحوال وأخصها ثلاث.

أولا النظافة: إنه لا مناص للمتمدنين من بذل مزيد الاعتناء والاجتهاد فى تنظيف أسواقهم ومنازلهم تسديدا لطلب الطبيعة نفسها. لأن المراد من ذلك ليس نوال الغاية الأدبية

فقط بل والغاية الطبيعية أيضا، وهى إراحة الطبيعة الحيوية مما يقلق نظامها ويزعج وظائفها. ولا يوجد خطب أشد تأثيرا على هذه الطبيعة من دخول المواد الغريبة عنها إليها لا سيما إذا كانت فاسدة. فكما أن بعض الجواهر المعدنية لغرابة تركيبها تزعزع أركان البناء العضوى للجهاز الحيوانى وتسلب مجموع حياته متى دخلت إليه، هكذا تفعل أيضا الانبعاثات الفاسدة للأقذار والأوخام عندما يحملها الهواء ويدفعها إلى عضو التنفس حيثما يتناولها الدم ويمر بها إلى مواقع التغذية.

فكم تقاسى الطبيعة من الاضطرابات المرضية المميتة، وكم تلتمس الإنقاذ بلسان حال الانزعاج الوظائفى عندما يهاجمها مثل هذه المواد الغريبة. فهى السبب الأعظم لتهييج الحميات الخبيثة كأنواع التيفوس والتيفوئيد، والسبب الأهم أيضا لتمهيد طرق الوافدات الوبائية المهلكة كأنواع الطاعون والهواء الهندى «الكوليره».

وبالإجمال نقول إن الغاية الوحيدة للطبيعة هى قبول ما يناسبها لقيام حياتها ودفع ما يستنزل عليها صاعقة الموت بمغايرته لها حتى ولو كان صادرا عن ذات فعلها. ألا ترى

كيف أنها تجتهد بطرد التراكيب الصديدية التابعة للالتهاب العضوى إلى الخارج بواسطة النفث أو الغائط أو الاستطراق من المركز الانفعالى إلى بعض جهات المحيط البدنى، حتى إذا لم يمكنها تتميم هذه العملية ودخل الصديد الفاسد إلى التيار الدموى ألقى عليها رعدة الاضطراب بإفساد جميع كتلة الدم وأماتها بعد نزاع شديد.

فإذا كانت الطبيعة لا تقبل ما يغرب عنها ولو كان آخذا صدوره من ذات أجزائها لعدم نفعه لها، فكيف تقبل ما يكون غريبا وأجنبيا معا؟ وبما أن الأقذار والأوساخ لها أشد الأفعال السمية كما سبق، فلا يصوغ والحالة هذه تغافل أرباب التمدن عن ملاشتها والاعتناء الوافر بحفظ النظافة العامة للأسواق والشوارع وعلى الخصوص للبيوت والمساكن، فرارا من تلك التأثيرات الرديئة ومراعاة لحق المدينة. وإننا إذا نظرنا إلى العمل البديهى الذى تصنعه الحيوانات بتنظيف ذواتها كان لنا منها أفضل معلم على ضرر القذارة ووجوب النظافة، وأفضل مثال يقتدى به كل عاقل، إذ إن الحيوان لا يفعل إلا ما ترشده الطبيعة إليه طلبا لما يصلح شأنه ودفعا لما يضر به.

ثانيا تمهيد الشوارع والأزقة: إنه مما يستدل به أيضا على الحالة التمدنية لأى قوم ما يلاحظ على تنظيم ما فى بلدهم من الشوارع والأزقة. فمن أهم الواجبات للداخلين فى التمدن إذا إفراغ الهمة فى تحسين هذه الشوارع وتنظيمها وتنظيفها. على أنه لا يسمح لهم التمدن فقط بترك الشوارع والأزقة ضنكة معوجة رديئة التبليط والتخطيط، بل يطلب منهم دائما أن تكون مستقيمة عريضة ممهدة البلاط والخط، وذلك لأن الشارع أو الزقاق إذا كان ضنكا يمنع سهولة تجدد الهواء ويعيق امتداد النور إلى مخادع الناس أو حوانيتهم، فيجعلهم مستعدين للآفات الليمفاوية والدرنية كالسرطان والخنازير والسل والأورام الباردة والحدار واكمداد البشرة ونحو ذلك. وإذا كان معوجا فإنه يعرقل انطلاق خطوات الناس، فتتعسر أرجلهم بعضها ببعض وتتلاطم صدورهم وتتقارع جباههم، وحينئذ يكون السير فى الزقاق عراكا لا انتقالا. وإذا كان وعرا غير ممهد، يصدع أقدام الماشين ويسبب سقطات البهائم تحت أحمالهم الثقيلة، فتتهشم حوافرها وتتكسر أرساغها الأمر الذى ينافى ما تطلبه الشفقة على البهائم التى لا نطق لها لتشكو مصابها وتندب عذابها. هذا ما خلا المؤيدات التى

يجـدها الشـتـاء هناك لأن يصنع بحـيـرات من الأوحـال والأطيان، بحيث يصبح الناس محتاجين لقوارب يخوضون بها ولا يبقى سبيل لسلوك العميان.

ثالثا ترمـيم الأبنيـة: ومما يؤخذ للدلالة على تمدن المدينة أو خشونتها هو ملاحظة أمر أبنيتها، ولذلك يقتضى لقاصدى التمدن وفور الاهتمام فى إصلاح شأن الأبنية والمشيدات. وهذا يتوقف على فحصها كل مدة لمعرفة حالة متانتها وثباتها فرارا من حدوث الأخطار، لأنه متى ترك البناء جسرا لعبور السنين دون ملاحظة أمره، أحدثت فيه طولة الزمان تقلقلا وتوهنا فيعود خطر هبوطه قريباً وخاصة فى أيام الشتاء عندما يصبح عرضة لصدم الرياح وهطول الأمطار، فإن سقوطه إذ ذاك يكون عظيما.

ولما كان تعرض الناس إلى اقتبال هذا الخطر كثيرا وجب على جميعهم تواصل التدقيق فى حالة الأبنية من الداخل والخارج لكى يمنعوا بذلك أخطارا عظيمة تتهددهم على ممر الدقائق، ويدخلوا إلى منازلهم بسلام آمنين.

## الدعامة الخامسة

### المحبة

هو ذا رنين صوت الكون العالى يدوى فى أعماق العالم العقلى ليستفز سكون الأرواح الفكرية هناك إلى الطيران بأجنحة التخيلات السرية على دوح الوجود العام، حيثما يمكنها اختطاف تصورات تدعو القوة الحاكمة إلى أن تحكم بأن الناموس الذى جعلته حكمة العناية ضابطا لمجموع نظام الخليقة هو المحبة نفسها التى يختلف اسمها باختلاف موقعها.

فها هى المحبة قد صعدت على منبر ذلك النظام العظيم وشرعت تنادى بصوت الغوامض قائلة: اسمعى أيتها السماء فأتكلم وانصتى أيتها الأرض، أنا التى قد جمعت شمل الذرات الأولية فكانت أجراما تضئ فى قبة السماء فلماذا دعيت التصاقا؟ أنا التى قد وثقت هذه الأجرام برباط الانضمام فكانت أفلاكا تدور حول بعضها البعض فلماذا سميت تجاذبا؟ أنا التى قد ألفت بين العناصر المختلفة فكانت مملكات تزهو بمجد الارتباط فلماذا لقبت تماسكا؟ أنا التى قد فتحت فى أجناس الحياة مسالك الميل إلى أن نحافظ على أنواعها فلماذا

دعيت تناسلا؟ أنا التى جمعت أشتات البشر إلى هيئة واحدة فكانوا متعاضدين فى حروب الحوادث فلماذا سميت اغتصابا؟ أنا التى قد قفلت مصارع البحر وكسرت كبرياء لجه فلماذا أدعى جزرا ومدا؟ أنا التى حيثما نزلت عمرت، وحيثما رحلت خرّبت، فلماذا لا يكترث بأمرى؟ لما علمت أنى أنا التى لا تغتنى الطبيعة عنى ولو طاردتنى فلتأت الأقدار وتقف فى وجهى، فلماذا ينكرنى البعض؟ أنا التى قد اتخذنى التمدن دعامة قوية له، وبدونى لا يثبت له بناء، فهل يهدمنى إلا كل متوحش؟ ها قد عظمت دعوى المحبة وتفاقمت إلى الغاية، لأنها قد جعلت لنفسها ربط العالم بأسره، وجعلت جميع الأسماء المستعملة فى التعبير عن القوة المؤلفة مترادفة على معناها، حتى كأنها تود أن تشرح بذاتها معنى تلك المحبة الجوهرية التى قد أنشأها البارئ بذاته أزليا وأصدرها كلمة لتدبير الأكوان التى بها كانت وبغيرها لم يكن شىء مما كون.

مهلا مهلا ما عاد يقدر هذا الكلام على إتمام سيره، فقد حاولت الاستطراق إليه أشواط المنتقدين وها غبار أغراضهم بدأ يتصاعد عن بعد وكل منهم فاغرا آتون فاه لقذف دخان التفنيد. فالبعض يعبسون وجوههم ويقولون: هو

ذا يستنتج من هنا ألوهية حركت الموجودات. وآخرون يرفعون أنوفهم ويقولون: ها ها إنما يستفاد من هذا الكلام كون الكلمة ممتزجة ماديا فى عموم الموجودات. وغيرهم يحملقون بأعينهم ويصيحون: هذا تعليم الماديين نفسه. هذا فضلا عمن سيحرك عثنون لحيته ويقول: كيف يسوغ لمن لم يسلم على عتبة مدرسة أن يتكلم فى اللاهوتيات بشيء لم يسعه إدراكه، وعلى أى قاعدة أثبت حكم القوة الفاعلة للقوة المنفعلة وضعضع الروحيات بالماديات؟ ثم يشهد أبناء المدارس سيوف الشتائم مجردة من أغماد شهادات مزورة، ولكن ليأخذ حذره من انتقام الشبل عن الأسد. أما لسان الصواب فيقول لذوى الدقة فى التأمل بصراحة: إن المراد من دعوى المحبة العامة ليس أن تكون هى نفس الذات الآلهية منبثة فى جزئيات الخليقة، بل إنها هى القوة التى جعلها الله لتحريك الخلائق وتدبير الكائنات تحت أشكال مختلفة تدعى الناموس العام أو الناموس الطبيعى، وإذ ذاك يكون المراد هو الإشارة إلى أن الإنسان إذا كان يحب نفسه فهو ملزوم تبعا لهذه المحبة أن يحب شبيهه بالإنسانية تسديدا لحق كماله الطبيعى، وذلك اقتداء بخالقه الذى عندما رأى جوهره ملء الكمال أحب ذاته

بديهيا. وبمحبته هذه خلق العالم محبوبا منه وجعل يدبر هيئة نظامه بما لم تدركه أفكار الطبيعيين، فأعطوا لكل حركة اسما مبهما. فينتج إذن أنه بالمحبة قد قام العالم جميعه. وبالمحبة تتحرك جميع الأشياء. وبالمحبة يثبت كل من المخلوقات على حدته. بالمحبة يحافظ الكل على أجزائه. وهكذا فبدون المحبة بين البشر المطبوعين على صورة الله لا يمكن قيام نظامهم الاجتماعى على واجباته، إذ إن المحبة هى القوة الوحيدة للتأليف بين أفرادهم المتفرقة على وجه الأرض، والضابط الأول لنظام عالم تمدنهم، بخلاف البغض الذى ينزل منزلة القوة الدافعة بين البشر، فيبعدهم عن بعضهم البعض ويشتت شمل هيئتهم ويسلبهم راحة الحياة المحبوبة منهم جدا.

فلا يخطئ من يسمى المحبة آلهة الهيئة الاجتماعية بناء على ما يصدر عنها من المفاعيل الغريبة والتأثيرات العجيبة بين البشر. فلو أقيم لها وثن فى هيكل الذهن، لكان على شكل غادة كلها جميلة وليس فيها عيب إذ تجمع من الصفات ما يتقرر فى هذه الأبيات:

على وجهها نور الصلاح يلوح
ومن ثغرها عطر الفلاح يروح

وبرق الهــــدى مــن لحظها متألــــق
ومبسمهـــا بالطــــيبات يفـــــوح
وفى خدهـــا ورد المســرة ينجلـــى
لنـــا وبــــه قطــر الهنــاء صــــريح
وقدٌ لـــــها يهـــــتز عن طــرب وهــا
على غصنه طـــير السلام صـــــدوح
رعى اللـــــه قلبا فيه قد صاح صوتهــا
وقاتل قلبا فيـــه ليس يصــــــــيح
هـــى الأصــل فى الأكوان فهى مثابـة
لكــل قلــوب العالمــين تريــــــــح
بهـــا تحسن الدنيا بها يفضل الــــورى
بهـــا كل شــىء صالح وملـــــــيح
لدى وجههـــا تجثو القبائل كلــــــها
وكل ســـجود لا يعاب صحــــــيح
بهـــا ســائر الأجيال غنت وقد أتـــــى
لهـــا مــن جميع المنذرين مديــــح
هـــى الكوكب السـيار فى فلك الدنـــى
به الســـعد يغدو والنحــوس تـــــروح

فلا يسمح التمدن بالدخول تحت لوائه لأحد ما لم ينصب فى هيكل قلبه تمثال المحبة مقدما له بخور الأفكار الطيبة والعواطف الحلوة وصارخا بلسان الروح هكذا.

ها هنا يجلس التمدن على عرش الكمال، فتتخزق أمامه بيارق الخشونة ويمزق التوحش ثوبه. هنا تخطب بلابل السكون على منبر شجر السلام، فيصمت صياح القلق ويخفى الاضطراب صوته. هنا تزن صنوج الأفراح وتضرب طبول البشائر، فتخرس صراخات الأكدار ويتلاشى دوى المصائب. هنا يشرق صياح الإغضاء ويتلألأ شعاع التغاضى، فيغور ديجور الضغينة وتنجاب ظلمة الحقد. هنا يتبدد دخان الانتقام وينقشع ضباب الغضب وينتشر أثير الصفح ويسطع ضوء الرضاء. هنا تنفطر صخور القساوة وتدك جبال الجفاء، فيجرى سلسبيل الشفقة وتتمهد سهول الوفاء. هنا يفتر ثغر الابتسام ويضحك محيّا الندى، فيجم جبين الاكتئاب وتدمع عين الشفقة. هنا يفرغ غرس التمنى. هنا يثمر غصن الرجاء. هنا تدور الهيئة على مركز التمام والكمال. وأخيرا هنا ينثل عرش العبودية وترفع الحرية أعلامها.

فإذا كان يوجد للمحبة أثمار طيبة المخبر وشهية المنظر كهذه، كيف لا تحسب إذا دعامة راسخة للتمدن؟ نعم إن التمدن لا يستغنى عن هذه الدعامة أصلا، ولا يمكن أن يشاد بنيانه بدونها، كما لا يمكن وقوف قناطر الهيئة الاجتماعية إلا عليه. وهبك ذلك فلابد من وجود حد للمحبة لا تتجاوزه لئلا تجانس ضدها بعمل الردى. على أنه ولو كانت المحبة تحسب روح الانتظام البشرى وحياته؛ فمع هذا يوجد لإفراطها كثير من النتائج المضرة كمعارضة السلام مثلا لمشروعات الحرب حيثما تكون هذه المشروعات واجبة لإصلاح حالة أدبية. وكالمعاملة الشفقة إذ تكون الصرامة داعية. وكوضع الإغضاء والصفح موضع الانتقام الذى ربما يوجد لازما للتعليم. وكالإسفار عن الرضاء بينما تكون لوائح الغضب مطلوبة للتهديد. هذا عدا ما ينتج عن إفراط المحبة الخصوصية في قلب شخص خصوصى لمحبوب ما، حيثما تلغ درجة العشق، الذى ولو كان أصلا تتفرع عنه جملة غصون صالحة لتمدن صاحبه كتلطيف الروح وتهذيب الطبع وترفيع العقل والذوق وحسن المعاشرة، فمع ذلك إذا بلغ أشده يترك وراءه جملة صفات تنكد عيش المبتلى به وتسلبه كل راحته كقهر الحرية

الذاتيـة مـثـلا، والاضطرار إلى البطالة، وإهانة الدراهم التى يدعوها البعض آلة الحياة، وتسليم النفس إلى تأثر الانفعالات الشتى الشاقة وما يعقبها كالحزن فالفرح، والخوف فالجراءة، والتعب فالراحة. هذا ما خلا التأثيرات الكثيرة التى تفترسه على ممر الأوقات.

فلا يبرح قلبه فى حضرة المعشوق هدفا لنبال العيون وموقدا لجمرات الخدود وموقعا لرمح القوام وقدرا لغليان ماء المحيا. ولا تزال روحه فى الغيبة أتونا لارتفاع لهيب الأشواق والأتواق، ومحلا لتناثر غرر الأفكار والتصورات، وميدانا لمسابقة خيول الأميال والعواطف. فيحيى الليل سهرا وأرقا، ويقضى النهار تعبا وقلقا. إذ يرى ذاته ضاربا فى أودية الوحدة والانفراد، حيثما يشاهد قلبه طائرا على أجنحة شياطين الوساوس والأوهام خائضا فى بحور الآمال والمطامع.

وهكذا يرى العالم بأسره كأنه مسرح للغرام، ويخال الكائنات جميعها تصوز لديه ملعوب الهوى وتتنفس بأمراته وخواطره. فيظن الشمس ممثلة لديه أشعة جمال الحبيب. ويحسب القمر رسم وجهه مطبوعا فى مرآة الفلك. ويخال

الأهلة قلامات من ظفره. ويزعم الكواكب أعينا ترشق نظرات الرقيب. ويفترض الجبال منطوية على معنى أثقال الجوى، أو يظنها أوتادا لتمكين خيمة السماء على عالم الهوى. ويرى السحاب سارقا دموعه، والضباب ممثلا ولوعه. لا بل يرى طوفان نوح كعبرته ونار الخليل كزفرته. ويتخذ الريح رسولا لتبليغ الأشواق. ويرى الماء مقلدا له أنين العشاق. ويعاين الأغصان مترنحة بأعطاف المحبوب والأطيار شاكية لوعة فراقه. والأزهار نافحة بعطر نفثاته. والغزلان تغزل بنظراته وتفك طلاسم لفتاته ونفراته. وهاك هذا القصيد شرحا للعشق العتيد.

ماذا ترى في العشق ماذا تزعم
يا أيها الصب الكئيب المغرم
هل فيه غير المؤلمات فدونه
مقل تسيل وأكبد تتضرم
إني أضعت العمر في سوق الهوى
بخسا ولم أربح سوى ما يؤلم
كم ليلة قضيتها وظبى الجوى
تدمي الحشى فيسيل من عيني الدم

وكـأن صــــوت خفـوق قلبى مزعـــج
صمــت الظــلام فيدلهم ويدهـــــم
أصــبو إلى برق الريـــوع إذا بـــــدا
وأضـــج ما لمعــت لدى الأنجـــــم
أبكى لـــدى خطـــــرات كل تذكـــر
والأفـــــق يعبس والكواكـــب تبســم
والليـــل بحر هاج فى عمق السمـــــا
فغـــدا بـــه زبـــد المجـرة ينجـــم
والشـرق يلقى الشهب فى جوف الدجى
والغـــرب يبتـــلع الجـــميع ويهضـم
وأنا أحـــار كـــأننى صـــب وفـــى
دوح الحشـــا طير الهـــوى يترنـــم
فى كـــل جـارحة تـــدب صــــبابة
وبكـــل عضـــو للغـــرام بدا فـــم
يا أيهــــا الحـب الذى تخـفى لـــــدى
أصـــواته كـــل الحـــواس وتبلـــم
كـــم راح يخبـط فيك يا وادى البكـــا
قلـــب وكـــم سحقـــت بسيلك أعظـــم
ما أنت إلا دولــــة غـزت الـــــورى
ويظلمــها كـــل امـــرء يتظلـــــم

أى السـعادة فى الغـرام لربـــــه
وسـحابة البلـوى عليـه تغـــيم
فحياتــه مسـلوبة ودموعـــــه
مســكوبة وفــؤاده متكلـــم
أيروق رب الحـب نقطــة لـــذة
وعليـــه بحـر المؤلمـات عرمـرم
إنى أرى وقــت النعيم كخـــلّب
يمضـى وأوقــات الشقــاء تخـيم
يا ريـح مـن للجب عرض نفســه
جهــلا فسـوف يـذوب فيـه ويعـدم
سلنــى أيا باغى الهوى أخبرك عـن
أحــواله فأنـــا بـــه متـــقدم
إنى علقــت بذات حسـن ما بـــدت
إلا وعنهــا البـــدر راح يترجـــم
خــود إذا نضـت اللثـام بـدا لـنا
قمــر بليــل ذوائب مثلـثــم
قـــد كلمـت أحشـاى بالمقل التـــى
فيهـا الجمـــال مسلم ومكلـــم
مقـل لعينـــى نرجس أو أكـــئوس
لكـــن لقلبى أســيف أو أسهـــم

مـــن وجههـــا نـــور الحياة لأعينـــى
يجلـــى ونـــار فنى لقلبـــى تضـــرم
لم ألـــق نفســى مفـــردا أو مصحبـــا
إلا وشـــوقى نحـــوها مســـــتلزم
شـــوق يمثلهـــا لطـــرفى كلمـــا
غابت فينعـــم حيثمـــا لا يغـــنم
فهى النسيـــم تطـــيب كيف سـرت ولا
عين ترى خطـــــــواتها إذ تـــقدم
ماذا علـــى عينى فـــؤادى قد جـنى
حتى تعاقبـــه عقـــابا يعظـــم
طبـــعت عليـه خيـــال غالبة النهـــى
فأحاطـــه لهـــب ودمع يسجـــم
فأنـــا بروح الحـــب مسكون فلـــم
للنـــار أو للمـــاء رحـــت أسلـــم
مـــن لى بهـــا غيداء فوق جبينهـــا
نـــور المحاســـن والتعقل يرســـم
وبســيف صاعقـــة الهـــوى ألحاظهـــا
قامـــت تحاربنى فإنـــى أسلـــم
أنا لســـت أنعـــم فى الحيـــاة ولا أرى
حظـــا ســوى معهـــا ففيها أنعـــم

وكـــــذاك لا أهــــنأ بكـل تكلـم
إن لــم أكـن معهــا بهــا أتكلـــم
فإذا نأت عنـــى أعـــود على لظـــى
وأروح فى خــرس وعقلــــى يعقـــم
أترقـــــب الطرقات على ألتقـــى
معهـــا وإن حـان التــلاقـــى أبكـم
ترنــــو إلى كـــذاك أرنـــو نحوهـــا
والوجــــــد فى نظراتنـــا متبســـم
ونصــــافح الأيــدى وألســنة الهــوى
تروى أحــاديث اللقـــا وتترجــــم
تمضـــى فأرقـب خطوهـــا ونواظـرى
تجثــو لـدى أقدامـها إذ تقــــدم
وأعــود فى كبـــد تــذوب ومقـــلة
عبرى ومـــا عنــــدى لســان أو فـم
أقضـــى الدجـى وأنا أحـــن إلى غـــد
وكـــذا يجـئ غــد وعمــرى يصـــرم
يا أيــها الغـد كـــم غليت دمـــى علــى
نـــار الرجـــا وإلـــى مـــتى أتتـيم
ولكــــم أحـــاطت بى تباريح الجـــوى
وغـــدا يســـاعدها القضـــاء المـــبرم

فهـــرعت نحـو الروض معـــدوم القوى
أبكـــي وأفـــواه الأزاهـــــر تبســـم
أترقـــب البلوى وقلبـــى راقـــــب
عـــددا مـــــن الآمـــال لا يترقــم
قلــــب بـــه استهوى الهوى عنفا إلـــى
وادى العـــنا فغـــدا يهيم ويلطــــــم

وهاك هذه الأبيات الأخر تبيانا لما ينجم عن الهوى وما يعانيه أخو الجوى:

إلى م ذوات الخـــدر يجـــذبن أميالـــى
وحتـــى م أهـــوى من تدافع آمالـــــى
عيـــون المهى بالله كفى فلم تـــذر
لكـــن بقلبى موقعـا ربة الخـــــــال
ويا ظبييـــات الإنـــس بعدا عن الـــذى
يحـــب التى من حبه قلبها خالـــــى
صـــريع بألحاظ التى هـــدرت دمـى
فلاحـــظ لـى منكن قط بإقبــــــال
مهفهفـــة تدنـــو الغصـــون لقـــدها
ويعـــدو لسامى وجهها القمر العالـــى

ولمـــا تلاقينـــا معا بعد هجمــــــــة
مـــن البين أورت فى الحشـــا كل اشتعال
لبثنا وكـــل مطـرق دهـشة اللــــــقا
وصـــــوت خفوق القلب مستنطـق البال
ومـا بيننــــا الأشـواق تلعب فى الخــفا
وتعـــرب عن حال الهوى ألسن الحـــال
يود التقـــاء العــــين بالعـين شوقـــنا
ويمنعــــه دمــــــع لأعينـنا مالـــــى
فوا عجبـــا من عاشـــق رغـب اللقـــا
ومــذ ناله لم يغتنـم غـــــــير بلبـــال
ولكــــننى لمــــا تنــهدت حســـرة
وحـاولت إطلاقـــى لتيـــار أقــــوال
تحـــرك فى أحشـــائها ساكنٍ الــــــولا
فألقـــت علىّ نظـــرة تنعش البـــــال
وقالـــــت بصـــوت أرجفته يد الهـــوى
ولفظ كــــدرزان مبســـمها الحالــــــى
لك اللــــه مـــن صب حوى الـصبر كله
فليتـــــك لى أبقـيت وزن مثقـــــــال
فليس يليـــــق الصبر إلا بمغـــــــرم
إلـــى غـــير ما يهواه ليس بميـــــال

أقلــت الهـوى عند الســوى فلك الهــنا

لـــو مضى فالقصــد بسـطك يا قالـــى

فقلـت يمــين اللــه لم أذكر الســــوى

وحســـبك تبريرا شـــواهد أفعالــــــــى

أنا لســـت ممن ينشئ الهــجر والقـلى

ولكنــما أنت المقيلـــة إيصالـــــــــى

غزوت جمـــيع العقــــل منـــى والقوى

فلم يبق لى نطق لأشـــــرح أحوالـــــى

فقد سكتت دون الهـــوى ألــسن الهوى

كمـــا حط عـن إدراكه الركن العــالى

أراك فيعرونـــى جمـــــود وبهــــتة

ولا عجــب فالســـحر فى وجهك العالى

على عـــدد الأنفاس ذكـــرك فى فمـى

وشخصـــــك فى قلبى وعهدك فى بالى

أبات الليـــالى والشؤون سواكــــــب

علـــى ما أقـاســى من شجون وأهــوال

على فـــرط أتواقى على عظم لوعتـــى

علــــى طول أشواقى على سوء إقبالـــى

كذا يحكــــم العشق الظلــوم بأهلــــه

ويفتنهـــم فليحـــذر الرجل الخالـــــى

فينبغي استعمال المحبة إذا على قدر الواجب، وحسب الظروف التي تدعو إليها بدون زيادة ولا نقصان. أما ترى كيف أن الرئتين هما عضوا التنفس لا يتناولان من الهواء الذي به تقوم الحياة إلا ما يكفي لقيام هذه الحياة وما لا يؤثر عليهما ضررا، بحيث لو عرضتا بأجمعهما إليه لفتك بهما وبكل الأعضاء عموما. فلمنع هذا الفتك الشديد تحفظتا منه ضمن حجاب متين وأخذتا تفتكان به رويدا رويدا.

فهكذا كل إنسان يجب عليه اعتناق المحبة عامة وخاصة وتحريكها حسب الاقتضاء بدون تسليم ذاته لجميع قواها حذرا من فتكها به وتمزيقها جلباب راحته. وبذلك تقوم هذه الدعامة الخامسة للتمدن أوالسلك الذي به تنضم فرائد البشر إلى بعضهم البعض.

وبعد أن ختم الفيلسوف مقالته هذه أثبت عينيه في الأرض قليلا كأنه يقصد إراحة فمه من كثرة التكلم وجعل يخيط في الثرى. ثم نظر إلى القائد الذي كانت سحنته مرآة ترتسم عليها علامات صفيه وارتياح نفسه. وقال له: هاك دعائم التمدن، فإذا كان الإنسان قد خلق كاملا في الإنسانية

حاملا صورة خالقه ومثاله، لا يكون عندنا شك إذ ذاك بكون هذه الدعائم مرتكزة فى قلبه طبيعيا حاملة اسم الناموس الطبيعى حسب تعليم الإيتيكا (الفلسفة الأدبية) ولا يعود لنا ريب بكون تقلبات الظروف وكرور الأزمان قد أقلقت تلك الدعائم وأفسدت ذلك الناموس. وبناء عليه لا يكون عسرا تثبيت قلقلة الثابت وإصلاح فساد الصالح. ولا يحتاج هذا الأمر إلى مضى أجيال وقرون. فتنحنح القائد ونظر إلى الفيلسوف بدعة وقال له:

– إن جميع ما شرحته عن التمدن وكيفية أصوله وواجباته أعلمه جيدا. وطالما اتعبت ذاتى فى نشره بين الآفاق ورفع رايته، ومع ذلك أشكر فضلك على توضيحك إياه لى. ولكنى لا أزال أرى انتشاره بين شعوب مملكة العبودية عسيرا وشاقا للغاية ولو كانت دعائمه مرتكزة على قلب الإنسان الطبيعى. والأمر الذى لا يقبل الجدال هو كون الفساد إذا أخذ سعته فى محل ما ومكن ذاته خاصة تحت مجرى سنين كثيرة، فلا يعود إصلاحه إلا ضربا من العبث: كيف تصطلح الخمر إذا صارت خلا؟ كيف يحيى العضو إذا تغنفر (أى أصابته الميتوتة)؟ كيف يرجع الحديد إذا صار صدأ؟

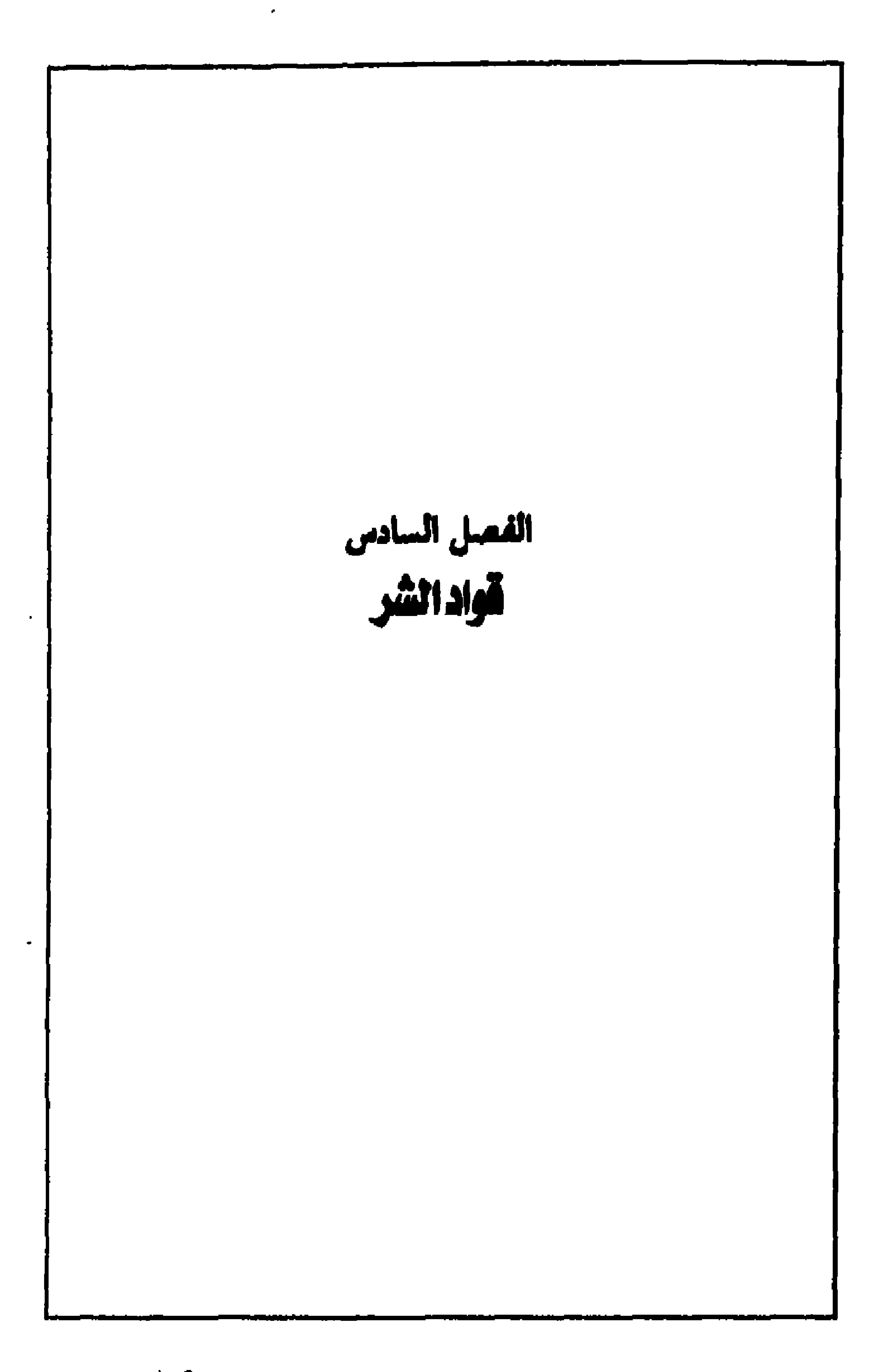
- إن الخمر تصطلح باقتلاع الاستحالة الخلية منها بواسطة شيء من القلويات، ويحيا العضو المتغنفر بإرسال المنبهات والمنقيات إليه كأملاح النوشادر والكلس، ويرجع الحديد بتصعيد العنصر الهوائى منه.

وبينما كان الفيلسوف يجاوب القائد كيماويا، لمع من بعد جمهور يتسرب إلى جهة المحفل النورانى، وهو يتشكل بكتلته ويسرع تارة ويبطؤ أخرى حسب أهواء عوارض الشجر. وكان يأتى منه صوت كصليل الحديد ولم يزل يقرب حتى نفذ فى المسرح الملوكى واستقبل بوجوهه طفحات الأشعة حيثما توقف عن التقرب. وعندما أجلت فيه طرفى وجدته مركبا من تسعة أشخاص مقيدين من أرجلهم بسلسلة حديدية يجرها زنجيان من هنا ومن هنا، وكان وراؤها أناس لم أعلم ما شأنهم. ونظرت رجلا يتقدم الجميع وهو يعجل بخطواته كمن هو سائر بمهمة.

ثم رأيت هذا المتقدم قد انفرد عن الجمهور وسار يطلب جهة العرشين، وإذ وصل سجد على ركبتيه خطفا. ثم نهض واحنى هامته بوقار ويداه ممددتان على جنبيه. فأمعنت النظر

فيه وإذا هو وزير محبة السلام. وإذ رآه الملك قال له: هؤلاء جمهور المردة. فأمال الوزير رأسه وأجاب بصوت المنتصر: نعم.

– حل وثاقهم واجعلهم أمامي صفا. فنكص الوزير إلى الوراء ثم التفت للزنجيين وأشار إليهما بحل الوثاق ففعلا وبينما كان الصف يتركب والأشخاص اللاحقون يبعدون إلى الخلف انحدر القائد والفيلسوف وجلسا حذاء عرش الملكة.



# الفصل السادس

# قواد الشر

أما أنا فرأيت المحل الذى أشغله لم يعد مناسبا لأنظرا وأسمع كل شيء، لكون نظرى ما عاد يحيط بكل ما أمامه من الأشباح، وأذناى صارتا تعجزان عن إيفاء حق السمع لما استجد من الضوضاء، فتركت هذا المحل وأطلقت خطوات التجسس حتى بلغت الجمهور المحتفل وانخرطت فى سلك الأشخاص اللاحقين من حيث لم يشعروا بقدومى.

فرأيت الأسرى المصفدين فى الأغلال قد وقفوا صفا منتظما إزاء العرشين. والقائد والفيلسوف لم يزالا جالسين حذاء الملكة يخاطبانها بحديث لم أسمعه. ووزير محبة السلام واقفا بقرب العرش الملوكى وتلوح على وجهه عبوسة التفكر العميق. وكان الملك يرسل نظراته لفحص الجمهور ووجهه مغشى بسحب الغضب. وما ساد السكوت برهة حتى التفتت الملكة إلى الملك وقالت له بصوت لطيف.

– قد استصوب الفيلسوف والقائد ما تناجينا به هنيهة فى كيفية محاكمة هؤلاء الأسرى.

– فليذهب القائد إذا وليحضر الأشخاص الذين عيناهم إلى هذا المكان. فما أتم الملك كلامه إلا ورأيت القائد قد وثب وثوب الجواد وطلب موقف الأجناد.

وإذ أسدل السكوت ستاره ونشر الهدر شراعه. أخذت أحدق طرفى بأولئك الأسرى، وأنتقد كلا منهم وأنا بين الارتياع والتعجب. ووقعت فى بحران التكذيب والتصديق.

فكان الشخص الذى هو مقدام الجوق رجلا حليف الشيخوخة قد امتصت الأيام ماء وجهه المصفوع بكفى الزجر والانتقام، وحرثت السنون سهلة جبينه، وندف الزمان على لحيته قطن الشيب، وعاد لا يقوى على نصب قامته من ثقل الحوادث المتراكمة على ظهره. وكأن حرارة أعضائه قد تجمعت فى حدقتيه اللتين كانتا تنثران شرراً ودخاناً. أما رأسه فكان متوجاً بإكليل عتيق الزى قد نحره صدأ القدمية، ورأيت على صدره لوحا فيه: (هذا ملك العبودية).

أما الشخص الأول بعد ذاك المقدام فكان رجلا ضخم الجثة، غليظ العنق مفرطح الرأس والجبهة، أفطس الأنف نحيل الشعر غليظ الشفتين. وكانت أرواح التبسم البهيمى تتراقص على وجهه، وضباب الجمود الحيوانى مخيمة على عينيه. ورأيت على صدره لوحا فيه: (هذا قائد الجهل).

أما الشخص الثانى فمع أن منظره جميل، إلا أنه ما كان يخلو من جملة أطوار لا تلذ الناظر. فقد كانت سعة جبينه مضنوكة بغضون العبوسة. وبياضه مشوباً بظلمة الشكاسة.

وكان أنفه الأقنى مرتفعاً ومحسوراً يشير إلى ما في نفسه من الغطرسة. وحواجبه المقرونة مزورة ازورار غضب وسخط. وكانت عيناه السوداوان مبرقعتين بنظر المحتقر والمستصغر، وفمه الأقاحي كان يفتر بابتسام العجب والتيه، وعلى صدره لوح مكتوب فيه: (هذا قائد الكبرياء).

يا قاتل اللــــه الجمــــال فإنــــه
مــــا زال يصــحب باخـــلا متكــبرا

أما الشخص الثالث فقد كان رجلاً تعجز عن تشخيص أمارات وجهه دقائق الفراسة. فعيناه الزرقاوان كانتا دائمتي التحديق حتى إنهما إذا نظرتا إلى شيء فكأنهما تكادان تطيران إليه. وكان وجهه العابس يبدو كأنه مصاب بالاستسقاء لما فيه من انتفاخ الرياء. وكانت جوارح بلبال التفكر حائمة على جوانحه، وهمهمة بكاء الطفل ما كانت تبارح شفتيه. هذا عدا أهبة الهجوم التي لم تكن مفارقة عموم هيئته الضخمة وعلى صدره لوح فيه: (هذا قائد الحسد والطمع).

أما الشخص الرابع فقد كان رجلا كهلا وعلى رأسه عمامة قد مزقتها مخالب الأدهار، وغيرت ألوانها صباغات الأقذار. وعلى بدنه ثوب أنكرت نسيجه جميع الأقمشة لما

أودعت فيه الأوساخ من الزركشة، فإنه شبعان من الدسم وريان من الوخم. ويعلو هذا الثوب وشاح قد توشح بالغثة، ونهشت أقطاره أنياب العثة. فلا يحصى إلا مع الأحلاس، ولا يعتبر إلا اعتبار الأدران والأدناس. أما وجه هذا الرجل فقد كان بيضويا ومشهده رضيا. ونظره لا يفتر وفقاً على ما يلائمه، وقوف شحيح ضاع في التراب خاتمه. ويداه كانتا متقبضتين كأنهما تقبضان على ذهب ولجين. وهما مموهتان بالأوزار، ومطليتان بالأقذار. وعلى صدره لوح فيه: (هذا قائد البخل).

رأى الصيف مكتوبا على باب داره
فصحفه ضيفا فقام إلى السيف
فقلنا له خيرا فظن بأننا نقول
له خبزا فمات من الخوف

أما الشخص الخامس، فقد كان رجلا ذا طلعة صفراء، وحلة سوداء، وأسنان مكزوزة، وأصداغ مهموزة. وكانت جبهته تسبح بالكدر وأعينه تنثر الشرر، وكأنه مشمول بهم عظيم، ومأخوذ بنعم أليم. وعلى صدره لوح فيه: (هذا قائد الضغينة).

أما الشخص السادس، فقد كان إنسانا صغير الرأس متطاوله، كبير الفم فاغره، ظاهر الشدق قصير القامة. وكان على صدره لوح مكتوب فيه: (هذا قائد النميمة) .

أما الشخص السابع، فقد كان رجلا ذا أعين صغيرة التناسب، كروية الشكل مضغوطة القزحية، متجاوزة حد البروز . وذا وجه متطاول مبطن ببشرة كثيفة مدلهمة، يعلوه أنف كالهرم المنبسط. ذو جناح منفرجة، وقمة كقطعة جامود، وعلى صدره لوح مكتوب فيه: (هذا قائد الكذب والنفاق) .

أما الرجل الثامن، فقد كان حامل لواء الخيانة حسبما هو فى لوحه مسطور، وكانت ملامحة - والعياذ بالله - ملامح الخائنين.

وكل من هؤلاء الأشخاص، كان مترديا بزى خاص. فهذا سابح فى ثياب عريضة. وذا محشور فى ضيقة الملبوس. وذاك يعرج على الركبتين وهلم جرا حتى إنى لم أشاهد شبها بين الواحد والآخر.

ثم بعد هجعة من الوقت رأيت القائد مقبلا وثمانية أشخاص يهرعون وراءه. ولم يزالوا حتى انتصبوا أمام العرشين، وخروا ساجدين لدى العظمة الملوكانية، حيثما فصلوا

بين المحفلين. وغب فترة ألقى الملك عينيه على القائد وقال له:

- أهولاء هم المعينون؟؟

- نعم. وأحنى رأسه فأحنى الجميع رؤوسهم.

- دع كلا منهم ينتصب أمام خصمه للشروع بالمحاكمة.

فأوعز القائد إلى المعنيين بما أمر الملك فذهب كل ووقف حيث الإشارة.

أقول: وإذ أثبت نظرى على هذا السرب الجديد، رأيت كلا مكللا بالغار، واسمه مرسوما على جبهته بأحرف من نار، فكان الأول يسمى العلم، والثانى الاتضاع، والثالث الرضاء والقناعة. والرابع الكرم، والخامس الصفح، والسادس الكتمان، والسابع الصدق والحق، والثامن الأمن. وجميعهم كانوا يرتدون زياً واحداً.

فما لبث السكوت فترة حتى صرخت الملكة بصوت عال قائلة:

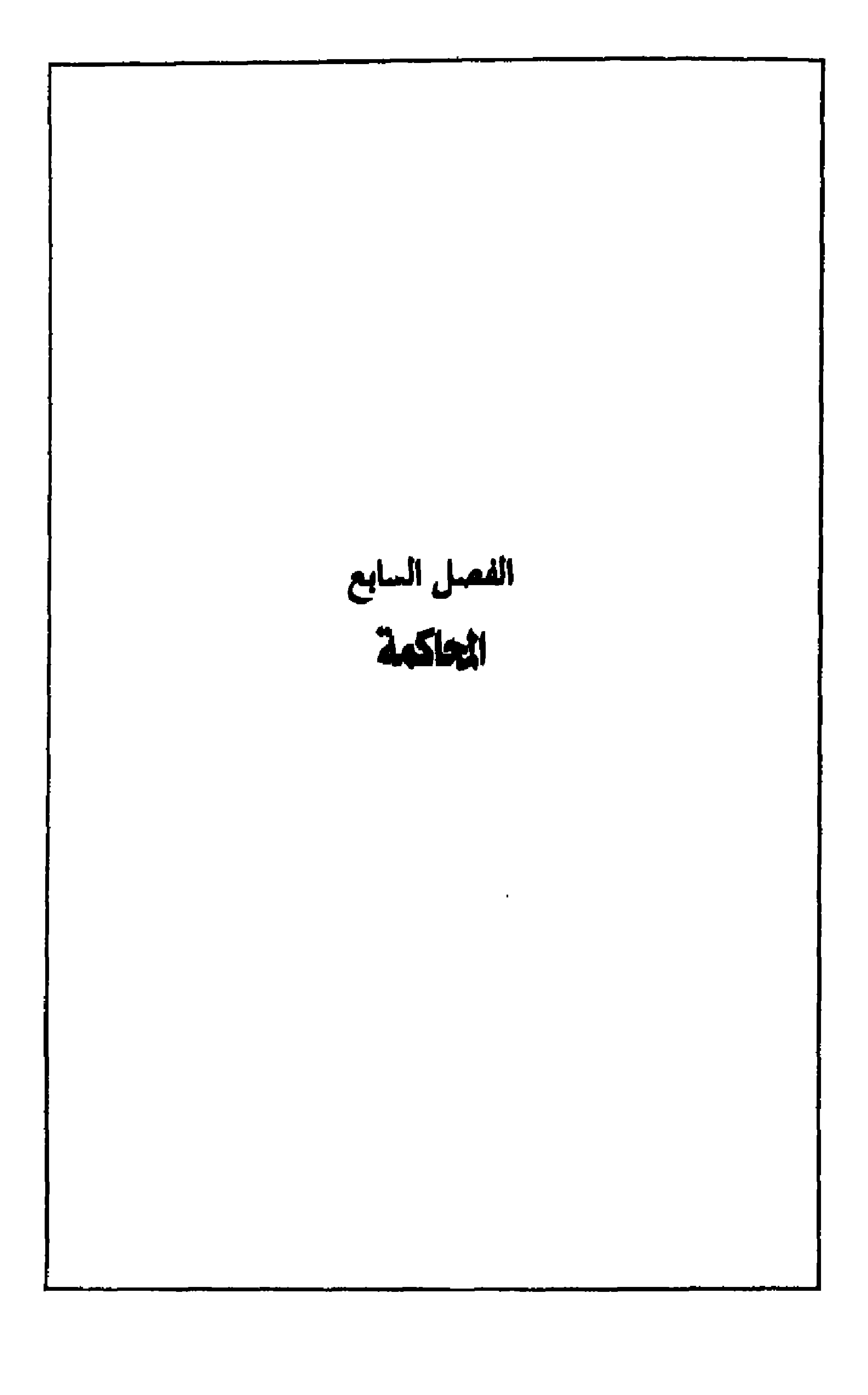
- تعال يا أيها الفيلسوف.

فنهض الفيلسوف إليها ومثل لديها وقال:

- مرى العبد.

- اصعد على قمة هذه الصخرة واشرع بالخطاب علنا وليرن صوتك فى جميع المسرح.

ثم أمالت الملكة وجهها وقالت: أما أنت يا قائد جيش التمدن فتمنطق بسلاح العدل، واذهب فقف على رأس ملك العبودية وتقوّى ولا تجزع.



# الفصل السابع

# المحاكمة

## المحاكمة

ففعل القائد حسب الأمر وأسرع الفيلسوف وصعد على قمة الصخرة ووجه خطابه إلى ملك العبودية وأنشا يقول : اصغى أيتها العبودية لكلمات فمى وانصتوا يا جميع قواد الشر. هو ذا ملك التمدن قد انتصب على عرش جلاله، فلتخفض دولة التوحش أعلامها. وها ملكة الحكمة قد ابتدأت تتكلم، فلتخرس أفواه الجهالة. أين شوكتكم يا مستعبدى البشر؟ وأسنة الحرية لمعت فى الآفاق. أين صولتكم يا عاملى الظلم؟ وألوية العدل خفقت في الأعالي. زولوا من الوجود فقد دهمتكم الغلبة. حولوا فقد أخذتكم الرعدة. ها قد هبت بكم عواصف القضاء المبرم إلى غابة الحق حيثما تصدح بلابل العدل وترقص أغصان الأمان تحت سماء التمدن العظيم، فلا عاد لسيوفكم رقاب تذل ولا لنبالكم مرامى وأغراض بين البشر.

### العبودية

فاعلم يا ملك العبودية أن جميع شرائعك وأحكامك التى كنت توسوس بها فى صدور الناس قد سقطت الآن مبانيها،

ودثرت أصولها ،ولم يبق لها أثر في جميع العالم. وكل ملوك الأرض قد نهضوا لدك معالمها. ولكن لم يزل بعض الناس إلى الآن متمسكين ببقية خبيثة من نواميسك التي قد نشرتها بينهم منذ قام هذا العمران، وما هي إلا استعباد الأقوياء للضعفاء من بني البشر.

فمن المعلوم لدى العموم أن الطبيعة البشرية قد خلقت في كمال الحرية الأدبية، وأن خالقها ذاته عز وجل قد منحها هذه النعمة الجليلة عندما ما أطلق لها عنان الاختيار بين الماء والنار، واضعا فيها معرفة الخير والشر، ومبدعاً في سجيتها حركة الميل إلى هذا والصدود عن ذاك.

فمن أين يصوغ لبني هذه الحرية الإنسانية أن يبيحوا تمزيق جلبابها بأنياب الأغراض؟ وكيف قد أمكن للإنسان منذ القديم أن يستحسن هذه الذلة القبيحة لدى الخالق والمخلوقات؟ وأن يسلك بشأنها رغما عن كراهية نفس غريزته لهذا السلوك، لأنه إذا دخل كل من الناس إلى مخدع ضميره إنما يرى ذاته نافراً كل النفار عن ارتباطه بعبودية غيره، ومتوجعا كل التوجع لمن دفعته الأقدار إلى فخاخ هذه العبودية

الأدبية الخاصة، زيادة على تلك الطبيعة العامة السابق ذكرها. وليس الإنسان فقط ينفر طبعا عن هذه الجائحة السوداء بل وأكثر الحيوانات أيضا، على أنه متى عارض أميالها مانع ما ظهرت عليها حالا دلائل الانزعاج، وأشارت الرغبة فى الدفاع عن حريتها المدافعة. فلا يبرح الأسد الواقع فى قفص الأسر يزأر ويضج حنينا إلى الغاب والعرين. ولا يزال النمر الموثوق بالسلاسل يصرخ ويعج رغبة فى الوثوب إلى أعالى الجبال. ولا يفتر الكلب يهر وينبح طالما يكون مسجونا. ولا ينفك الطائر السجين يخفق بجناحيه ويصيح شوقا للطيران إلى رؤوس الشجرة وهلم جراً.

فإذا كان الحيوان العديم النطق لا يحتمل مضض الرق وذله، ولا يصبر على ضنك الاستعباد. فكم يكون الإنسان الناطق خليقا بعدم احتمال هذه النازلة عندما يقع فى شراكها؟ وكم يتمنى لو أتيح له التخلص من هولها؟ وكم يكون خشنا بربريا من يهم إلى باعة الأسرى وتجار الرقيق ليتعاطى بيع أو شراء أشباهه فى الطبيعة وعدلائه فى الإنسانية؟ وكيف يمكن الإنسان الطبيعى أن يشاهد إنسانا نظيره مغلولا بقيود التعبد والأسر ولا يجم غضبا ويؤخذ بخواطر الشفقة والحنان؟

ولا سيما إذ يرى ذلك العبد الموجوع القلب والمنكسر الخاطر مرتعدا إزاء مولاه الأليم القاسي كالفريسة بين مخالب الوحش الضاري. وربما أفضت قساوة ذلك المولى إلى ربط هذا المخلوق بالحبال وجلده بالسياط تحت مواقع العنف الشديد بدون أدنى رفق أو خشية آثام، أيان دعا الداعي وكيفما كانت الحالة، حتى إن هذا المسكين يعود صارخا ولا من يجيب، ومستجيرا ولا من يجير، ومستغيثا ولا من يغيث.

فهل يوجد قلب بشرى حساس لا يلعن عادة اتخاذ العبيد بين الناس؟ حينما يعاين إنسانا يحوى كل الأخلاق الإنسانية متخذا له أسيادا من جنسه، ومقدما كل حياته ضحية في هياكل أوامرهم الظالمة حيثما لا يجازى سوى بالضرب والشتم واللعنات. فلا يأكل خبزه الدنئ إلا بالتنهد والحسرات، ولا يشرب ماءه العكر إلا بالدموع والعبرات، ولا ينام على فراشه الحجرى إلا قلقاً بالأوجاع والأوصاب. وربما لا تكاد أهداب أجفانه ترجف بمرور نسيم النعاس إلا يهب من مضجعه هبوب العاصفة، إذ يتخيل رنين صوت في أذنه أو هفيف وسواس، ظانا أن سيده المتغطرس القاسي القلب يدعوه لقضاء حاجة، أو سيدته المتكبرة الخشنة أتت تنبهه ليأتي

فيغيرها رفائد الولد أو يلبيه عنها إذا كان با كيا لكى يمكنها من استيفاء لذه النوم.

وهكذا فلا يعطس أنف الصباح أو يسيل مخاط الشيطان إلا على يقظته، فهات أعرب لنا يا أيها السيد عن الامتياز الطبيعى الحاصل بينك وبين عبدك البائس، وقل لنا ما هو الفرق بينكما من حيث الشعور والإحساس. أخبرنا، هل تظن أن جلده الأسود لا يشعر بالفواعل المؤلمة عليه كنفس جلدك الأبيض؟ وهل تزعم أن شفاهه الغلاظ لا ترتاح إلى مناولة الأطعمة اللذيذة كعين شفاهك الرقاق؟ وهل تخال أن عينيه المستديرتين لا تشتاقان إلى التمتع بطيب الكرى كعينيك المستطيلتين؟ وهل تفترض أن أنفه الأفطس لا يحس بالمشمومات الزكية نظير أنفك الأقنى ؟ وبالإجمال نقول هل تتوهم أن وجوده فى بيتك تحت سلطان دراهمك التى بها اشتريته يجعله غريبا عن جنسك وبعيدا عن نوعك وذا حواس لا تشاكل حواسك؟ حاشا وكلا. إن جميع أعضاء هذا الأسير وطبيعته هى نظير أعضائك وطبيعتك، ولا يوجد بينكما أدنى اختلاف سوى بجلده الأسود الذى ربما يكون زاهيا ببياض الأفعال، وبجلدك الأبيض الذى ربما يكون مدنساً بسواد الأعمال.

فمن أين أبيح لك شراء الإنسان وعذابه وقهره يا أيها الظالم الغشوم، وكيف تمكنك الطبيعة الإنسانية من مجاوزة حدودها وشرائعها بأفعال شريرة كهذه؟ ألم تتحرك في باطنك جوارح الشفقة عندما يكون هذا الغريب المسكين واقفا بين يديك القاسيتين مرتعدا مذعورا وعيناه مغرورقتان بالدموع، ويداه مبسوطتان لديك بكل ذل وهوان عسى ينال منك العفو أو الرأفة على ذنب ربما يكون حسنة.

أطلق هذا العبد الغريب، فلا يصوغ لك استعباد الجنس البشري. أطلق هذا العبد الغريب، فلا عاد يحتمل أثقال تهافتك ومضض خدمتك. أطلق هذا العبد الغريب، فقد بح حلقه من الصراخ وذبلت عيناه مما يترجى. أطلق هذا العبد الغريب، فقد انتثر لحمه من مقارعك وتلاشت قواه من أحمالك. أطلق هذا العبد الغريب، فقد أجمعت على إطلاقه كل ممالك العالم، وها رائحة بارود أمريكا منتشرة إلى الآن في آفاق المسكونة مما أثاروا من الحروب ضد مستعبدى البشر. أطلق هذا العبد الغريب، أو يطلق ذاته رغما عنك آخذا الإسعاف من جميع الناس، ومساعدا من نفس الحكومة المدنية بعد أن يتقاضى منك أجرة المثل. أطلق هذا العبد الغريب، ولا تقل: إن وجوده

عندى خير له وماذا يعمل خارجا؟ لأن الله يدبره وحسبه امتلاك بغيته الطبيعية وهى الحرية، أو خذه مستأجرا وارفع عنه ثقل سلطانك. أطلقه أطلقه، فلا عاد يمكنك استعباد الإنسان. وسوف ترى أن نفس حضرة قيل مصر سيبرز أمرا بإبطال اقتناص العبيد من أعمال أفريقيا، وسيلاشى هذه العادة المذمومة من بلاده حسبما يقتضى اجتهاده بإدخال التمدن إلى بلاده وتمهيد سبل الحرية فيها، مقتديا بولى نعمته جلالة السلطان العثمانى الأعظم ذى الشوكة والاقتدار عبد العزيز خان، دام ملكه مدى الدوران.

وإذ كان الفيلسوف مسترسلاً فى كلامه، كان الذين ورائى يعوجون ويموجون بين الطرب والكرب، ضاجين بأصوات مختلفة بين السلب والإيجاب. فكان هذا يقول: نعم إن العبودية لا تحتمل ولا يوجد أصعب على الطبع البشرى منها ولا أشنع من عادة اتخاذ العبيد. وذا يقول: لا لا ليس الأمر كذلك لأن الله قد خلق مولى وخلق عبداً إذ جعل إناء للكرامة وإناء للإهانة، والكتاب نفسه قد أمر بطاعة العبد لمولاه وصرح بدعوى هذا ودعوى ذاك. فعلى أى أساس نبنى بطلان العادة الآخذة مبدأها من سالف الحقب؟ وذاك يقول :

بكل حق يجب نسخ هذه العادة الخشنة التى ينفر منها الطبع الإنسانى، ولا يجوز التعبد سوى لله، هو قال: (للرب إلهك تسجد وله وحده تعبد)، وما ورد من ذكر عبد أو أمة فى الكتاب يمكن تحويله إلى الخادم أو السرية تحويلا يتضمن الانتماء البسيط من الفقير الباذل تعبه بحريته، إلى الغنى الدافع فضته بإرادته منتخبا هذا وراذلاً ذاك. وذلك يقول: إن هذا الكلام هذيان، كيف نترك عبيدنا الذين قد اشتريناهم بالذهب والفضة، وتكلفنا عليهم كذا وكذا من مال وأكل وشرب وكسوة؟ اسمعوا يا ناس هل يطيق هذا الفشار القبيح؟ ويقول الآخر: ليس الهاذى سوى من ينزل الإنسان منزلة البهيمة بالبيع والشراء والعلف، زاعما أن الزنجى أو المملوك الكرجى هو حمار ناطق ولا يوجد فيه أدنى إحساس إنسانى، ما شاء الله على هذه النتائج الذهنية!!!

وبينما كان هؤلاء المتعصبون الأنانيون فى ضجيجهم وصخبهم، وإذا إيماء وزير محبة السلام يستوقف خطاب الفيلسوف المنتصب على الصخرة كأرز لبنان، وكان يقول للزنجى الواحد هكذا: اشرح يا ياقوت هنا علينا ما رويته لى خفية، فتردد العبد خجلا ومهابة، فأعيد عليه الأمر فتقدم

حينئذ هذا العبد الأسود قليلا وأحنى رأسه أمام المظهر المملوكى ثم نكص إلى الوراء والتفت إلى الحاضرين وافتتح كلامه بصوت منخفض يصعب إسماعه. فناداه الوزير قائلا: أجهر صوتك، فجعل العبد يقص بكلام جهورى قصته فقال:

- إنه منذ خمس عشرة سنة بينما كنا ذات يوم أنا وأخى هذا مرجان (و أوما إلى زنجى آخر كان بجانبه) نسرح مع والدتنا فى برية السودان على نحو غلوة من قريتنا، وكان سنى وقتئذ لم يتجاوز العشر وسنه لم يبلغ الثمانى، وإذا بقافلة من فلاحى مصر نظرناها تخب فى القفر بين الأمواج الرملية المستعمرة بإيقاد الهجير، آخذة طريق جبال القمر حسبما يتوهم انبعاث النيل. فعندما نظر إلينا بعض الركاب أخذوا يعرضون علينا عن بعد قطع كانت تلمع بأشعة الشمس مظهرين قصد إهدائها لنا، فهرعنا إليهم حالا رغما عن ممانعة والدتنا وقتئذ التى حدثتها نفسها ولا شك بخطر هؤلاء علينا، وإذ دنونا منهم أملاً فى الهدية قبضوا علينا سريعا وأردفونا على الإبل، وأطلقوا لها السراح ضاربين فى أودية الرمال، فطفقنا نتباكى ونتصايح باسطين أيدينا إلى والدتنا التى كانت تولول وتنوح عن بعد بحنين يجرح الفؤاد، وكانت

تنسف الرمل على رأسها وهى تركض لتدركنا زاعمة إمكان إنقاذنا، أما نحن فكنا نزيد بالعويل ونبالغ باستنجادها كلما كانت تقترب منا، ولم تزل هذه المسكنية تجهد خطواتها حتى أدركت محملنا، فأخذت تترامى على أقدام مقتنصينا ساقحة دموعها السخينة وتتململ وتترجى، بلغتنا التى لا يفهمونها، عفوهم عنا صارخة بصوت يحرك الجلمود: استحلفكم بما تعبدونه ردوا على الولدين كرما لرب النيل، أعطونى والولدين ولا تتركونى أموت بفراقهما كمداً، ردوا على ثمرة أحشائى وأنا أعطيكم كل ما أملكه من الخرز والقزاز. أما مقتنصونا فكانوا يزدادون قساوة كلما ازددنا بكاء وازدادت والدتنا التحايا وململة، فكانوا يضربوننا ويزجرونها ويلطمونها فى صدرها ويرفسونها بأرجلهم ويلقونها على الأرض، وهى لم تزل تنتدب وتذرف العبرات وتتوسل وتتضرع بيديها وبكل إشارات وجهها، وهم لايزالون يلطمونها ويصرعونها حتى غشى عليها وانطرحت على وجهها معفرة وكأن لم يعد بها نفس. وما كادوا يبعدون عنها قليلا حتى أنعشتها أرواح الحنية وضوضاء عويلنا، فوثبت على قدميها منهوكة القوى وأسرعت إلينا ثانية، فإذ رأها قانصونا الظالمون تتبعهم عادوا إلى ضربها،

ومد أحدهم على هذه الأم المنكسرة القلب بندقيته وأطلق الرصاص على أحشائها، فسقطت على البساط المقفر، وتلوت قليلا بتنهدات متقطعة، وسلمت الروح متكفنة بالرمال.

وعندما رأينا ما حل بأمنا التعسة من الويل تملكتنا الرهبة ووقعنا فى هوة اليأس من الخلاص، فصمتنا آخذين بالصبر الذى هو سند المصابين بالمحن. وأخذت الأباطح تسيل بأعناق المطايا التى كانت حاملة كثيرين من بنى جنسى المقنوصين. ولم نزل نفرى بطون السباسب والقفار حتى بلغنا الرستاق المصرى. أما أنا فلم أعلم ذاتى بعد إلا ممسوكا بيد أحد النخاسين تجار العبيد ومنادى على بيعى فى سوق القاهرة، فاشترانى رجل من الأغنياء وأدخلنى فى داره للخدمة. أما أخى فما كنت عالما ما كان من أمره، فجعل هذا الرجل يعاملنى بأقسى المعاملات وأخذت أطيعه الطاعة العمياء. ولكن لسوء حظى لم تكن طاعتى موجبة لراحتى، لأننى كلما كنت أزداد نشاطا وهمة فى خدمته كان يزداد صرامة وقساوة، حتى إنه مرارا عديدة كان يربطنى بالحبال ويجلدنى بالصوت لأقل سبب نظير عدم طيرانى كالباشق حالما يدعونى، أو عدم إجرائى – كالواجب – ما

يكون في ضميره. وطالما كان يقول لي (أما تعلم إرادتي، أما فهمت مزاجي). هذا وقد كنت في سن لا يسمح لي بعلم الضمائر الخاص بالله، ولا بفهم الأمزجة المنوط بالأطباء. ولم أزل صابرا على هذا العذاب الأليم ومقاسيا صعوبات هذا المولى الظالم حتى بلغت الثمانية عشر عاما، إذ خرجت من عبوديته. وكان سبب خروجي أنه في ذات ليلة أرسلني لاستدعاء أحد جلسائه إليه، فخرجت مسرعا لقضاء أمره وكنت في أثناء طريقي أرفع نظرى إلى الجو لأستعلم ابتداء هبوط الأمطار، لأن السماء كانت في تلك الليلة موشحة بالغيوم الكثيفة، ومدلهمة على شكل مريع جدا، وكانت البروق تتلوى تلوى الحية الرقطاء، وتنشب من سحادة الى أخرى مخترقة أعماق الفلك.

فما بلغت نصف الطريق حتى انفتحت ميازيب السماء، وانحل وكاء السحاب، وابتدأ يهبط برد عظيم نظير الحجارة، بحيث عدت أظن أن السماء شرعت ترجم الأرض بحممها، أو الضربة السابعة من ضربات سيدنا موسى نهضت من كمين العدم. وكانت أصوات الرعود تزلزل أساسات المسكونة، وهبوب الرياح ينسف الجبال نسفاً. فأخذتني الدهشة والرعشة

مما لم تتعوده عيناى فى تلك الديار لندرة حدوثه، فما كنت أشك حينئذ فى أن الخليقة جميعها تموج هلعا، ولما لم يعد يمكننى المسير خوفا من سحق حجارة البرد لرأسى وتهشيمها عظامى، تواريت فى إحدى الزوايا وصرت من جملة الخبايا.

وعندما انفطر كبد الغادية، وأسفر البدر عن الأضواء لدى ساعة من هيجان الطبيعة، أطلقت أقدامى إلى تتميم الرسالة، فلم أنظر الرجل فى بيته، فرجعت إلى سيدى وأخبرته بذلك، فأزبد وأرغي واخرنطم وبرطم وحملق عينيه الآتونية، وقال:

– لماذا تأخرت إلى هذا الوقت وتركتنى أموت خوفا؟

– لأن البروق والرعود أدركتنى فى نصف الطريق لذهابى، فخفت واختفيت.

–ولماذا خفت يا خبيث ولم ترتد حالا إلىّ؟

–لأنى خفت على نفسى الهلاك، ومتى عصيتك يا مولاى؟ وكيف أرتد راجعا بدون تتميم أمرك؟

- إذن أنا لا أقدر أن أهلك وأطحن عظامك أكثر من هاتيك الزوابع، وهل جسدك الذى هو ملكى أفضل من إرادتى يا عبد السوء؟ ثم هجم إلى العصا مكفهر الوجه محمر العينين وهو يردد هذا البيت البربرى الذى صاغه المتنبى للكيد بكافور:

لا تشتر العبد إلا والعصا معه
إن العبيد لأنجاس مناكيد

ووثب علىّ كالوحش الضارى، وصار يضربنى ضربا عنيفا حتى إنه مزق جلدى وكاد ينثر لحمى، وهو يقول لى بصوت أبح: (هربت من غضب الله فابشر بغضبى) .

وأخيرا قلت له: اتق الله يا ظالم، أى ذنب جرى منى يستحق كل هذا القصاص؟ فأجابنى: أتعنفنى يا أسود الوجه اخسأ واخرس.

ثم ذهب فأتى بمسد عازما على ربطى وتجديد الضرب. فلما رأيت حياتى وقعت فى الخطر رفعت مهابته من قلبى، وهجمت عليه غائبا عن الرشد والحس وواقعاً فى اليأس، فمسكت يديه بقبضتى ودفعته إلى الحائط دفعاً شديداً ورفست بطنه برجلى حتى كدت اخترط أمعاءه، وقلت له: أقتلك أو

تطلق سبيلي يا أسود الطبع. ولما أخذ يعاركنى وهو في غلو الهيجان وإغراق الافتتان، تناولت الحبل المعد لى وشددت به يديه ورجليه وألقيته موثوقا بدون حراك. وإذ نظرت ذلك امراته وأولاده أخذوا يصيحون ويضجون ليجمعوا الجيران، ففتحت الباب وطلبت الفرار وأبقيتهم فى طغيانهم يعمهون.

ومازلت أركض هائما على وجهى حتى بلغت دسكرة فدخلتها، وطلبت حجرة للنوم فأجيب طلبى، فتوغلت فى هذه الحجرة وأغلقت الباب، ثم انطرحت على الفراش كالقتيل ولم يكن ما يستنار به سوى سراج طفيف . وبما أن أوجاعى وأفكارى كانت فى غاية الثوران، لم تكتحل أجفانى بأثمد الغمض، ولم تذق عظامى طعم الراحة. وفيما كنت أنظر إلى النور الضئيل المنبعث من السراج الذى كان موضوعا نصب عينى وأنا مشمول بشمول الخوف، صار نور السراج يتراقص كفرائصى ويخفق كقلبى، وما لبث أن أسلم روحه فانطفأ. فاختطفتنى موجة الظلام، وابتلعنى غمر الدجى، وأطبقت الوساوس على فاها، وما عدت أرى سوى الموت، ولا أسمع سوى صفير الرياح المتلاطمة بين الأبنية. فصارت هوام الأوهام تتطاير فى حرش مخيلتى تطاير الشرر المنتثر،

ولما تمكن من ذهنى خاطر الدخول إلى المدرسة، بناء على أن كلا يعمل على شاكلته. تركت مركبنا وركبت سفينة تجارية وقصدت الأستانة العلية دار السلام فوصلت إليها. وبعد قليل من وصولى طلبت الدخول فى المدرسة العسكرية، ففتحت لى الأحضان وشرعت بالدراسة ناسيا كل ما جرى على رأسى.

وبينما كنت ذات يوم أتمشى على جسر غلطه وقت الراحة، وإذا عبد نظيرى يقول لى:

- نهارك سعيد همشرى.

- نهارك سعيد مبارك.

وبعد أن تأملته بإمعان أشعرت بشرارة كهربائية طارت من دمى وسرت فى جميع مفاصلى فسألته:

- ما الاسم؟

- مرجان. فازددت حنانا إلى محدثى، وقلت:

- وكيف كان مجيئك من بلادنا؟

- بقوة الاختطاف.

– وكيف كانت طريقة هذا الاختطاف؟ وهل خطفوك وحدك أم خطفوا غيرك معك؟

– خطفوا معى أخى أيضا لأننى كنت أنا وإياه نتمشى فى البرية، وإذا جماعة من المصريين دنوا منا وخطفونا وقتلوا والدتنا لأنها تبعتهم لإنقاذنا من أيديهم. فما عاد عندى أقل ريبة فى أن هذا العبد هو أخى ذاته. وحينئذ غرغرت عيناى بدموع الفرح وخفق قلبى بأجنحة الشوق والحنان، ولكننى اجتهدت بإظهار الجلد لاستتم التأكيد فسألته:

– وما اسم أخيك؟

– ياقوت، وهو أكبر منى.

فقبضت على يده وقلت له اتبعنى لأريك أخيك. فأخذته إلى حجرتى على انفراد وقلت له: أنا هو أخوك ياقوت. فتعانقنا وتباكينا ساعة حتى أطفأنا بمياه المآق نار الأشواق. ثم قصصت عليه جميع ما جرى لى من الأول إلى الآخر. وبعدئذ طلبت منه أن يروى لى ما جرى له، وكيفية وصوله إلى الأستانة. فقال:

– إن تاجر العبيد فى القاهرة باعنى إلى رجل إسكندرانى، فذهب بى إلى الإسكندرية وجعل يستخدمنى فى

وعادت غربان الوساس تحوم على خربة رأسى من كل جهة، حتى صرت أخال نفسى قائما في وسط جهنم.

ولم أبرح متقلبا على فراش القلق والأرق، ضاربا فى أودية الويل، خابطا فى لجج الليل، إلى أن تبلجت كوة الحجرة بشعاع السحر، إذ علمت أن النجم قد غار على جواده الأدهم، والصبح قد أقبل على صهوة حصانه الأشقر، فقفزت من مضجعى قفز الغزال المذعور، ووقفت فى وسط المخدع لأجمع شوارد أفكارى، وأنتخب منها ما يرشدنى إلى سواء السبيل. وإذ أولجت يدى فى جيبى على غير قصد إيفاء لما تطلبه بديهة الهجس، عثرت على بعض قطع من الدراهم كانت مذخورة لمصروف بيت مولاى، فشملنى الفرح للحال، وقلت فى نفسى: ها قد استلمت طرف زمام المستقبل. ففتحت الباب المغلق وأطلقت لنفسى عنان المسير. وإذ بلغت باب الدسكرة وجدت صاحبها مدلجا هناك، فطلب منى أجرة المعرس. فأعطيته شيئا من الدراهم وواصلت الجرى حتى أصبت الجسر. فما لبثت برهة أنتقد ذاتى، حتى رأيت ذهبية قاصدة الإسكندرية، فانخرطت بها وأخذت تفرط زبد الماء لدى مهب الهواء فى ماء النيل العذب.

وبعد ثلاثة أيام بلغنا الإسكندرية، فصعدت إلى البر وطلبت جانب الميناء، فصرت هناك عتالاً. وغب كرور خمسة أشهر خلعت أبهة العتالة وصرت ملاحاً فى أحد المراكب العربية التى تمخر فى بحر الروم، ولكن بعد بضعة أشهر خطر لى أن أترك الملاحة وأدخل إحدى المدارس التركية، وما ذاك إلا لأننى صرت أسمع شتيمة الجنس العربى واحتقاره من جميع الإفرنج الذين كانت مراكبهم تصادف مركبنا فى عرض البحر، وقالوا إن أولادهم يظنون أن العرب هم نوع منقطع عن الجنس البشرى ولا يحسب إلا من جملة الحيوانات، الأمر الذى ينتج عن كثرة استماعهم عبارات الازدراء والتحقير من آبائهم لأمة النبى الكريم صلى الله عليه وسلم.

فقلت فى نفسى أن الجهل الفاشى فى الأمة العربية هو الذى أوجب انحطاط شأنها لدى الأمم الأوروبية، ولو كان للعرب مدارس نظير ما للإفرنج، ومساعدون على تقديم العلم، ومحبة وطنية منزهة عن أغراض الدين، لما أصبح العرب أضحوكة عندهم، بل ربما صار العرب أرقى من جميع الأمم علماء لشدة حذقهم الطبيعى وحزمهم. ولا ينكر الغرب فضل العرب عليه.

بيته وأنا صغير لا أعرف شيئا سوى اللعب مع الأولاد. ولما بلغت أشدى باعنى إلى أحد الأتراك. فأخذنى هذا الرجل وسافر بى إلى اسلامبول وأبقانى عنده مدة سنة. ثم باعنى إلى رجل من كبار هذه المدينة، وها أنا منذ سبع سنين فى خدمته.

- وكيف معاملته لك؟

- بغاية الرقة واللطافة حسبما تقتضى طبيعة أهالى الأستانة. ولكن مع ذلك أرغب جدا فى العتق لأن الفكر وحده بوجودى عبدا، وبكونى أنا وملك يدى لسيدى، وبأن حياتى وموتى بين شفتيه أو يديه، ومتى شاء باعنى ومتى شاء اشترانى، بحيث لا يوجد لى أدنى حرية معتوقة ولا حركة مطلوقة، إنما يجعلنى مائلاً كل الميل إلى الحرية والعتق، ولو صرت خادماً بما يسد رمقى عند أحد الرعاع.

- إذن تشتهى العتق.

- نعم من كل قلبى.

- فلماذا لا تطلب من سيدك أن يعتقك؟

– كـيف أطلب منه ذلك وهو قـد اشـتـرانى بمـالـه لخدمته؟

قال ياقوت: فلما سمعت هذا من أخى قهقهت ضاحكا بملء شدقى، وقلت له: جعلت فداك يا أخى أو لم تعلم حتى الآن أن الحكومة قد أبطلت الإتجار بالرقيق، وما عادت تسمح بمشترى العبيد واستعبادهم، وإنك متى رجعت إليها بادرت إلى تحريرك إن شاء سيدك وإن لم يشأ؟ فاذهب حالاً إلى سيدك واطلب منه أن يعتقك وإن أبى ارجع إلى وأنا المسؤول عن تحريرك.

قال ياقوت: فذهب أخى من عندى وبعد ثلاثة أيام أتانى ومعه ورقة العتق، فأدخلته معى إلى المدرسة. وبعد مرور خمس سنين خرجنا منها، ودخلنا فى خدمة دولة التمدن تحت راية جانب السلطان الأكبر. وها نحن بين أيديكم نرى أخصامنا بأعيننا ووثاقهم بأيدينا، فأعز الله أنصار الحرية وأيد دولة الرفاهية.

وبعد تتميم الزنجى روايته المحزنة التى أثرت على جميع من فى المحفل ولفتت كل اهتمامهم، ساد السكون برهة

كانت فيه الملكة تمسح عينيها من الدموع التى استقطرتها رواية العبد. ثم التفت وزير محبة السلام إلى الفيلسوف الذى كان مستنداً إلى الصخرة بدون حراك، وأوعز إليه بالإشارة أن يرجع إلى كلامه. فلمس الفيلسوف جبهته المرتفعه بيمناه وأنشد يقول:

هذا ما يجب تبليغه لمسامع ملك العبودية الذى لم يسلك حسب مضمون ما تقرر لديه، فلا قيام لمملكته إزاء تقدم هذا العصر الجديد. فليسمع قواده وأنصاره ما سيرد عليهم أيضا وليركنوا إلى الحق. ثم التفت الى قائد الجهل مبتدئا به، وطفق يقول:

## الجهل

أما أنت أيها الجهل فمن أقبح الأرواح الشريرة التى تفسد فى الأرض تأييداً لملك العبودية، وتخريباً لأبنية العلم. فما أنت إلا السبب الأعظم لأكثر الوبال الذى جرى ويجرى وسيجرى فى المسكونة. والأصل الأول الذى منه قد نشأت فروع البدع والخرافات التى تجعل البشر عبيداً لأهوائهم وأبطالهم، وتحرمهم لذة حرية الحياة. فإذا كانت المسببات تستلزم من

الأحكام عليها ما تستلزمه الأسباب مضاعفا، فكم تكون إذن يا أيها الجهل مستلزما صرامة الحكم بمقتك من الناس وتبديدك وكسر شوكتك والنفار عنك، طالما تعتبر كسبب وأصل لتلك الآفاق المحكوم عليها بالمقت والكراهية منذ بدء الخليقة؟ وكم يجب على البشر أن يعتنوا بتهديم مملكتهم أمام العلم الذى حيثما حل حل معه المجد والعظمة والكرامة.

فبالعلم يجلس الإنسان على قمة كماله الطبيعى، ويعمل حسب استحقاق إنسانيته. وبالجهل يهبط إلى أسفل السافلين ويصبح بمصاف سائر الحيوانات. بذاك تعظم قوة الممالك وتصان حدود الملوك، وبهذا تسقط القوات ويمد التعدى باعه. بذاك يقوم اعتبار الشعوب وتنتشر ثروة القبائل، وبهذا يخفق جناح الاحتقار وينعق غراب الفقر والإقلال. بذاك قد تلألأ محيا الغرب، وبهذا قد أظلم جبين الشرق.

فكأن الشرق باب للدجى

ما له خوف هجوم الصبح فتح

ومع ذلك لا يجب على التمدن أن يستأصل جميع جذورك من أرضه يا أيها الجهل. على أنه لابد من بعض

دخل لك في غوطته استدراكا لشيوع الدعوى بتمام العلم ما بين غير أهله شيوعا لا ينكر ضرره. لأن الإنسان المدعى بالمعارف على غير أصل، إنما ينشئ أضراراً جمة إذ يزرع في عقول أصحابه ورفقائه الذين يثقون به قواعد وحقائق كاذبة باطلة، وهم ينقلونها إلى غيرهم إلى أن تشيع وتذيع، وربما صارت أساسات يبنى الناس عليها ما يفضى بهم إلى الضلال والطغيان، فيعود مقتضياً لنفوذ أنوار الحقائق فى أبصار بصائرهم عناء عظيم، ويكون سبب ذلك هذر الجاهل المدعى.

فيجب إذن للتمدن أن يترك يدا لقائد الجهل فى دائرته، لكى يوحى إليه بواسطة تغلب العلم أن يلطم أفواه تبعته ويضع أقفالا عليها، فلا يعودون يفوهون بما يؤذى، بل يحنون رؤوسهم أمام عظمة العلم ويجتهدون فى تلقى الحقائق على قدر الإمكان، ويعرفون أنفسهم أنهم منتسبون إلى الجهل. حتى المتوغلون فى بواطن الأشياء أيضا طالما يلتجئون إلى حكم الجهل، لكثرة ما يرون من المجهولات التى يفوتهم إدراكها. وكلما ازداد الإنسان علما ومعرفة وجد لحكم الجهل عليه

اتساعا وغلبة، لأن نسبة ما يمكن علمه إلى عالم المجهول هى كنسبة ما يمكن للنظر إحاطته من البحر إلى ساحة المياه جميعها، أو ما يمكن رؤيته من النجوم الظاهرة القليلة إلى بقية الأجرام المختفية الممتنع عددها. فكما أن كروية البحر ورحابة الفلك تقدمان للنظر أمداً وعدداً أكثر كلما ارتفع الناظر وقوى أسطرلابه، إلى أن يحكم فى النهاية بعدم إمكانية الإدراك العام لما أمامه فيرجع بصفقة المغبون. هكذا العلم أيضا، فهو يعرض للدارس حقائق ومبادئ أكثر كلما ازداد توغلا فيه إلى أن يجزم فى النهاية بامتناع الاطلاع المطلق على كل شىء، فيرتد ضارباً أسدريه متخذاً الجهل عذراً له. فعلى كل حال إذاً يجب أن يكون العلم والجهل مترافقين فى خدمة مملكة التمدن، ولكن بشرط أن يكون الثانى فى كتف الأول مطيعا له. وهكذا فيكون كل منهما عارفا بواسطة رفيقه حقيقة حدوده، فيلبث الواحد مجدا فى تمهيد مسالك العمار والطلب، ويرجع الثانى عن المعارضة إلى توقيف السير وراء الخراب الناجم عن الدعوى الكاذبة، بحيث يصير هذا مدركا حده وذاك عارفا نقصه.

## الكبرياء

أما أنت يا أيها الكبرياء فمن أدهى الأرواح التى تتعب فى مرادها الأجسام، ومن أعظم القوات التى تجعل البشر سالكين تحت نير العبودية، لأنك تتركهم عديمى الحرية فى تتميم مقاصدهم وواجباتهم. فتعدم كلا منهما قسما كبيرا مما يخصه من الحقوق، على الهيأة التى هى أيضا تفقد أهم حقوقها على أبنائها بحيث يصير هذا محروماً من التمتع بتمام الألفة والمخالطة وتلك معاقة عما تطلبه من الانتظام والالتئام.

فهل دخلت يا أيها الروح الشرير فى أحد إلا وتركته يخبط فى لجة البلبال والتعب، وجعلته مرذولا ومبغوضا من جميع بنى نوعه؟ فحيثما جلس رأى نفسه أرقى من محله وأعز من جلسائه، وإذا ألقى سلاما على أحد أو تكلم معه غيره زعم أنه قد تنازل بذلك تنازلاً عظيما على ما يتوهم من علو قدره. وإن قضت عليه الحاجة بالسؤال عن أمر يجهله أو الاستفادة من شيء ما من أحد الناس، يقع فى حيرة عظيمة واضطراب لا مزيد عليه، ويصير محلا لتنازع عوامل الطلب والترك، إذ يرى لسانه منبسطا إلى المطلوب، وقلبه منقبضا عنه، فتثور فى جوانحه نار الألوهية، ويأخذ بإرسال إشارات

ورمِوز عن مقصده، عسى ينال الجواب والفائدة بدون تصريحه بسؤال رسمي. وإذا أعياه بلوغ المراد، حاول أن يسبك السؤال في قالب قصد التنكير لمعرفة، لا طلب التعريف لنكرة، دفعا لنسبة الجهل أو الوقوع تحت المنة، واختلاسا للفائدة من غير أن يغض من كبريائه. وإذا أوقعته الصدف بمرافقة أحد إلى الدخول في مكان ما، حاول كل المحاولة أن يتقدم عليه ويبقيه خلفه.

وهكذا لا يزال هذا المتكبر الأحمق معجباً بنفسه عاقدا حواجبه، إذ يظن أن السماء تعنو لديه والأرض تجثو لأقدامه، مع أنه يكون بمقتضى هذه الأطوار مبغوضا وممقوتا من الجميع، ومنبوذا من الحياة الاجتماعية التي تأسف عليه، بينما هو أيضا يندب سوء حظه ويبكي على حياته التعسة المقيدة بسلاسل العبودية لكبريائه، إذ يرى حاله مقهورا لطبعه، ومحروما من لذات الخليقة، ومرذولا من الخلائق، ومدانا من الخالق. فلا يعتبر إلا كورقة الخريف المستعدة للهبوط من أعاليها لدى أقل حركة من الرياح.

فقل لنا يا أيها الروح المتعجرف من أنت؟ وما أنت؟ لنعطيك حقك.

فإن كنت بشراً فما فضلك على البشر؟ وإن كنت ملاكا فأنت إبليس الاستكبار، إذا لم تسجد لآدم متواضعا. وإن كنت ملكا فإنك خادم الناس ما دمت كبيرهم، ولا تنفعك كبرياؤك عليهم، وستحل فى قبر النسيان قبل حلولك فى قبر الأبدان، وقد قال قبلك الملك والنبى داود أنا دودة ولست إنسانا. وإن كنت نبيا فما عندك آية سوى الكبرياء، وهذه سيماء الدجال. وإن كنت رسولا فقد كذبت رسل من قبلك. وإن كنت من ذوى الفضل والإحسان فإنهما من الواجبات البشرية، ولا يسمح لك واجبك بالتيه والعجب على غيرك. وإن كنت غنيا فثروتك لنفسك، ولا تنفع بها أحداً ما لم تنتفع منه أولا، على أن الأغنياء والفقراء متبادلون حقوق المعيشة على السواء. وإن كنت حيوانا فأنت واقع تحت قدمى الإنسان، إذ تكون غنمة أو بقرة أو إحدى بهائم البقاع.

ومع ذلك لا ينبغى الرفض المطلق لقائد الكبرياء من مملكة التمدن، حذرا من حصول الدناءة التى لا تليق بالبشر. بل يجب تركه مقيداً بحكم الاتضاع حتى يستوفى كل منهما حقه حسبما يقتضى الحال، فتكون النتيجة حصول عزة النفس المقبولة فى شرائع التمدن، وزوال عبودية الاستكبار عن الأنفس.

تواضع تكن كالنجـــــم لاح لناظـــر
على صفحـــــات المــــاء وهـو رفيع
ولا تك كالدخــــان يرفــع نفســـــه
إلى طبقـــــات الجــــو وهـو وضيـع

## الحسد والطمع

ها قد وصلنا إلى هذا الروح الذى كثر شره وعظم ضره منذ البدء إلى الآن، أعنى به قائد الحسد والطمع كعبة الشقاء وركن الفساد. فما أنت يا أيها الروح الشرير إلا آلة بها يفتك الناس بعضهم ببعض، وبها أنشأوا كل حقد وعدوان. فطالما كنت سببا لسقوط ممالك، وزوال ملوك وعظماء. فبك هلك قابيل إذ أوقعته فى معصية القتل. وبك هلكت امرأة لوط إذ أطعمتها بسبر غضب الله. وبك طردت هاجر إذ نزلت فى قلب سارة. وبك طلب يعقوب الفرار إذ أثرت سخط العيس. وبك سقط يوسف فى البئر وبيع وأسر، إذ فشيتَ فى أرواح أخوته. وبك زهقت روح شاول إذ ملأته حنقا على داود. وبك تبلبلت دولة المكدونيين، إذ أفرغت فيها سمومك. وبك قتل يوليوس قيصر، إذ دخلت فى قلوب أصحابه. وبك وبأفعالك قد رجمت الفلاسفة، ورذلت العلماء، وانخذلت الأئمة.

فكم يجب على البشر أن ينفروا عنك ويبغضوك يا أيها الحسد والطمع؟ لأنك تجتهد على الدوام فى إلقاء الحقد والبغض ما بينهم، وفى تفريق شملهم إذ تجعلهم أخصاماً وأعداء لبعضهم أفرادا وإجمالاً.

فمتى دخلت فى قلب إنسان جعلته عدوا مبيناً لأنداده ونازعته الراحة والحرية، فإذا كان ملكا أخذ يضارب الملوك ويشن الغارات عسى ينال المرتبة الأولى على الجميع. وإن كان وزيرا جعل يناكد الوزراء ويشى بهم عند الملك رغبة فى الارتقاء عليهم. وإذا كان شريفاً شرع ينم على الأشراف ويستهجنهم إزاء العامة ويقذفهم بكلمات الاحتقار، أملا منه بأن يعمى عيون الناس عن أن ترى شريفا سواه. وإذا كان غنيا تاجرا طفق يسخر بالأغنياء التجار ويشنع بهم ويشيع عنهم أخبار الإفلاس، لكى يزيل اعتبارهم من بين الناس مؤملا أن ينحط عمود ثقتهم بقوة ذلك التشنيع والإشاعة فيسر فرحا. وإذا ساقه الحديث أخذ يسند غناهم إلى عامل الشح والبخل، فيما أنه يكون أشح وأبخل. ولم يزل يتزايد الحسود حسدا حتى إنه ربما لا يعود يستطيع النظر إلى ثوب جديد غير

ثوبه، أو طعام لذيذ غير طعامه. وإذا كان عالما أو شاعرا أخذ يزدرى بمؤلفات العلماء ويهزأ بقصائد الشعراء باذلا جهده فى إعلان زلاتهم وغلطاتهم، على خطأ كان أو صواب، حتى إذا عصر على شىء من ذلك أخذ بوق الانتقاد وجعل ينشر بصراخه كل أموات الغفلة. وربما أفضى به الحال إلى أن يطرح من يده كل مؤلف أو قصيدة لمن سواه من العلماء والشعراء، ولا يهتم بالقراءة حذرا من أن يرى فكرا أجل من فكره، أو علماً لا يعرفه. وبقدر ما يرى من سمو أفكار غيره وجمالها، يكون شعوره بثوران لهيب غضبه وهيجان بركان انتقاده.

وهكذا فربما لا يعود فى طوق لسانه أن يلفظ سوى الشتائم والمسبات التى أخفها قوله: هذا سخرية ومخرقة وهزيان وركاكة، كل هذا يقوله حسدا بدون إبراز أقل حجة يحتج بها على حجة احتقاره فضائل الغير، هذا إذا لم يطرح قياد العلوم والقرائح فى عهدة الجنس أو المذهب.

وقس على ذلك سائر المراتب والصنوف من البشر الذين يأخذهم روح الحسد والطمع، فكم يستفز هذا الروح

شروراً وبغضاً بين البشر؟ وكم يهتك حرمة هيئتهم ويخترق ستار اعتصابهم؟

فماذا ينفعك الحسد يا أيها الحاسد الجاهل؟ وهل تظن أن هذه الخلال توصلك إلى أوطارك وآمالك؟ حاشا لله. إن هذه الخلال القبيحة لا تسديك سوى التقلب على النار الدائمة فى الدارين، ولا تجديك سوى قلق الفكر وعذاب النفس والتنهدات والحسرات، وتجعلك مضغة فى أفواه الناس ومهملا من الجميع.

ولا يخفى ما يترك الحسد والطمع من الشوائب الذميمة فى الإنسان، وذلك نظير البغض والحقد والحنق والاختلاس وحب القتل والإضرار، وكل من هذه الأطوار الرديئة يترك وراءه أطواراً أخر أشد رداءة، إلى أن يصبح الحاسد مؤلفا من كافة الأرواح الخبيثة. فلا بدع إذا كان الحسد يشبه الشجرة الهندية التى يسمونها المستحية، فهى كلما وصل غصن منها إلى الأرض ثبت وصار شجرة، وهكذا إلى أن تنقلب أخيرا إلى غابة عظيمة تعشو إليها طيور السماء، والحشرات تسكن فى مقادمها.

فلا يوجد شيء أشد مقدرة على استعباد النفس من الحسد والطمع، فإن هذا الروح إذا تمكن من الأنفس، وثقها بحبال العبودية الخاضعة لسلطان الانفعالات، ومنعها من التمتع بأدنى لذة أدبية. فتبقى مرتجفة بين فواعل الشهوات كارتجاف العصفور بين مخالب العقاب، فاقدة كل سلامة الحواس، إذ لا تعود ترى سوى تناثر شرر الاضطراب والارتباك، ولا تسمع سوى دوى أصوات القنوط والأكدار، ولا تذوق سوى مرارة الأميال والآلام، ولا تشم سوى رائحة الاختلاط العصبى، ولا تلمس سوى خشونة الأشياء الغير مملوكة منها.

ومع كل ذلك فلا بأس من ترك مجال ضيق لقائد الحسد والطمع فى أحكام التمدن، لأن هذا الروح يقود الناس إلى المغايرة، التى ينجم عنها فوائد جزيلة لترقية الجمعية البشرية، نظير الهجوم على درس العلوم وتنشيط الأشغال وتنبيه القوى الاختراعية ونحو ذلك. ولكن يجب أن يرفق هذا القائد بالرضى والقناعة، ويكون خاضعاً له لكى يمتنع ضرر ذاك ويقوم نفع هذا، فتحصل المغايرة النافعة.

## البخل

هو ذا ضـجـيج عظيم آت من كـافـة أقطار الأرض. صـراخ شـديد يدوى تموجـه فـى المسـامع فـأمـيلوا آذانكم يا قاصدى التفتيش، حـمقلوا بأعينكم لنرى ما هذه الضوضاء الآتيـة من بعيـد، وعلى م ذلك الصـيـاح المرعب؟ ها قـد بدأ يلوح لى أن فتنة كبرى تثور فى العالم. نعم فتنـة كبـرى آخذة بالثوران. لأن أصوات لعنات وشتائم تتوارد إلى أذنى مـحمولة مع طلقات الضجيج. فما سبب هذا الافتتان العظيم، وعلى من يدور مـداره؟ ألعل ذلك على البـخل؟ لأن أكـثـر تلك اللعنات والمسبـات تنطبق على اسمه كما تسمعون. نعم على البـخل على البـخل، ولا يوجـد من يستـحق نهوض العالم ضده نظير البـخل، لأن البـخيل يجتـهد على الدوام أن يحشد أرزاق البشر فى خزائنه، ويحسر قوت العباد فى جيبه، ولو أوجب ذلك خلل النظام العام واستعباد الأنام.

وهاك قائد البخل منتصبا لدينا تجاه الكرم، وهو قـابض بيـديه على سـاعد دولاب المعـامـلات، وسـاعـد قيـام الحـيـاة، فلنوجه خطابنا إليه قائلين:

ها قد نهضت المسكونة عليك يا أيها الروح الخبيث قائد البخل والشح. وها جميع الناس يقذفونك باللعنات والمسبات، فأنت مستوجب أن يحكم عليك بالخزل والرزال بدون تردد، لأنك تود مطلقا أن يتغلق كل باب لتقدم الخلائق، وتنفتح كل سبل التقهقر أمامها. إنك لتخزن الأموال ولا تدع لها منفذاً. أما تعلم أن العطاء ينهج طرق الخير ويغيث أخاك الجائع؟ وتكنز الدنانير والدراهم فى أعماق الصناديق حذراً من أن يلامسها الهواء أو يمسها النور، والفقير فى شر حالات التعاسة. أما تدرى أن الدراهم قد صارت الآن محورا لمدار عالم المعاطاه، وأن حجزها يضيق دائرة العلائق البشرية ويعيق تبادل المعاملات؟ إنك أيها البخيل تطرد كل سائل ومحتاج ولو على فلس، وتميل عن كل عمل كريم أو سمة تقتضى السماحة والإحسان. أما تعرف أن العضد الأعظم لترتيب حياتك يؤخذ من مثل السائلين والمحتاجين؟ فهم يبنون دارك وحانوتك. وهم ينسجون ثوبك ورداءك. وهم يجهزون كل أدوات طعامك وشرابك. وهم يتسارعون إليك من كل الجهات ليحرسوك من وثبات المختلس وهجمات العدو. وهم يمدون أيديهم ليرفعوك لئلا تعثر بحجر رجلك. وإذا شبت النار فى

منزلك ألقوا أرواحهم لينقذوك وأولادك ويحموا امتعتك. فلماذا تدوس أعناقهم إذا انطرحوا تحت قدميك يطلبون إسعافاً؟ ولماذا تعرض عنهم وتشتمهم إذا مدوا أيديهم إليك ليطلبوا ما يسد رمقهم من فضلات مالك؟ حتى إذا أمكن للإلحاح أن يقتلع من فولاذ يدك بارة واحدة شعرت بألم اقتلاع الضرس، ولماذا تعصى الآمر بإشباع الجائع وإكساء العريان؟ أما تخشى وقوعك فى ثورتى الدنيا والآخرة؟ وكم تهجس على مضجعك فى أمر التوفير، وتتصل به إلى حسابات وكميات تفوق طور الإدراك مرتقيا فى سلسلة التضعيف والضرب حيث تقول فى ضميرك : إننى من الغد سأشرع بتنقيص كمية اللحم والبقول والزيوت وبإجهاد الأولاد فى تتميم الأعمال الخدمية اقتصاراً بهم عن الخدم. ولم أزل أنقص مقدار الطعام وأعود الأولاد على الخدمة، حتى نستطيع أخيرا أن نعيش على النزر من الخبز والقليل من الجبن أو الزعتر، ونصبح قادرين على قضاء كل الأعمال الشاقة، وبهذا العمل يمكننى أن أجمع كل مال العالم، لأن درهما ودرهما درهمان، ودرهمان ودرهمان أربعة دراهم، وأربعة دراهم فى أربعة دراهم ستة عشر درهما، و١٦ فى ١٦ يساوى ٢٥٦ و٢٥٦ فى ٢٥٦ يساوى ٦٥٥٣٦ .. وهكذا

ترتقى أيها الشحيح من المضروب إلى المضروب فيه إلى أن تبلغ الحاصل الأعلى، حيثما لا يوجد رقم ولا يجرى قلم. وحينئذ تأخذ نفساً وتقول: ها أنا مزمع أن أملك العالم بأسره، وأوقف كل دواليب الأشغال وأجعل الناس عبيداً لى.

نعم ستفعل هكذا يا هذا البخيل، ولكن بعد ألوف من السنين إذا لم تمت بداء الجشع، فليعش رأسك الكريم ولينجح مقصدك العظيم. ولا عتب عليك إذا فكرت فى نفسك هكذا لأنك ترافق القمر فى مشروعه. فكما أن هذا الجرم يخال أنه سيوقف دوران الأرض بعد عدد من ألوف ألوف السنين لا يحصى، وذلك بتأخير جاذبيته لحركتها ست ثوان فى كل جيل، هكذا تخال أنت أيضا أنك ستوقف حركة أشغال العالم بجذبك كل الأموال من أيدى الناس وتعود منفرداً بالسطوة والغنى بعد العمر الطويل.

فتبا لهواجسك وبعدا لمقاصدك وسحقا لك. أما ترى كيف تخفق على البشر أجنحة الموت بينما يكونون غارقين فى لجج مطامعهم وتأهباتهم وراتعين فى حدائق أفراحهم ومسراتهم؟ أما تعلم أن السارق قد يأتيك من حيث لا تعلم؟ أما يلوح فى رأسك الممتلئ من أفكار الثراء مساء فكر واحد بإمكان

انحداره في حفرة الثرى صباحا؟ ولماذا هذا البخل الكثير وذاك العناء العزيز؟

وهبك ملكت خزائن الملوك وجمعت كل ثروة العالم أليس مصيرك إلى الزوال والفناء وأنت حامل على ظهرك كل تلك الأحمال الثقيلة؟ وهل يمكنك أن تمد عمرك الى أمد أطول مما تقتضيه الطبيعة؟ وهل تستطيع أن تردع بقوة أموالك مسير المركبات إلى الانحلال؟ فسوف توجد راحتاك المنقبضتان على كل تلك الكنوز التى جمعتها بالوهم منبسطتين إشارة إلى خروجك من هذه الدنيا بلا شيء. وربما لا تجزى من سيرتك التى شوهها البخل سوى اللعنة حتى من ابنك الحبيب الذى به سررت.

فلا يعاتب العالم إذن إذا أثار عليك الفتن يا قائد البخل، وارتفعت أصواته ضدك، وتبادرت قواته إلى الفتك بك، لأنك أنت العدو المبين له ولكل مصالحه، وأنت المصر على هتك ستار هيئته، واستعباد قلوب أبنائه بحشرك أهم أدوات مداره. ومع كل هذا فلا بأس من ترك ظفر لك فى جسد التمدن، لتكون مانعا لهجوم التبذير الكثير الضرر، ولكن يجب أن تكون مقيدا بأوامر الكرم، لكى تحصل الرتبة المطلوبة ما بين التبذير والبخل.

من هذا الرجل المنتصب أمام عرش التمدن ذو الأسنان المكزوزة والأعين المتوقدة بالشرر؟ من هذا الواقف وقوف النمر المستعد إلى الوثوب على الفريسة؟ هل هذا هو قائد الضغينة؟ نعم هذا هو قائد الضغينة المستعد أن يغدر بكل من يمحضه السلام ويركن إليه.

فما أنت أيها الروح الحقود سوى عذاب أليم للأرواح، لأنك متى أوقعت أماراتك فى أحد أعدمته الراحة والسكون وجعلته كالوحش الحائم على ما يفترسه. فلا ينام إلا على فراش الغضب، ولا يستيقظ إلا بأعين الانتقام، ولا يروى إلا بكرع الدماء، ولا يجد فى نفسه حركة حرة لأنه يقضى الليل والنهار مملوكا من خلقه ومأسوراً لحب انتقامه وواقعاً فى خطر ضياع قدره.

هكذا يعيش صاحب الضغينة عبداً وأسيراً لأطيائه، ومعاديا ومبتعدا عن معاشرة الذين يلمحون طلائع هجماته فيجتنبونه. فلا ريب إذن فى أضرار هذا الروح على المجتمع البشرى، إذ إنه يوقع النفار ما بين الناس ويبعدهم عن بعضهم

البعض، ضدا لما يطلبه ميلهم إلى الالتئام في دائرة التمدن، توطئة للتعاضد في الانتفاع. فمن الواجب والحالة هذه أن يكون الصفح مرافقا قائد الضغينة ورادعا جماحه، كما يجب على الضغينة أيضا أن ترى اندفاع الصفح في بعض الظروف، حذرا من انغلاق أبواب السلام أو انطلاق أشواط التهافت. ولكل وقت وأوان.

## النميمة

ما لي أرى هؤلاء القوم يرشقون على هذا الشخص القبيح الوجه نظرات النفور والاشمئزاز، ويبعدون عنه كأنه جيفة نتنة أو جرب معد، وجميعهم يشيرون إليه بالبنان ويتآمرون. ولماذا كل واحد يظهر إشارات الخوف منه ويتمنى الابتعاد عنه؟ ولماذا قد أطبق الناس على اجتناب هذا الرجل المسكين، حتى لم يعد أحد راضيا أن يكلمه أو يلقى عليه السلام؟ فليت شعرى هل هذا رجل النميمة؟ حيث لا يوجد من يستحق معاملة سيئة كهذه سوى النمامين.

نعم هو رجل النميمة وقائدها. ولذلك يتحاشاه جميع الناس ويبتعدون عنه غاية الابتعاد، حذرا من آثاره الردية

وأطواره الذميمة. لأن دأبه أن يهتك حرمة الأسرار، ويكشف الستر عن معائب البشر، ويظهر كل الأعمال السائرة منهم سرا. حتى إنه يفعل هكذا مع أخص أصدقائه، وربما تعمد أن يصاحب أحداً ليطلع على خفياته بالاستيداع، ثم يذيعها بالنميمة. ولا يبالي من ارتداد وجعه على رأسه في أحوال شتى، وذلك عندما تستقر الخيانة عنده، فيستوجب لعنة الجماعة، ويعاقب بالصد والجفاء. نظير ذلك الأفعوان الأسود الذى إذ يلسع تنسحق أنيابه ويسيل منها سمه فيمتصه فيموت.

فلا شك إذن بعظم أضرار هذا الروح الخبيث، وبكل عدل يجب طرده من عالم الآداب والتهذيب، وكسر شوكته بطرده من المجتمع الإنسانى. وبكل حق ينبغى النفار عنه واجتنابه. إذ ما من أحد يرضى بهتك أسراره وخفاياته، ولا يوجد أشد على الإنسان من وقوع أعماله السرية فى ألسنة العامة وإظهار عيوبه أمام الجمهور. ولو أمكن وجود إنسان خال من النقيصة لحق له أن ينتقد نقائص غيره، ولكن لامتناع وجود الكمال فى الإنسان سقط حق الانتقاد عن الناس أجمعين، لكى لا يقال للمنتقد أنزع الخشبة من عينيك ثم انظر إلى القشة فى عين سواك.

ولما كان السقوط المطلق لقائد النميمة قد يفتح طريقا لهجوم الأشرار إلى عمل العيوب بدون خشية كشف النقاب عن مساويهم ليردعهم عن الكبائر بلجمه جماح الشهوات، كان الأفضل أن يبقى له صوت في آذان العموم لأجل التهديد، ولكن بشرط أن يكون زمامه محفوظاً في يد قائد الكتمان.

## الكذب والنفاق

أما أنت يا قائد الكذب والنفاق فلا تعتبر إلا كهادم لمباني الآداب الإنسانية، ومفسد لصلاح الغريزة البشرية، ومستعبد لحرية الفطرة. لأنك متى أوقعت أحكامك على أحد، أحدثت فيه بلبالا عظيما ظاهرا وباطنا، إذ تجعله الخصم الألد لضميره كلما فتح فاه، وتبقيه أضحوكة في أفواه سامعيه، فتكسبه العار والفضيحة حتى إنه يعود متقلبا على جمر الندم ومشمولا بقنوط النفس كلما خلا في نفسه وتبصر بما أنشأ لسانه من الأكاذيب والنفاق في مسامع الناس، وبما سيرد عليه من التكذيب والإذلال. فينثني مصمما أن يحفظ لسانه من شين المين، ولكن غلبة الملكة لا تسمح له بذلك ما لم يحتمل مشقة عظمى، فيعيش أسيرا وعبدا لك يا قائد الكذب والنفاق.

ولما كان الطبع البشرى يأنف ويستنكف جدا من تكلم الخلاف، ولا يميل إلا إلى صدق المقال، وإثبات الحقيقة، كان الإنسان الذى لا يصدق بلسانه ولا يستقيم بجناحه مكروها حتى من نفس طبعه أيضا، على أنه يرى تطبيقه مضادا لطبيعته، فيكره نفسه.

فيجب على كل إنسان أن لا يخضع إلى حكم هذا الروح الشرير منذ نعومة أظفاره، حيثما يهون التعود على الخير أو الشر. وأن يرفض كل كذب ينسب إليه مهما كان بسيطا، لأن الذى يبتدى بالصغائر قد تهون عليه الكبائر، والذى يفكر بالقليل يتصل إلى الكثير، لأن الفكر من شأنه أن يطير بأجنحة التصور إلى قبة فلك التصورات، حيثما لا يوجد نهاية ولا قرار.

وهكذا فلا جناح على ملك التمدن إذا كان يهلك كل الذين يتكلمون بالكذب، لأنهم يسعون بمملكته إلى الخراب، بما تترك ألسنتهم المنافقة من الأضرار الكلية والجزئية، كإثارة الفتن وإلقاء الفساد وتبغيض المحبين وإغراء ذوى الغفلة والسذاجة ونحو ذلك. فهذه جميعها أطوار تعارض مسير التمدن، وتباين آرائه التى لا تتفق والنفاق طردا مطلقا، لعدم نفعه فى شىء وإقامة الصدق والحق مكانه.

## الخيانة

ولما كانت الخيانة قائدة كل هؤلاء القواد وحاملة لواءهم الأسود، وأصلا تتفرع عنه أكثر الخصال الناقصة والصفات غير الصافية، كان الواجب أن يحكم عليها كما حكم على أولئك، وأن يعامل قائدها بالطرد المطلق نظير قائد الكذب:

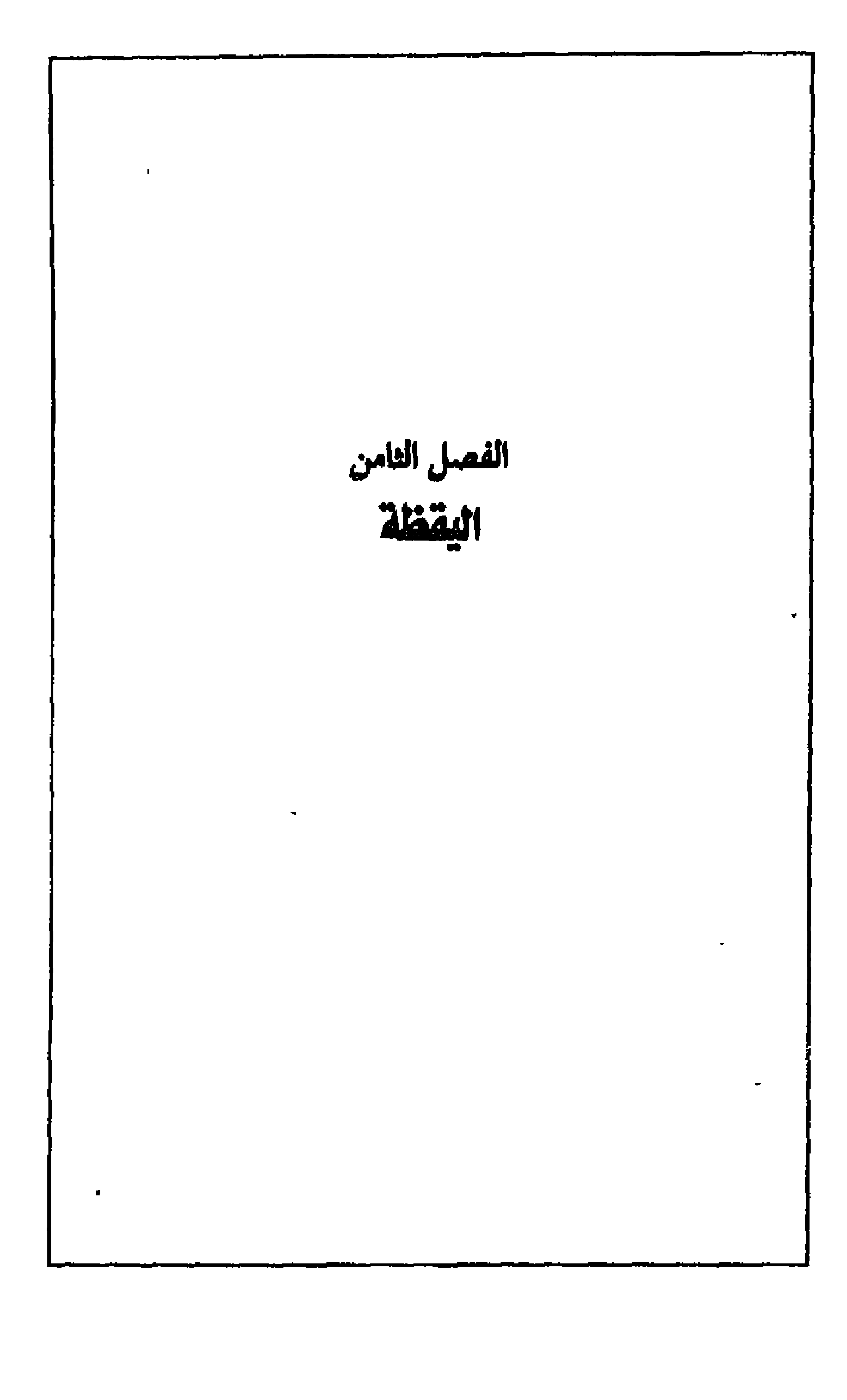
لا عــاش من للعهد خان خونا
وبئس وغــد لا يصــون صـونا
جــرى أمامــى الدهر فاتبعتــه
عسى أرى خــلا فما وجــدته
صحــبت نــذلا يستدر ودى
وهــو مولــع بنكــث عهــدى
قــد كان يدعو نفسه رب الوفــا
والآن فى ذكــرى يهز الكتفــا
أظهــر لى الــود ليجنى زهرى
وإذ تــولاه لــوى بالظهــــر
فصــار قمحــى عــنده زوانــا
ودررى أضحــت لــه أدرانــا

عـــن مـــثل ذا داود قـــد تنبــا

قـــد أكلـــوا خبزى وداروا العقـــــبا

لا بــارك اللــــه بـــــذى الخيانـــة

ولا رعى مـــن مــا لــه أمانــــــة



## الفصل الثامن

# اليقظة

# اليقظة

وإذ أتم الفيلسوف كلامه حنى رأسه لدى المقام الملوكى ونزل من فوق الصخرة. وبينما كان السكوت سائدا على من فى المسرح، لمعت بارقة تخطف الأبصار، وأعقبها رعد يزعزع أركان القلوب، فسقطت على الأرض ارتياعا ودهشة. وبعد زوال هذه الوثبة الجوية نهضت من سقطتى لأرى ماذا جرى، فغشى نواظرى ضباب التحير، ولبثت عديم الحركة لأننى لم أعد أشاهد شيئا مما كان، إذ وجدت نفسى منفرداً فى برية منخفضة لا نبات فيها ولا حيوان.

وعندما أجلت نظراتى فى أقطار هذه الفلاة القفرة أخذتنى رعدة الخوف والهلع وشملتنى شمول الكمود والكآبة، وعدت حائرا فى أمرى. فسكون الموت كان يحوم على هذا القفر الوجوم، ولم يوجد فيه من الكائنات سوى أتربة تبعثرها أرجل الرياح، وحصباء توهم فراش بحر جاف، وصخور تشهد على قساوة الزمان. وكان الشفق كالحديد المحمى، يتطافأ على كور المغرب بمنظر يستفز الكروب ويستهز الرعشة. ولم يكن مسموعا فى هذا الغور الراسخ فى حضن الوحدة سوى نعيب

البوم وصراخ ابن آوى. وكلما كنت أثبت تأملى كان يتزايد فى باطنى حراك الكمد والكرب، وكلما أطلقت أنظارى إلى السماء لأنال تعزية رددتها ممتلئة من البهتة والجمود، لأنها ما كانت ترى سوى سحابات متوقدة تندفع من الجنوب إلى الشمال، طارحة على الأرض نارا ودخانا.

وبينما كنت أردد أفكارى فى هذا المشهد الصامت، وأسرح نواظرى فى هذه البيداء المجدبة، وإذ تل مرتفع يلوح لى فسرت إليه وصعدت على قمته ووجهت وجهى إلى جهة المشرق، حيثما كان القفر يسبح تحت أعينى فى تيار الظلام. وإذ أصغيت بكليتى سمعت صوتا ينادينى من بعيد قائلا (هذه برية الشهباء فلتبشر بقدوم الخير) فقلت فى نفسى: من أين سيأتى الخير إلى هذه القفار المجدبة والساقطة من أعين العناية منذ ألف سنة فأكثر؟ إن فى هذه البشرى ضربا من المحال. ثم التفت إلى جهة الغرب لعدم اهتمامى بما سمعته، وإذ مد من الاخضرار يتموج من جانب الأفق وكأنه يهم أن يتدفق على كل تلك الأقفار اليابسة، فشملنى العجب للحال، وأخذت أشخص فى هذا المظهر العجيب ذى الجمال الغريب، وبعد أن تفرست قليلا سمعت صوتا يدوى من خلال الغمام وينادينى قائلا: (أبشرى أبشرى يا برية إرم القديمة، وافرحى وابتهجى

يا شهباء سوريا، فها هى العناية الملوكانية مقبلة إليك، والمراحم السلطانية هاجمة عليك، فلا عاد يفترسك المحل، أو يفتك بك الإهمال) . فلما سمعت هذا النداء الكريم طفقت أرقص من شدة سرورى وفرحى، وقلت لا شك ولا ريب فى قدوم الخير والرخاء إلى هذه الديار المستعدة لقبول كل إصلاح، لأنها قد وقعت تحت أنظار عناية حضرة ذى الشوكة والاقتدار عبد العزيز خان دام ملكه مدى الدوران، وقد تشرفت بنعمته وجودته.

ومما شملنى من الاندهاش، أثبت نظرى فى متن الأفق، وبينما كنت شاخصا ببصرى فيه رأيته قد استحال إلى بحر من النور الساطع، وأخذ يتلألأ نظير الشمس فى السماء الصاحية. وإذ لم أعد أستطيع النظر إلى هذا المشهد المنير، أغمضت عينى على غشاوة الانبهار، وأخذت أضرب فى أودية الهواجس. ولما فتحت أجفانى وجدت نفسى مضجعا على فراش النوم تحت سماء اليقظة.

(تم)

وكان النجاز من طبعه فى مطبعة العمران فى محروسة مصر فى ١٥ يونيو سنة ١٩٢٢ والحمد لله أولاً وآخراً.

# فهرست

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٨٩٧ / ٢٠٠٠

I . S . B . N 977 - 01 - 6935 - 8